ذكرى الشاعرين

شاعر النيل وأمير الشعراء

دراسات ومراث ومقارنات

مدبجة بيراع أئمة البيان وأعلام الكلام في البلاد العربية

جمعها ورتبها

أحمد عبيد

القسم الثاني – احمد شوقي

القسم الثالث – مقارنات بين الشاعرين

الطبعة الأولى سنة

المكتبة العربية في دمشق

لأصحابها عبيد اخوان

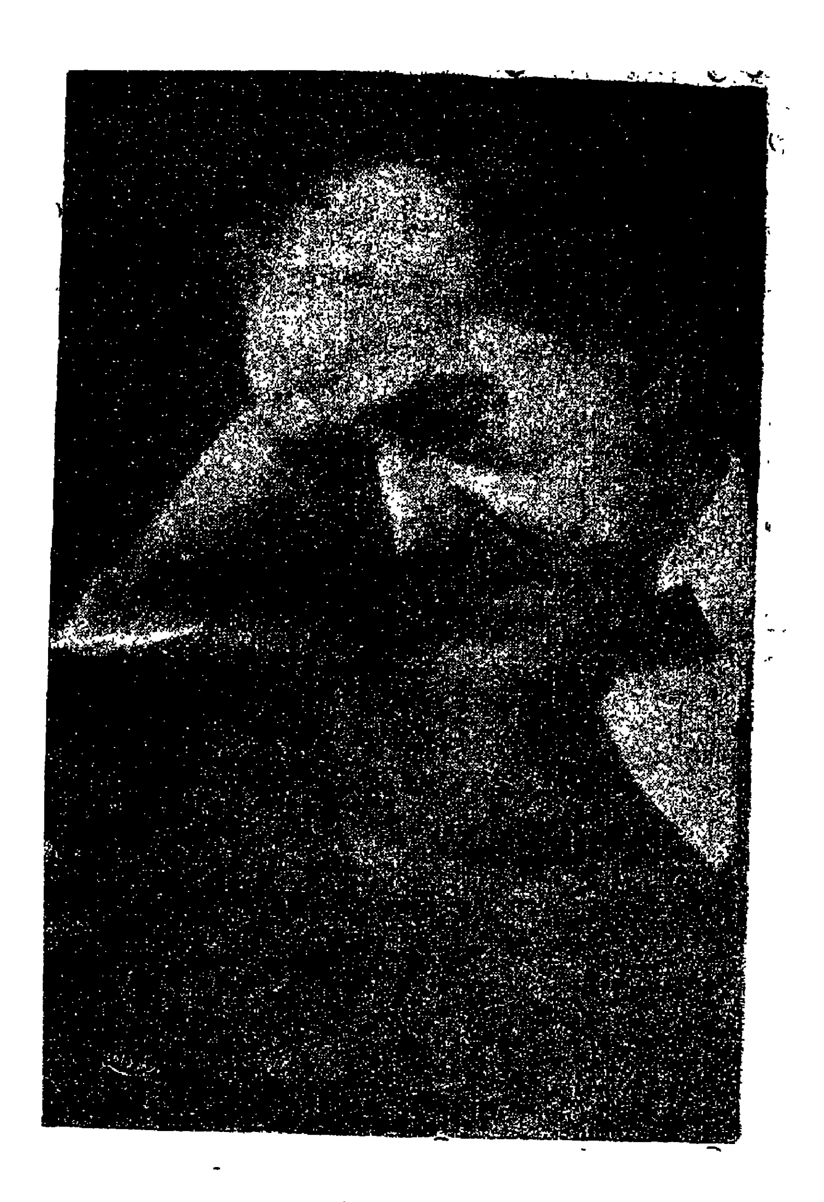
القسم الثاني

أمير الشعراء

احمد شوقي

١

مقالات الادباء فيه



احمد شوقي

وفاة شوقي وجنازته

كان الفقيد في أيامه الأخيرة يتمتع بصحة طيبة ولم يكن يشكو غير فقد شهية الطعام، وقد فحصه أخيراً أحد الأطباء المعروفين فقرر أن صحته العامة لا بأس بها، ولكن التغذية ضعيفة، ونصح له بأن يعطي الجسم حاجته من الغذاء. وكان يوم الخميس ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٢ من الأيام التي أحس فيها بنشاط صحي مكنه من تناول طعام الغداء بشهية، ثم ذهب للنزهة في السيارة إلى ضاحية مصر الجديدة وعرج على دار صديقه إسماعيل شيرين بك مدير المطبوعات فلم يجده فيها فترك له بطاقته ثم قصد حوالي الساعة التاسعة إلى أحد المطاعم بالعاصمة فتناول عشاءه فيه، وتوجه على أثر ذلك إلى دار (الجهاد) فأمضى مدة فيها بالقرب من صديقه الكاتب الجريء الأستاذ توفيق دياب.

ووصل الفقيد إلى منزله في الجيزة حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً فأخذ مضجعه ولكنه استيقظ عند منتصف الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فدق الجرس وحضر الخادم فطلب إليه الفقيد أن يحضر ماء ساخناً وورق كافور، وكلفه استدعاء طبيبين سماهما له وهما الدكتور [illegible] والدكتور مجلاد.

[illegible] الفقيد الخادم أن يوقظ السيد [illegible]

أحس الفقيد بالخاتمة فقال لخادمه : إني أشعر أن أمري قد انتهى فعليك أن تبلغ تحياتي وسلامي إلى أصدقائي الذين كانوا يزورونني هنا .

وحضر آل الفقيد وهو بالنزع الأخير، ولما وصل الدكتور جلاد كان الفقيد قد أسلم روحه إلى بارئها في منتصف الساعة الرابعة صباحاً ، فانطفأ هذا المصباح المنير الذي شعّ ضوءه فملأ الآفاق نوراً ، وكسا الدنيا بهجة وسروراً، وذهب شوقي بعد أن كان اسمه ملء فم الدنيا، وشعره أدب العالم العربي ومفخرته على الأجيال الغابرة والحاضرة .

وما كاد يذاع نعي الفقيد في القاهرة حتى وجم النـاس وعلتهم الكآبة وانتابهم الحزن والجزع ، وأخذ كل واحد يذكر لشوقي تاريخه الخاص معه فإذا لم يكن قد أسعد بمعرفة شوقي الخاصة لجأ إلى معرفته العامة في شعره وأخذ يفكر بذهنه في هذا الميراث الفاخر العظيم الذي خلفه شوقي للعربية والذي سيصعد به في مدارج التاريخ حتى يصل إلى البحتري وابن الرومي والمتنبي فيضعه معهم في مستوى واحد .

وأذاعت نعيَ الفقيد في أندية العاصمة وبمعاهدها جمعية أبولو للشعر وقد كان الفقيد رئيساً لها .

وقد تفضل جلالة الملك فأظهر عطفه الكريم على الفقيد وآله فأوفد مندوباً ينوب عنه في تشييع جنازة الفقيد .

كما أناب دولة رئيس الوزارة معالي وزير المعارف عنه وعن زملائه الوزراء في تشييع الجنازة .

وأعلن أن بدء الموكب الرسمي للجنازة سيكون في منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر من ميدان الإسماعيلية ، وضرب سرادق كبير ليجلس فيه المشيعون ، وما كادت الساعة تقرب من الرابعة حتى هرع إلى السرادق جموع غفيرة من الأدباء والشعراء والموظفين والطلبة والأعيان والصحفيين وجميع الطبقات التي تمت إلى الأدب بصلة او تتصل إليه بسبب .

وفي الساعة الرابعة وبضع دقائق وضع جثمان الفقيد على سيارة من سيارات الموتى لحملته من داره بالجيزة إلى ميدان الإسماعيلية .

وفي الساعة الرابعة ونصف تماماً نقل النعش من السيارة وحمل على الأعناق ، وقد تناوب حمله حتى جامع الكخيا جماعة من أعضاء جمعية أبولو ، وقد سار في طليعة الموكب صفان من الجنود المشاة واحتاط بالجنازة بعض الفرسان ثم مشى خلف الجنازة المشيعون يتقدمهم نائب حضرة صاحب الجلالة الملك وآل الفقيد ومعالي وزير المعارف نائباً عن الوزارة والجماهير الغفيرة التي أسلفنا وصفها ، والتي انتظمت كل معجب بشوقي وآثاره ، فخور بأدبه وشعره .

وسار الموكب مخترقاً شارع سليمان باشا فشارع قصر النيل ، وقد كانت جماهير المشيعين تملأ أنهر الشوارع وأرصفتها بخط طويل جداً .

وصلي على جثمان الفقيد في جامع الكخيا وقد أم المصلين فضيلة الأستاذ التفتازاني ، ولم ير عدد أكثر من المصلين على الفقيد ، وبعد

أن صلي عليه تقبل نجلا الفقيد الاديبان علي وحسين والأستاذ حامد الملايلي بك زوج كريمته عزاء جمهور المشيعين :

ثم نقل النعش إلى سيارة وتبعها خاصة الفقيد في سيارات كثيرة إلى مدفن العائلة بالسيدة نفيسة حيث أضجع في مرقده الأخير إلى جوار حميه المرحوم حسين شاهين باشا .

ثم ألقى الأدباء الدكتور علي العناني والأستاذ أحمد محفوظ والدكتور ناجي وفضيلة الأستاذ التفتازاني كلمات نثرية وشعرية في رثاء الفقيد . وعلى أثر ذلك عزى الحاضرون آل الفقيد وانصرفوا وهم يضرعون إلى المولى عز وجل أن ينزل الفقيد منازل الرحمة الواسعة ويقعده مقعد صدق بين عباده الصالحين .

دمشق : (جريدة فتى العرب)

شوقي في ذمة التاريخ

في أشهر معدودات — في مدى صيفٍ واحدٍ — فقدت مصر اثنين عاشا على رأس جيلهما ، واستطاعا بعد أن تقضي العصر الذي أخرجهما وتغيرت الدنيا التي نشآ فيها ، أن يحتفظا بمكانيهما من زمنهما ، وأن يثبتا على دفع الزحمة الجديدة ، وأن يبقيا عنوانًا على مصر وحلية في تاج زعامتها للشرق . فالآن مضى الموت بشقي العنوان وعطل التاج من حليتين كان لهما من القدم جلال ، وإذا كانت الحياة كفاحًا بين الآراء والمذاهب والعقائد كما هو بين الناس وسائر المخلوقات — فإن الموت ينزع سلاح الكفاح ، ويستل البواعث عليه ويمحو الدوافع إليه ، وللموت خليق أن يغري المرء بالوقوف لحظة مترددًا حائرًا متفكرًا مضطربًا — إذا كانت هذه نهاية الحياة وخاتمة المساعي فيها وآخرة الفضيلة والرذيلة والحق والباطل والجلال والجمال والخير والشر فأي شيء في الدنيا حق ؟ وأي شيء فيها باطل ؟ وأين هي الحدود والمعالم ؟ وإلى أي مدى تتداخل أو تتصل ؟ وأين تفترق ؟ ولقد عشت من العمر ما يكفي لأن يعلمني أن الهدى والضلال أقرب شيئين ابتداء ، ثم يفترقان ويتباعدان ولكن إلى أي مدى ؟ لا أدري ولا أعرف من يدري ، وليس بمخلص لرأيه من لا يخالجه الشك فيه أحيانًا ولا يرجّه

الخوف أن يكون على ضلال . وما أكثر ما يكون رفض الشك غروراً ، ولكن بأي شيءٍ يهتدي المرء في هذه الدنيا التي تنتهي الحياة فيها إلى ظلام قبر لا يرى النور من وراه ؟؟

والحق أقول إن موت شوقي هزّني فقد كنت في حياته أتناول شعره برأي لي في الشعر ينزع بي إلى الرفض ، وإني في هذا لصادق السريرة فقد تناولت نفسي قبله وقستها بهذا المقياس عينه ووضعتها في الميزان الذي وضعته فيه ؛ فرفضت شعري أيضاً ونفضت يدي من النظم وكففت عنه لأني أيقنت أنه لا يرقى إلى الطبقة التي أتمثلها ، ولكن الموت قلاب لوجوه المسائل ، وهو يبدي من الصفحات ما لعله كان مغيباً ، وإن كان على هذا يغيب ما كان بادياً معروضاً ، ويخلع عن المرء كل ما هو عرضي ويجرده من كل شيءٍ إلا الفضل والحق . فأحرِ بالإنسان أن يقف برهة يتأمل مقاييسه ويتدبر موازينه لعله يعرف إلى أي حدٍ كانت هذه المقاييس مضبوطة والموازين دقيقة والتقدير سليماً والنظرة صحيحة ، ومن ذا الذي يسعه أن يطمئن إلى الدقة والسلامة والضبط والإحكام ، والحياة بحر تتلاطم فيه أمواج الصداقات والخصومات ، ويختلط فيه الإحساس بالرأي ، والعاطفة بالعقل ، ويتسرب الشعور المتأثر بشتى البواعث — ظاهرها وخفيها ومعروفها ومجهولها — في ثنايا القضايا المنطقية ؟ من الذي يستطيع أن يقول : إن رأياً لي أبديته اليوم سيأخذ به الزمن غداً ؟

الزمن وحده هو الذي يغربل الآراء وينخل الأحكام وينقي ميراث كل جيل مما عسى أن يكون قد علق به من حواشي الحياة التي تتصادم فيها القوى أو تتساير ، وتحترب أو تأتلف ، وتجور فيها النفوس وقلما تعدل ، والمرء في حياته يقول ويعمل بقدر اجتهاده،وليس أحد بمطالب أن يكون رأيه هو رأي الزمن ، فإن هذا فوق مقدور البشر ، وإنما يطالب المرء بالإخلاص وصدق السريرة والاجتهاد ، والاجتهاد فيه الخطأ والصواب، وليس المصيب بأولى بالتقدير والحمد من المخطئ ، فإن الحمد على قدر الجهد والإخلاص فيه ، فمن وفق فهو مشكور ، وإلا فهو مشكور ومعذور .

وقد كنت في حياة شوقي لا أحجم أن أبدي في شعره رأيي ، وهو رأي استخلصته من درسي لبراعات الأمم ، ولست أدعي العصمة لنفسي ، ولكن انتفاء العصمة لا يمنع أن يأخذ الإنسان برأي ، ولو منع لتعطل الفكر وبطل الارتياء ووقفت الدنيا، وكان همي من النقد إفشاء الرأي الذي أعتنقه — بعرضه وتطبيقه - لا الإساءة إلى ذكرى شوقي ، وقد صار تراثه هذا في يد الزمن ، وعلى قدر ما يجد الزمن فيه من عناصر الاستحقاق للخلود يكون إبقاؤه عليه ، وليس لنا الآن أن نسبق الزمن إلى حكمه ، وما أكره أو يشق علي أن أكون مخطئاً وإن كنت أرجو أن أكون مصيباً ، وما كان بالهين على نفسي أن أعالج تصحيح رأي للناس في مذهب معين في الشعر بمثله شوقي ، ولكن

إخلاص للأدب أعمق وأقوى من دواعي المجاملة لرجاله . وأخلق بمن يقسو على نفسه ولا يجاملها أن يكون أقل مجاملة لسواه ، وما كان شوقي عندي شخصاً أناصبه ، بل فكرة أقاومها أو مذهباً أحاربه ، وفي النضال تحمى النفوس وتطيش الأيدي وتخرج عن الاتزان ، فإذا كنت قد عنفت أحياناً وجئت باللفظ الحامي والكلمة الثقيلة ، فليس أشد مني اليوم أسفاً على ذلك ، وإني لأستغفر شوقي وابنيه ، وأستغفر أنصار مذهبه من كل ما جمح به القلم وهو يجري بما أومن أنه واجبي للأدب ، رحمه الله وعفا عنه وعنا .

مصر　　　　　　　　　　　　　　إبراهيم عبد القادر المازني

اثر الأدب العربي في شعر شوقي


الشيخ أحمد الاسكندري

لم تكن مصر وهي ولاية عربية بيئة خصبة لإخراج نوابغ الشعراء، إذ لم تكن حينئذ دار ملك عظيم ولا موطناً جامعاً للفصحاء المتنافسين في الشعر .

ولما صارت دار ملك عتيد للفاطميين كانت زعامة الشعر والأدب ضاربة بجرانها ببغداد وعواصم الجزيرة الفراتية والشامات، فنبتت بمصر نابتة أشبهت الفحول ولم تكنهم، وانطبعت صناعتها بطابع مصري صبغته الرقة اللفظية والمحسنات البديعية والنكتة المصرية . لا جزالة اللفظ ولا فخامة المعاني . وجرّت هذه الصناعة ذيولها على من بعدهم من شعراء مصر والشام أزمان دولة بني أيوب ودولتي المماليك . فإذا كان هذا شأن الشعر في مصر المستقلة صاحبة الولاية على الشرق العربي فما ظننا به وهي ولاية عثمانية تتعاورها الأوبئة وتتلقفها الفتن والهزاهز . لاجرم أن يكون الشعر بفحالته الأولى وطرافته الثانية رقد رقدتلم يرقظه منها

إلا عصر إسماعيل العظيم الذي جنا فيه الأدباء ثمرة غراس جده الكبير .
فكر به البارودي كرة استرجع بها رونقه في القرن الخامس الهجري .
واقتدى به بعد نفيه طائفة طاولت فحول الأوائل وأنجبت شاعرنا بالأمس
وفقيدنا اليوم بأمور لم تجتمع لهم جميعاً من توقد قريحة وشرف تنشئة
ونبالة تثقيف وإحاطة بعلوم وإتقان للغات وسعة اطلاع وخدمة ملوك
ومداخلة ساسة و بلَهْنِيَة عيش وتنوع تمتع و كثرة أسفار وطول فراغ
وفسحة أجل .

و كأني بقائل يقول : كثر ما تاحت لسواه هذه الأمور فلم تأت
منذ قرون بنابغة مشهور، قلنا : أجل هي صمصامة عمرو فأين يمينه ؟.

أثر الشعر القديم في شعره

ما كان شوقي بدعاً من الشعراء ولا خرج بشعره ثائراً على القدماء
وإنما تأدب بأدبهم وسار على دربهم . وما زال شعره كشعرهم تتألف
القصيدة منه من أبيات مستقلة في اللفظ والمعنى على وزن واحد وروي
واحد، وتتركب من أخيلة جزئية لا من خيال كلي مفصل الأجزاء شأن
الشعر القصصي الأوربي . اتبع شوقي هذه الطريقة العربية حتى في
المقطعات الكبيرة من مسر حياته .

والذي حدا به إلى أن يكون عظيماً في الشعر العربي اطلاعه على
شعر البارودي البليغ وسماعه إعجاب الناس به ، فأقبل على درس كتب
الأدب ودواوين الشعراء ، وابتدأ كما قال عن نفسه — بديوان البهاء

زهير، فكان موفقاً جد موفق لانطباع شعر هذا الشاعر بالطابع المصري ولسهولته الممتنعة على غيره في الغزل ، وجره شعر زهير إلى درس شعر أهل حلبته من أمثال ابن مطروح وابن النبيه والحاجري والتلعفري وغيرهم، فنحا منحاهم وبزّهم جميعاً قبل أن يتم العقد الثالث من عمره.

و بالطبع لم يقف بشعره عند هذا الحد فهب ينازع فحول الدولة العباسية صولجان سلطانهم من أمثال أبي نواس والبحتري وأبي تمام والمتنبي والمعري والشريف الرضي وأمثالهم ، فأعجبه من أبي نواس خمرياته وغزلياته السائغة وحاكاها فقارب ، وراقه من البحتري حسن ديباجته وأوصافه وتشبيهاته حتى ليظن أن أكثر ما نراه لشوقي في وصف القصور والهياكل ومواكب الملوك مستمد منه ومحاكى به طريقته . ولولا أنه سلك في الحكمة وإرسال المثل مسلك أبي تمام والمتنبي لكان خريج البحتري وحده .

وأورثه سلوكه مسلك أبي تمام وأبي الطيب أن يتخلق بخلقهما : من الاعتداد بالنفس وقلة الاكتراث بتعارف المتأدبين والنقاد عندما ينظم . فكان إذا جاش خاطره وحمي مرجله بمعنى صبه في أي قالب يتسع له في نظره وإن ضاق عنه في نظر غيره إما لضعف قرينة وإما لخفاء كناية وإما لتشابه في مراجع الضمائر، فيغمض ويعسر فهمه على غير الخبراء بشعر شوقي، فيختصم فيه أنصاره ونقاده في الصحف والمجلات . ولا يدفع صاحبنا عن نفسه بأكثر من أن يتمثل بقول أستاذه أبي الطيب في وصف أبياته .

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

ومع أنه يحطب في حبل المتنبي ويتعصب له لم يستطع أن يحكم التشبه به في عامة مذهبه من وضع المعنى الكثير في اللفظ القليل فجاء أقرب شبهاً بأبي تمام منه بأبي الطيب .

وأكبر ظني أن شوقياً لم يتثقف كثيراً بشعر المعري واكتفى أن يثاقفه في نقد العادات المعيبة والآراء الأفينة ، وإن كان المعري قد طرق في شعره أبواباً لم يطرقها عربي في فلسفة الحياة والاجتماع ومعاملة الحيوان ونقد نظم الحكم والسياسة والاشتراع والتدين ، فصدف شوقي عن طريقة المعري في ذلك كما رغب عن تكلفه في قوافي لزومياته إذ ليس من سجايا صاحبنا التعمق في الفلسفة ولا التكلف إلى هذا الحد .

ونعم إنه تمرس مرة بلزوم مالا يلزم في موشحة أندلسية فدرج في بعض أقسمتها بروي مزدوج الحروف وما أطاقه في بقية الأدوار والأقسمة ونعما فعل .

والحق أن المباراة التي عقدها بين نفسه والفحول من الشعراء الآنفي الذكر قد انجلت عن أن السابق في الزمن ما زال سابقاً في الشعر وإن ارتاض جوادنا المصري بمجاراتهم أيما ارتياض .

أما الشريف الرضي وأنداده في الشعر من أمثال مهيار الديلمي البغدادي وابن هانئ وابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس من الأندلسيين والمغاربة فهم من نساميهم بشاعرنا ، فقد درس دواوينهم

وعارض أشهر قصائدهم ، فكان يصرعهم مرة ويساجلهم أخرى ويتخلف عنهم تارة ، فهم إن فضلوه بسبقهم إلى الشعر وتعبيدهم طريقه راجحهم بفضل ثقافته الجديدة وشهوده تلك الحضارة الباهرة ، فأتى بما لم يأتوا به وأكمل بجديده قديمهم فقاسمهم ملكهم ونرجو أن لا يكون خاتمهم .

سلوك شوقي مسلك المتقدمين في أغراضه

قال شوقي الشعر في كل الأغراض عدا المجون والتزهيد في الدنيا والهجاء . فأما المجون والتزهيد في الدنيا ، فإن روح العصر واستكانة الشرق يصدان عنهما . وأما الهجاء فلم تطب نفس شوقي السمحة أن تورد شعره في هذا المورد البشع .

وقال الشعر في بقية أغراض القدماء وجمع بين براعة المتقدمين وبراعة المعاصرين و بداعة المصريين ، فكان غزله يسيل رقة و يتنزه عن الإفحاش تنزهاً ، وكان مدحه لا يمل وإن لم يعدُ فيه مألوف العرب . لبث فينا عمراً من قبل الحرب العظمى يمدح ممدوحاً واحداً في مواسم مكررة فلم ترذل له قصيدة ، وأماديحه في الإسلام ورسول الإسلام وخلفاء الإسلام و أبطال الإسلام غرة في جبين الأيام ورفلة منه إلى مقيل عثرات الكرام وغافر الآثام أما الوصف فهو جل بضاعته ومظهر براعته ولا تخلو منه قصيدة من شعره ، وأروعه ما أخرجه مخرج العظة والاعتبار كسينيته في آثار الأندلس التي عارض بها البحتري ووقفته على قبر نابليون وندبه معبد أسوان ووصفه أبا الهول .

وأضاف شوقي إلى الثروة التي خلفها القدماء في أغراض الشعر وأبوابه أبواباً لم يعلموا بها: أوجدتها الحضارة الحديثة ونظم الاجتماع والسياسة مثل: وصف سفينة البخار والغواصات والكهرباء والطيارات والطيارين والقطار البخاري والهلال الأحمر والصليب الأحمر والمراقص وأبي الهول وانتحار الطلبة والأحزاب السياسية ودار الندوة المصرية (البرلمان) وديانة المصريين وعبادتهم وكنوزهم وعظمة النيل واعتقاد القدماء فيه والبحر الأبيض المتوسط والبريد وطابعه وجسر البسفور وصبيان المكتب وحرية المرأة، ولا نعرف شاعراً ملياً يتحفى بديانة قدماء المصريين ويتمجد بأفعالهم مثله ·

معانيه

تنسب عظمة شوقي إلى إجادة المعنى أكثر من نسبتها إلى إجادة اللفظ، وإنما تكثر معاني الشاعر وتعظم وتجود إذا اجتمع له أمران: أولهما — سعة اطلاعه وإلمامه بكثير من العلوم والفنون وخصائص الديانات وتاريخ الشعوب وخرافاتهم وأبطالهم · وثانيهما — توقد قريحته وصدق نزعاته التي تدفعه إليها غرائزه الفطرية ·

فالأمر الأول يكوّن في نفس الشاعر صورة اجتماعية مكتسبة من البيئة والمجتمع اللذين يعيش فيهما، وبهذه الصورة ينفذ إلى قلوب من يعاصرهم وينال إعجابهم ·

والأمر الثاني يطبع في نفسه صورة فردية لشخصه تطابق ما فطر

عليه من النزعات والميول . والأكياس من الشعرآء من يخفون من
أجزآء هذه الصورة ما يتسخطه المجتمع و يظهرون منها ما تطرب إلية
نفوسهم ونفوس من يضاهئونهم .

وشوقي جد كيس بديع ، أظهر في معاني شعره كل صورته الكسبية
الاجتماعية فأعجب الأديب والعالم والفيلسوف والمؤرخ والسياسي
والمشترع والمفتن والمسلم واليهودي والنصراني ، ولم يظهر في معاني
شعره إلا بعض أجزآء من صورته الفردية (الفطرية) فأعجب نفسه ومن
يشاركه في الهوى : هتف بالخمر فاستقصى، وتغزل بالجميل فاستهوى
الأنفس، ووصف المراقص فاستمال القلوب ، فاستدل المجددون في الشعر
بهذا على أنه يحب الحياة وما دروا أنهـا صورة المرء الفطرية الحيوانية
يظهرها التبذل ويضمرها التزمت والتدين ، وإلا فمن منا لا يحب الحياة؟
إنما نختلف في وجوه نشدها .

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه　　حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا
فحب الجبان النفس أورده التقى　　وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ومن معرفتنا بأن كل امرئ يعيش طبيعة بصورة لنفسه وصورة
للمجتمع نعرف خطأ من يقول إن شوقياً غريب الأطوار ، فبينا هو
يشيد في وصف الخمر والتمتع باللذائذ والتولع بالملاهي إذا به يحث على
التفاني في نصرة الإسلام والتنافس في نشر الفضيلة والإيثار على النفس .
نسي هذا القائل تأثير الغرائز الفطرية لكل شخص، كما نسي أن المجتمع

الذي يعيش فيه شوقي هو الغريب الأطوار السريع التقلب فهو يعايشه في أمورها العامة بصورته الاجتماعية المكتسبة منه ويراجع لذاته بصورته الفردية

هذا وليس عجباً أن يفوق شوقي شعراء زمانه ومن قبلهم من بعد القرن الرابع بإكثاره من المعاني المبتكرة ، فلا نكاد نقرأ له قصيدة إلا متضمنة معنى أو أكثر من معانيه المبتكرة أو المولدة توليداً بديعاً بحيث يتألف من مجموعها ثروة تضاف إلى ثروة الأدب فتزيده غزارة وتمكينا

مسلك شعره في اللفظ والأسلوب

يضيق بنا المقام الليلة عن وصف شعره في لفظه وأسلوبه مفصلاً تفصيلاً . وكل ما يمكن أن نقوله إنه كان في صباه رقيقاً سهلاً قليل اللفظ الغريب، ثم صار في كهولته يرق في الغزليات والخمريات وأوصاف الملاهي ويفخم ويجزل ويغرب ويغمض في الجديات وعندما يعارض شاعراً عظيماً أو يكتب في عالم كبير أو ملك خطير، وهذا الغريب أحيى منه شوقي أكثر من الألف كلمة زادت الأدب فراهة ومجادة .

وليس معنى ما قلت في هذه الليلة أن شوقياً رزق الكمال في شعره كما رزق السعادة ، فالشاعر الكامل لم يسمح به الزمان بعد ، ولعل له من العيوب الفنية والأخطاء النحوية اللغوية ما يستنفد عشرات الصحائف . ومبلغ القول فيه أنه بشر يخطئ ويصيب، وأنه مكرمة من مكارم الشرق وحسنة من حسنات الأدب العربي . وكفى شوقيًا شرفًا وعظمة أن نكون فجيعتنا فيه هي فجيعة للعرب والمسلمين والشرق كافة، وأن كل

قلب فيهم يستشعر اليأس من أن يستدير الزمان فيحور لنا بنادرة الفلك و بكر عطارد . فهل تخرج لنا الأرض التي أنبتته والبيئة التي أنجبته مثل شوقي ؟ ليس ذلك بعزيز على مفيض العقول وواهب الحياة سبحانه وتعالى

مصر : أحمد الإسكندري

ذكرياتي عن شوقي



أحمد زكي باشا

تعرفون أيها السادة أن شوقي جدير بكل أنواع التمجيد لما أسداه للعروبة والنيل . فإليه وإليه وحده يرجع الفضل في جعل القاهرة كعبة للأدب العصري في حياته وبعد مماته . فهو الذي جعل وفود الأقطار العربية تتسابق إلى كنانة الله في أرضه ، معلنة بأن مصر هي حاملة راية العروبة وقائدة الشرق في التفكير وزعيمة النهضة الوطنية بين الناطقين بالضاد .

لذلك صار شوقي إلى ما صار إليه من المجد والخلود .

ومن أجل ذلك أدعوكم أيها السادة وأنا أرى روحه ترفرف على هذا الاجتماع أن تظهروا لها ما تنطوي عليه جوانحكم من التمجيد بأن تقفوا خاشعين ثلاث دقائق .

الآن أرجوكم أيها السادة أن تسمحوا لي بمناجاتكم عن بعض ذكرياتي عن شوقي في حياة المدرسة وفي مدرسة الحياة .

— ١ —

أود أن أرفع جانباً يسيراً من الستار الذي أرخاه تطاول الزمان على بعض النواحي من تلك العبقرية التي سطعت في سماء العروبة حيناً من الدهر لا يقل مداه عن ١٧،١٩٠ يوماً، أي من أول اكتوبر سنة ١٨٨٥ إلى اليوم الرابع عشر من مثله في عامنا الحاضر.

لعلي أتمكن من إرسال شعاع ضئيل على ما أحرزه شوقي من سعادات متواصلة، وتوفيقات متوالية، منذ كان يتلقى العلم إلى أن بويع بإمارة الشعر.

سأقصر كلامي على طائفة قليلة من ذكرياتي عن الخالد (شوقي) في حياة المدرسة وفي مدرسة الحياة.

— ٢ —

فلنرجع إذن إلى سنة ١٨٨٢ وهي التي تشرفت فيها بدخولي الفرقة الرابعة (أي السنة الأولى بالاصطلاح الحديث) بمدرسة الإدارة التي صححوا (في سنة ١٨٨٦) اسمها المغلوط، فجعلوه مدرسة الحقوق (وهو اسم مغلوط أيضاً. ولذلك بيان ليس هنا محله).

كانت المدرسة قد انتقلت من مقرها القديم في سراي مصطفى باشا فاضل (بدرب الجماميز) إلى دار البدراوي الباقية إلى اليوم بشارع سوق الزلط (من قسم باب الشعرية) على مقربة من دار آل العروسي، الذي آلت إلى أحدهم مشيخة الأزهر.

وفي العام التالي أقبل فوج جديد من التلاميذ للحلول محلنا. وفي

الذي بعده جاء فريق آخر ممن أسعدتهم المقادير بالانتظام في سلك هذه المدرسة العالية .

من الطبيعي أن يتطلع أبناء الدار بشيء من الزهو والخيلاء إلى الطارئين عليهم من أجل الانضمام إليهم .

كان في جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ (فتى نحيف نحيل ، هزيل ضئيل ، قصير القامة وسيم الطلعة (تقريباً) ، بعيون متألقة (تحقيقاً) ، ولكنها متنقلة (كثيراً) . فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة ، فللسماء منه دقائق متمادية . وإذا تلفت صوب اليمين ؛ فما ذاك إلا لكي يرمي ببصره نحو الشمال وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادئ ، ساكن ، وادع . كأنما يتحدث بنفسه إلى نفسه ؛ أو يتلاغى مع عالم من الأرواح . ما كان يلابسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمرح ، ولا يتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما نتنفس الصعداء لانتهاء مواقيت الدراسة .

هذه صورة مصغرة لأحمد شوقي ، عند أول عهدي به في حياة المدرسة .

— ٣ —

كان المرحوم الشيخ محمد البسيوني البيباني من علماء الأزهر المعدودين آتاه الله بسطة في الجسم والعلم . فكان بديناً فطيناً ، وكان قصيراً فوق قصير ، أعني طويلاً مكبراً ، لاتخطئه النكتة البارعة اللاذعة أو الساخرة ، وكان يدرس لنا فنون البلاغة في تصنيفه (حسن

الصنيع في المعاني والبيان والبديع) . أما خارج المدرسة ، فكان بالنهار متخصصاً بنظم القصائد في مدح الخديوي توفيق كلما حل موسم أو أطل عيد . وكان في الليل إماماً في الصلوات ، إلا صلاة الفجر .

ما لبث أن رأى في تلميذه شوقي بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية فأنشأ الأستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها إلى المعية السنية فإلى جريدة (الوقائع المصرية) وغيرها من الصحف العربية . وكان شوقي ، ببساطة التلميذ الناشئ ، يشير بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية ، وحذف هذا البيت ، وتعديل ذيالك الشطر والأستاذ يغتبط بقوله وينزل عند رأيه .

وأحسن ما أذكره لأستاذي البسيوني ، رحمة الله عليه ، أنه كان يتحدث بذلك إلينا وإلى الفرق المتقدمة علينا (وفيها أصحاب السعادة عثمان باشا مرتضى وأبو بكر يحيى باشا وعلي ثاقب باشا وشاكر بك أحمد) . دون أن تأخذه العزة بالإثم ، أو أن تغريه الكبرياء الملازمة للمدرس بإنكار الفضل الذي منحه الله للدارس .

فهذه أول سعادة أحرزها شوقي .

على أن الأستاذ البسيوني تحدث بهذا النبوغ الباكر إلى صاحب العرش وأفهمه أن بين أثواب الصغير أحمد شوقي براعة نادرة وذكاء رائعاً وأنه خليق برعايته العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها في مشارق الأرض ومغاربها .

فكانت هذه الشهادة من أكبر الأسباب التي حفزت الخديوي توفيق في سنة ١٨٨٧ إلى إرسال شوقي على نفقته الخاصة لإتمام الدراسة العلمية في باريس ولتغذية مواهبه الغريزية بما يراه في الغرب من روائع البدائع ، وقد تحققت له وفيه الآمال .

فكانت هذه ثانية السعادات .

— ٤ —

عاد شوقي إلى مصر

فتلاقينا في مدرسة الحياة الكبرى : الحارة واحدة ، أو على ما يقولون في القاهرة (أبناء حتة واحدة) بناحية الهياتم في حي الأستاذ الحنفي . وفي الديوان ، هو في المعية السنية منذ سنة ١٨٩١ ، و كاتب هذه الذكريات في مجلس النظار ، منذ سنة ١٨٨٩ ، فكنا نسير على خطين متوازيين ، ولكنهما يتلاقيان في أحيان كثيرة ، بالقاهرة وبالإسكندرية ، بسبب العمل الرسمي المرتبط بعضه ببعض وقد اجتمعنا في أوربا أسبوعاً كاملاً ، بمدينة جنيف (بسويسره) مع زميلنا المرحوم عمر لطفي بك و كيل مدرسة الحقوق ، لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين المنعقد سنة ١٨٩٤ .

ظهرت له في الخديو توفيق تلك الأمداح التي سارت بها الأمثال وتغنى بها الركبان .

لكن الله اختار الخديو توفيقاً إلى جواره في أواخر سنة ١٨٩١ وخلفه ولده البكر وولي عهده صاحب السمو الخديو عباس الثاني ؛

(٨ يناير سنة ١٨٩٢) . وكانت نزعته إفرنجية ! لأنه تلقى العلم في (أكاديمية ترزيانوم) بعاصمة النمسا ، وأمضى زمان الصبا في ربوع أوروبا فلم يكن لصاحبنا شوقي سوق رائجة عنده ، بل أدرج في سلة المهملات الذين يصح عليهم رأي المرحوم محمد بك عثمان جلال ، حينما كتب على باب غرفة شاعر الخديو إسماعيل : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)

هكذا أخذت منزلة شوقي في التدلي ، ومال نجمه إلى الأفول .

— ٥ —

دار الزمان

وبعثت الظروف السياسية الخديو عباساً إلى أن يتذوق الأدب العربي فعاد شوقي يتدرج في الرجوع إلى مكانته حتى وصل إلى الذروة العليا ، بل إلى الغاية التي ليس وراءها غاية . فأصبح من أقرب المقربين ومن أصحاب الكلمة المسموعة والرأي النافذ .

صار ملجأ الأدباء — وخاصة رواة شعره — ولكثير من طلاب المراتب والرتب والأوسمة . فكان إذا قال فعل ، وإذا وعد أنجز ، والأمر معروف وحاضر في الأذهان .

— ٦ —

كان شوقي يسكن في دار أبيه ، وهي التي انتهت إليها كل الثروة الضئيلة الباقية عن أجداده . فكان في أول أمره يرى من تمام سعادته أنه لا يجيئه الجابي أو صاحب الملك في آخر كل شهر لمطالبته بكراء البيت .

وهذه الدار القديمة لا تزال قائمة وراء مسجد الشيخ صالح أبي حديد في خط الحنفي . ويا بعد ما بينهما وبين ما أنشاه هو بماله الخاص : من كرمة ابن هانئ في المطرية ، تتلوها الكرمات الثلاث في الجيزة ، إلى عش البلبل في طريق الأهرام !

وكان بجوار تلك الدار القديمة رجل من أهل الثروة واليسار ومن أرباب الفضل الصحيح والوقار التام ، هو المرحوم حسين بك شاهين رزقه الله ثلاث بنات ، هن عنوان الصيانة والأدب والكمال . وكان الشباب الذهبي (من أبناء الذوات) الذين ذهبت ثروتهم بفعلهم أو بفعل آبائهم الأقربين يتهافتون عليه . فيتأبى ويتعذر . ويقول لي وللمرحوم محرم بك رستم (صهر صديقي بل أخي الأبر الأكمل لبيب بك البتانوني) إن هؤلاء المتهافتين لا يخطبون الفتيات ، ولكنهم يترمقون الثروة الطويلة العريضة التي ستؤول إلى كل واحدة منهن بعد حين قريب أو بعيد .

وشاء ربك أن يفوز ذلك الماجد المفضال بمصاهرة ثلاثة من أفضل الناشئة المصرية : أحدهم شوقي ، والثاني أحمد بك عمر المهندس البارع النزيه المستقيم وثالث الثلاثة السري المرحوم يعقوب حلمي بك

وأنعم الخديوي توفيق على صهر شوقي برتبة الميرميران فصار حسين باشا شاهين .

هكذا أنعم الله على شوقي بالزوجة الصالحة بكل معاني الكلمة فاستراح من متاعب الحياة البيتية ، ومن مصاعب العيشة المادية ، فتفرغ

لاستمداد الفيض النوراني ، وتلقي الإلهام الرباني ، حتى تفرد بالبراعة التي ليس بعدها براعة وأنبت لمصر ، والحمد لله ، نباتاً حسناً

— ٧ —

من السعادات التي أنعم الله بها على (شوقي) سعادة لم يشركه فيها شاعر آخر . لم يهج أحداً ولم يقل هجراً ، وكان من أكابر أنصار العروبة ومن أعاظم خدام الإسلام . بذلك تنطق قصائده وتشهد مواقفه وهو أمر خارج عن دائرة هذه الذكريات ، فأترك الكلام عليه لغيري .

بيد أني لا أرى بأساً بالإشارة إلى القصيدة التي تقرب بها إلى الله تعالى وإلى رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام . فقد نظم (نهج البردة) ونزهها عن خرافات القصاص وأكاذيب المداح .

طالما عارض الناس (بردة) البوصيري في القديم وفي الحديث بمئات ومئات من المنظومات . لكن الصيت بقي لهذه (البردة) وحدها إلى الآن ، على أن قصيدة شوقي ، وإن لم تزحزحها عن مكانتها ، فإنها قد نالت شرفاً ليس له نظير . ذلك بأن الأستاذ الأكبر الذي انتهت إليه وبه سلسلة الحديث النبوي في مصر ، الشيخ سليم البشري مع جلالة قدره وسمو مركزه ورفيع مقامه ، قد تولى بنفسه وبقلمه شرح هذه القصيدة . وقد صاغها شوقي وهو لا يزال في سن الفتوة وطراءة الشباب لكن براعته فيها جعلت شيخ الشيوخ يعرف فضلها ويقدر ناظمها ثم يتوفر على شرحها . وما رأى الناس لذلك مثيلاً قبل شوقي

—٨—

عند ما جلس المغفور له السلطـان حسين كامل على عرش مصر، كان السواد الأعظم من أبنائهـا يعاديه لا لشيء إلا بسبب الظروف السياسية التي أحاطت ارتقاءه إلى الأريكة · ولكنه مالبث بكياسته وحسن سياسته أن جعل كل من في مصر مخلصاً في ولائه: يترنم بمحامده، ويأسف على أن ولايته للأمر، جاءت عند الاقتراب من نهاية العمر ·

وتلك من نعم الله التي لا يظفر بها إلا الأقل من القليل من الناس

إلا شوقي! فقد كان أشجع إنسـان بمصر في ذلك العهد المملوء بالمخاوف والأهوال، والذي كانت السلطة العسكرية البريطانية قابضة فيه بيد من حديد على كل النواصي والأقدام، بل على الأفكار والأوهام فقد صارح شوقي السلطان حسيناً بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان، إذ أرسل إليه قصيدته المشهورة التي شار فيهـا إلى الحالة القائمة بقوله: « ان الرواية لم تتم فصولا »

وهي التي يقول فيها:

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا

قامت قيامة السلطة العسكرية البريطانية لهذا النذير وتوجست خوفاً من انتشار بقعة الزيت في رقعة مصر بسبب هذه الصيحة الشوقية التي كان لها أثر بعيد في النفوس ووقع فعال في القلوب

فأمرت بنفيه . فتخير الأندلس مقاماً

فكان في عمل السلطة إحسان له وللشعر وللعروبة ، من حيث قدرت الإساءة وإطفاء النور

من هناك كاتبني شوقي يطلب كتباً يستعين بهـا على تعرف مجد الإسلام ونخر العروبة في الأندلس، فبادرت وأرسلت إليه (نفح الطيب) و (المعجب بتلخيص أخبار المغرب) و (قلائد العقيان) وأيضاً كتاب رحلتي (السفر إلى المؤتمر)

ماذا أقول عن دهشتي بعد أسبوع ؟ أعاد لي الرقيب العسكري تلك الكتب ومعها كلمة فيها ملاحظة على أن هذا الصنيع من موظف بالحكومة قد لايتسق لواجبات الوظيفه !

وبعد ذلك بيومين أوثلاثة ، جاءني الصديق أحمد بك عمر ، عديل شوقي بك ، لأتوسل إلى المرحوم رشدي باشا حتى يسعى عند السلطة في عدم إعادة المال الذي كان أرسله إلى شوقي ليعيش به في بلاد الغربة فكأنها كانت تريد أن يتكفف شاعر الشرق رغم ثروته الطائلة ، وأن يموت هو وأولاده من الجوع في بلاد الغرب !

وشاء ربك تكليل مساعي رشدي باشا بالنجاح ، فأخذ أحمد بك عمر يبعث بشيء من مال شوقي إلى شوقي في منفاه ، ولكن في أوقات معلومة ، ولكن بمقادير محدودة

— ٩ —

لا أريد أن أتحدث هنا عما كان المرحوم السلطان حسين يواليني

به من أسباب الحفاوة والالتفات ، حتى إنه اختارني بمثابة مستشار فني لكريمته النبيغة ، صاحبة السمو سيدتي الأميرة قدرية هانم .

لكنني أتحدث عن أمر يخص المرحوم شوقي أيام منفاه .

فقد كان السلطان حسين يدعو الذين يستخلصهم لوده ، فرادى وجماعات ، لتناول الغداء معه من حين إلى حين في سراي عابدين . وحسبي أن أقول إنه بعد الفراغ من الطعام ، تفضل فدعاني إلى تناول القهوة بالبهو الكبير . فجلس في الركن الشمالي الشرقي ، والمرحوم محمود شكري باشا الكبير على يمينه ، وصاحب هذه الذكريات على يساره أخذ يتحدث عن النهضة العلمية وعن التطور في الحركة الأدبية . فاستعرض الرقي الذي حدث في الصحافة وفي الأغاني القومية . ودار الكلام بنوع خاص على المرحوم إسماعيل صبري باشا وعلى ما أوتي من الفتوح في هذه الأبواب التي جعلته إمام الناظمين في كل فن من فنون العهد القديم ، وفي كل مطلب من مطالب العصر الحديث .

ثم سألني — رحمه الله — عن ترجمة كلمات كثيرة ، ومنها لفظة Mentalite فقلت له : إن هذه الصيغة قد استحدثها القوم لمعنى خاص يقاربه في العربية قولنا (ذهنية) ، (عقلية) .

وحينئذ انتقل إلى الكلام عن طرافة التفنن عند شعراء الإفرنج ، ثم سألني : يوجد بين العرب الآن من في قدرته أن يماشيهم مع هذه العقلية الجديدة وهذه (الذهنية) الحديثة ؟

فقلت : إن هذه المزية قد تفرقت في كثير من شعراء العصر ؛ ولكنها اجتمعت كلها في شوقي ..

وهنا ظهرت لي إشارة من المرحوم محمود شكري باشا ، فتشجعت بها على المضي في الكلام ، وقلت لمولانا السلطان : إن شوقي ممن تزدان بهم الدول ، وإن مثله لو كان في زمان الخلفاء ، لتخاطفته دمشق و بغداد وقرطبة .

فتكررت الغمزات من ناحية شكري باشا ... بالموافقة والمطابقة

فاندفعت أتغنى بمحاسن شوقي ، وبما أفاضه على العروبة والإسلام من نفثاته ، وبما منحه للشعر والأدب من نفحاته ، وأن هذه وهذه حسنات باقيات وآثار خالدة .

وهنا تزايدت الإشارة الرقيقة الدقيقة من المرحوم شكري باشا .

فعاودت الهجوم على الموضوع ، سيما وقد آنست من السلطان ما يشعر بالرضى والقبول . فقد التزم الإطراق والإصغاء في سكوت وسكون .

وهكذا تماديت حتى انتهيت إلى كلمة فيها جراءة . شجعني عليها ما رأيته من موقف السلطان . فقد قلت ما معناه بالاختصار :

أيصح أن تبقى مصر محرومة في عهدك السعيد ، من بلبلها الغريد ، وأن يرفرف هذا الطائر الفريد الوحيد بجناحيه على قرطبة وطليطلة وعلى إشبيلية وغرناطة ، بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان ؟ إن الذي تترمقه الثقافة العربية والقومية المصرية من ابن إسماعيل ومولى النيل أن يعمل بالخطة الكريمة التي رسمتها أريحيته النبيلة

لنفسه التي صاغها الله من الخير للخير ، فيعيد إلى القاهرة رونقها المجتمع في أثواب شوقي ·

وهنا تكررت الإشارة وتوالت الغمزات من محمود باشا شكري · فأدركت أنني قد أكون تجاوزت الحد ولكن السلطان ما زال مصغياً ، كأنه يطلب المزيد من الكلام · وماذا عسيت أن أقول بعد أن استوعبت كل ما في الصدر ، بل كل ما يجيش بالخاطر ؟ فبقيت ساكتاً منتظراً تحول الحديث إلى موضوع آخر من السلطان نفسه ، أو صدور إشارته بالانصراف ·

وقضى ربك بالخلاص من هذا المأزق · فبعد برهة قصيرة وقف السلطان فوقفنا · ثم تقدمت فقبلت يده الكريمة وانصرفت ·

وقابلت في الردهة الصديق المفضال أحمد بك إحسان . وفيما أنا أرفه عن نفسي بمحادثته ، وأتنفس الصعداء لخروجي من ذياك الموقف ، إذا بالمرحوم شكري باشا يهرول ورائي . ثم طفق ينهال بتعنيفي على اندفاعي في تقريظ شوقي رغم الإشارات المتوالية التي كان يبديها لي من حين إلى حين للتخفيف من غلوائي في الحديث ! فلم يكن من سبيل للاعتذار إليه سوى أن السلطان كان مصغياً تمام الإصغاء ، وأنني فهمت من إشاراتك أنك راض عن صنيعي تمام الرضاء ، بل إنك قد تكون قد سبقتني إلى تقرير هذه الحقيقة . فهذا عذري ، وما فعلت سوى نصح السلطان بما انطوت عليه سريرتي واستقر في صدري ·

لست أدعي أن كلامي كان له أثر في نفس السلطان . ولكن الذي .
أعرفه أن الله سبحانه وتعالى جعله يضيف حسنة كبيرة إلى حسناته
الكثيرة ، فأصدر أمره بعد أيام إلى المرحوم رشدي باشا ليسعى باسمه
الكريم لدى السلطة في إرجاع شوقي إلى وادي النيل . وقد كان .

١٠

أكبر سعادة نالها شوقي ؛ بل سعادة السعادات التي أفاضها الله عليه
في الثروة والجاه وكل مطالب الحياة ، أن الشعراء المتعادين في كل زمان
ومكان قد انفقت كلمتهم في جميع أقطار العروبة وفي عصرنا هذا على
تمجيد شوقي ومبايعته في حياته بالإمارة عليهم . فصار بإقرارهم جميعاً
(أمير الشعراء) حقاً ، وهو لقب لم ينله قبله إنسان ، وهيهات ، وهيهات ،
أن يتجدد مثل هذا الحادث في مستقبل الأيام !

فالبيعة الصحيحة بشروطها المعتبرة شرعاً وسياسة ، قد انعدمت في
كل بلاد الشرق . بل رأينا الخلفاء في ثنايا التاريخ يتلقفون هذا اللقب
وهذا المنصب بطريق الوراثة . يضاف إليها صيغة صورية للبيعة ، إلى
أن انعدمت هذه الصيغة الشكلية أيضاً باستيلاء السلطان سليم العثماني على
مصر وملحقاتها واغتصابه الخلافة في أوائل القرن العاشر للهجرة .

ثم تمادت السنون وتوالت القرون إلى أن أتاح الله لنا أن نرى البيعة
في أعلى مظاهرها ومعانيها ، وعلى أكمل مشاهدها ومجاليها في الحفلة النادرة
المثال التي توارد الشعراء إليها من سائر الأقطار وبايعوا فيها شوقي بك

مبايعة رسمية جهرية باعتماده أميراً لهم فقد خاطبه حافظ عن نفسه وعنهم بقوله :

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وهذا اللقب كان قد أطلقه عليه الناس قبل تلك البيعة الصحيحة بزمان طويل . ولا غَرْو، فإن (ألسنة الخلق أقلام الحق)

١١

في انتظار أمير الشعرآء الجديد، الذي قد لا يأتي به الزمان ، يحق للجيل الحاضر أن يفاخر الأجيال الماضية ويباهي الأجيال الآتية بأنه حاز الشرف الأكبر بظهور أمير الشعرآء فيه . وفي ذلك ما فيه من معاني المجد الدائم لمصر في هذا العصر .

١٢

وإلى الله تعالى نتوجه بقلوبنا داعين أن يديم لمصر مولانا الملك المعظم فؤآداً الأول . فقد أصبح عصره زينة العصور بما يتواثب فيه من النهضات وما يترادف من وجوه الإصلاح في أسباب الحياة، وفيها الأدب العربي القومي . وذلك كله بعنايته العالية ، وبإرشاده الكريم. أقر الله عينيه بسمو ولي عهده آمين .

الجيزة «دار العروبة» : أحمد زكي باشا

أشوقي والمسرح العربي



الدكتور أسعد الحكيم

ليس الملك الجبار الذي يكتسح البلاد ، وتعنو له الرقاب بأعظم شأناً في حلبة التاريخ من عالم يبدد بحكمته أضاليل العالم ، فيخرجهم من الظلمة إلى النور ، أو أديب يسحر بيانه الألباب فيكيفها على صورته ومثاله . أو شاعر يلتقط برقته حبات القلوب فينظمها عقوداً يسمو بها إلى الفضيلة والمجد ، وينفخ من روحه في سويداء النفوس فيبعث فيها روح الأمل ، فتنشط وتجد .

وليس البنيان الضخم الشامخ ذو الأحجار الكبيرة الذي تضافرت على تشييده ألوف الأيدي البشرية سنين وأحقاباً ، فعارك الدهر وهزئ بحوادث الطبيعة ، بأدعى إلى الخلود من بيت شعر حوى حكمة بالغة هجس بها قلب شاعر فسارت بتلاوته الركبان وتناقلته الألسن وصار حديث الناس على اختلاف الأزمنة والأجيال . بل هذا خير وأبقى لأن مصير المادة الفناء . أما الروح فهي خالدة باقية إلى الأبد .

وفي هذا الاجتماع الحافل ، وما يقام من حفلات التكريم لذكرى شوقي الشاعر بعد موته في سائر أقطار العالم العربي ، دليل ينطق بسمو العظمة الأدبية وخلودها ، وباستمرار حياة الأديب بعد موته لأن روحه المتقمصة في طيات مؤلفاته تظل حية باقية تشع من تلك الحروف القائمة فتتأثر بفعلها نفوس الناس جيلاً بعد جيل إلى آخر الدوران .

وكأن السلف أدركوا ما للبنيان الأدبي من الميزة على البنيان المادي فأجهدوا في تشييده نفوسهم وبذلوا لإقامته كل ما أوتوه من مال وقوة وسلطان ، فخلدوا بعملهم هذا ذكراً لم يزالوا أحياء به على غابر عهدهم . ذكراً هو التراث العظيم الذي نفخر به ونحترم لأجله .

ومن بواعث الأسف أن الدهر لم يفسح في أجلهم ليضربوا بسهمهم في جميع صنوف الأدب المعروفة عند من تقدمهم من الأمم فعلهم بالعلوم العقلية والطبيعية ، فجاء أدبهم على ما فيه من روعة وسعة وجمال أبتر من أحد جوانبه . وذلك لأن النقلة لأسباب نفسية اجتماعية ودينية لم ينقلوا إلى العربية كتب الأدب اليوناني كما نقلوا إليها علومهم وفلسفتهم ، فخفيت على رجالها ضروبه وأهمها التأليف المسرحي الذي يعد اليوم من دعائم الأدب ومقومات الاجتماع .

وقد نال الفرنج من العربية بأن عابوا في أدبها هذا النقص الذي لا مبرر لاستمراره مئات السنين حتى العصر الأخير ، اللهم إلا الانحطاط الذي أصاب الخلف في جميع مقوماتهم الحيوية فأقعدهم عن مجاراة الأمم

المعاصرة لهم وجعل منهم أمة خائرة القوى متبلبلة الكلمة والمذاهب .

وقد حاول عدد يسير من أدباء القرن الأخير إكمال هذا النقص فوضعوا عدة روايات مسرحية جاءت من حيث النسج الأدبي رقعة في ذلك الثوب الناصع ، فلم تجزها العربية ، ولذلك لم يكتب لها الخلود .

وهكذا ظل الأدب العربي خلواً من المؤلفات المسرحية المثلى أحقاباً وعصوراً إلى أن قبض الله له في هذه السنين الأخيرة فناناً مجيد الوصف والرصف ، يبدع من القديم حديثاً ، وهبته الطبيعة الشعرية نفسها فدانت له طوعاً ، وحبته شقيقتها المادية بكل ما فيها من رونق ونضارة وجمال ، فراح يجمع حلالاً مابين الأختين . هذه توحي وتلك تتلو ، هذه تعزف وتلك تغرد ، فيؤلف من صوتيهما قصائد أوابد تحلى بها صدر العربية بعد ذلك العري الطويل .

ذلك شوقي أيها السادة وحسب القول في شاعريته مبايعة الأمة العربية إياه وهو حي بإمارة الشعر في ذلك المحفل الملكي الفخم الباهر ، مما لم يسبق مثله لشاعر قبله قط .

وبينا العربية تتقدم لتعقد لشوقي لواء الإمارة في الشعر حانت منه التفاتة إلى أدبها فشام فيه ذلك الخرق المعيب ، فشق عليه أن يمر به دون أن يمد لرتقه يداً ، فطلع على المسرح بمصرع كليوباترة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلي بك الكبير ، وعنترة ، وأميرة الأندلس .

فملأ بها ذاك الفراغ وأتم ذلك النقص ، فأسدى بعمله هذا للعربية

مفخرة لم تكد تعد العدة لشكره عليها حتى غادرها إلى عالم الخلود ولسان حاله يقول : اليوم أكملت لكم أدبكم فقروا عيناً .

تقدم شوقي إلى المسرح برواياته فلم يلق من رجاله من الحفاوة بها والإقبال على تمثيلها ما كان يرجى ويظن . وذلك لأسباب : منها مـا يتعلق بالبيئة وهي الحقيقة ، ومنها ما هو منبعث عن الرواية نفسها .

فمن الأولى تطور الثقافة الاجتماعية في البلاد العربية واتجاهها نحو اقتباس كل ما هو غربي وخلع كل ما هو شرقي . بصرف النظر عما في بعض الأول من مضار وعما في بعض الثاني من منافع . فهي قائمة على الفلسفة الجنسية الفرويدية الحديثة ، تمج القديم لما فيه من قيد ، وتصبوا إلى الحديث لما فيه من إباحة . ولما كان في مسارح التمثيل الهزلي والخلاعي ما يخمد المراقبة ويعلل الحصر القائم في النفوس ، أمسى الإقبال عليها بالغاً أشده . خلافاً للمسرح المحافظ فإن الإقبال عليه ضئيل . وقدلا يسد دخله خرجه .

ومنها كون الأسلوب الشعري المسرحي طريف لم يألفه بعد السمع فلا تنفذ صوره إلى القلب تواً بل تجتاز إليه الذهن قبلاً . وهذا يضعف تأثير الوقائع في النفوس .

ومنها حداثة عهد الممثلين بالتخاطب بلغة الشعر وضعف خبرتهم الفنية والعلمية والأدبية ، مما يلقي الفتور في انتباه المشاهدين .

تلك لعمري عوامل جلى من شأنها الحط من قيمة أي رواية مسرحية مهما بلغ بها الإتقان . فلا غرابة والحالة هذه إذا لم نجد غواة التمثيل ورجاله يعرضون

روايات شوقي في كل قطر عربي شأنهم مع غيرها من الروايات النثرية.

على أن هذا الفتور عارض وقد لا يمضي قليل حتى يتحول إلى ولع وهيام، وذلك لأن روايات شوقي لقيت من غواة الأدب وطلاب المدارس والفئة المتعلمة من الناس تهافتاً عظيماً على قرآءتها وحفظها واقتنائها، حتى أضحى يخجل كل إنسان متعلم أن يقول إنه غير مطلع عليها، وتلك لعمري ميزة سوف تضطر رجال المسارح في أقطار البلاد العربية إلى إجهاد النفس في حفظها وإتقان تمثيلها، كما أنها ستحدو برجال الشعر إلى خوض هذا النوع من الأدب والسمو به إلى المكانة العليا التي تتطلبها فائدته وشرفه.

أما الأسباب الناشئة عن ذات الرواية فأهمها متعلق بضعف الإجادة في تصنيف الحوادث وتوقيعها، وفي البلاغة الروائية التي من شأنها امتلاك مشاعر المشاهد وهزّها.

وتلك هنات فنية لم يكن شوقي ليقع فيها لو أنه صعد المسرح قبل الخمسين وعانى بنفسه تلاوة قصيدة من قصائده في مجتمع عام ولو مرة واحدة.

هنات تتلاشى في جانب ما في تلك الخرائد من تهاويل الصور النفسية والطبيعية، ومن الإبداع في الوصف وفي تمثيل المجالس واستطراد الحديث وضرب الأمثال وإيراد الحكم والمغزى الأخلاقي السامي مما يفوق حد الإتقان

وكأن انتصار شوقي الباهر في حلبة الشعر وعقد إمارته له في مضماره أثار حفيظة بعض منافسيه فاستغلوا موقفه هذا فنالوا منه على

المسرح ما لم تنله قرائحهم منه في ميـدان القريض . فرموا رواياته بمر النقد فلو أنصفوا لقالوا : إنها خير ما أخرج للناس · مكروا ومكر شوقي فلم يفت نقدهم في عزيمته فراح يخرج الرواية تلو الرواية كأنه شاعر بأن ساعاته باتت معدودات وأن المثل الأعلى الذي تسمو إليه نفسه مازال بعيداً فليس له أن يضيع لحظة فيما هو أدنى وأحط · وذلك المثل الأعلى هو سد ثلمة الأدب والسمو به إلى الكمال ·

ولم يقف الولوع بخدمة الأدب العربي عند حد التمثيل بل تعداه إلى الموسيقى فراح يغذيها بتلك الشاعرية المذابة بالحب والجمال بأغاريد عدها بعض الكتاب بدعة محطة بالشعر ورأى فيها الفنانون والأدباء وعلماء النفس إبداعاً أو ظاهرة تنم عن عبقرية ونبوغ · فشوقي أيها السادة نابغة عبقري ليس بقصائده بل برواياته وأغاريده ·

فيا أيتها الروح الزكية التي ترفرف الساعة في سماء هـذا المجمع منتعشة لذكراها قري عيناً فأنت لم تنسلخي عن ذلك الجسد البالي إلا لتتجردي لما هو أسمى وأعم ، إلا لتمتزجي بلبن المرضع وأغرودة الطفل ، ومخيلة الصبي وذاكرة التلميذ · فينشأون غداً وكلهم شوقي بلغته ، شوقي بأربه ، شوقي بمبادئه ، شوقي بغيرته على أمته ·

ولعمري ذلك هو النصر والفتح المبين · تلك هي العظمة الحقيقية ؛ هذا هو الخلود ·

دمشق : أسعد الحكيم

شاعرية شوقي ومميزاتها



أنطون الجميّل

منذ خمس سنوات وبعض السنة اجتمعنا في هذا المكان نفسه لتكريم شوقي — واشتركت معنا وفود الشرق العربي في ضفر إكليل الغار على مفرق أمير الشعرآء كما هي نشترك معنا اليوم في نثر أزاهير الذكرى على قبره

وكأني بالفقيد الكريم ماثلاً كالأمس في مقصورته هذه ·

وكأني بالفقيد العظيم الآخر حافظ إبراهيم متقدماً منه باسطاً يده إليه وأجوآء هذه القاعة تردد بين التصفيق والهتاف صدى صوته الفخم :

أميرَ القوافي قد أتيت مبايعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

أما الفرق بين حفلتنا هذه وحفلتنا تلك ، فالفرق بين نشوة الحياة وهمدة الموت ، بين بهجة الأعياد وخشوع المآتم · ولئن قصر خطيب اليوم عن خطيب الأمس ·

فمعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدقّ

حديثي معكم أيها السادة عن (شاعرية شوقي) أوعن (شوقي الشاعر) وهل كان شوقي في حياته إلاشاعراً ؟ وهل يبقى منه بعد مماته غير الشعر؟ بضعة أسابيع فقط مرت على وفاته ، وها قد نسي كبير موظفي المعية وحامل الألقاب الضخمة من الدولة العلية ، واضمحل صاحب الثروة والجاه والنفوذ ، وعفا أثر العضو بمجلس الشيوخ فأصبحنا ولا نروي عنه إلا ذلك الشعر الذي أرقص وأطرب ، ولا نذكر منه إلا ذلك الشاعر الذي نظم فأعجب

ولقد أدرك ذلك هو نفسه إذ أنشد يوم كان صاحب الصول والطول

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

ويوم قال بعد منفاه :

ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه

بل غالى حتى رأى الشعر مبعث كل نهضة قومية :

لم تثر أمة إلى الحق إلا بهدى الشعر أو خطا شيطانه

بل زاد في الغلو فقال : أنتم الناس أيها الشعراء

حمل قيثارة الشعر وهو غلام يافع ـ ولم تقع من يده إلا صبيحة وقع صريع الردى ـ ولقد ظل بين العهدين مايقرب من نصف قرن يخرج منها أعذب الأنغام وأشجاها حيثما كان و كيفما كان ـ في مواقع الروع ومواقف الحروب :

أمولاي غنتك السيوف فأطربت فهل ليراعي أن يغني فيطرب

وعندي كما عند الظبي لك نغمةٌ ... ومختلف الأنغام للأنس أجلب

أو في مواطن الطمأنينة والابتهاج :

أشهى من العود المرنم منطقاً ... وألذّ من أوتاره تغريداً

لم يشد إلى قيثـارة الشعر وتراً جديداً ، ولـكنه عرف أن ينطق الأوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبة . فأوتار العود معدودة وهي هي عدًّا ونوعاً تحت أنامل العازف . ولكن كل عازف يفتنُّ في النقر عليها ما شاء له الافتنان ـ فيسمعنا منهـا الجديد من الألحان ، وألوان الشبح الشمسي واحدة . لكن كل مصور يبتدع من مزيجها شتى الألوان .

وهـكذا كانت أوتار القيثارة القديمة في يده تخرج ألحاناً مستجدة في كل موضوع فـكان :

يكاد إذا هو غنّى الورى ... بقـافيةٍ يُنطق القافيهْ

وتحكم في النفس أوتاره ... على العود ناطقةً حاكيه

وما هي أوتاره الناطقة الحاكية . . ؟

أيها السادة — الدين والوطن عاطفتان غريزيتان في قلوب الناس فهما وتران أساسيان في قيثارة الشاعر . ما داناهما بلمس إلا أخرجا نغماً بعيد القرار . وما نقر عليها إلا استثار الغيرة والنخوة والحمـاسة في صدور الجماهير .

نقر شوقي على وتر الدين فتغنى بالإسلام غناءً فخماً جزلاً ، بلا تصنع ولا تكلف ، بل عن عقيدة وإيمان ، فـكست عقيدته نظمه حلةً قدسية

وعقد إيمانه حول هذا النوع من شعره هالة نورانية

اسمعوه يعتزّ بالإسلام وآياته :

آياته كلما طال المدى جُدُدٌ — يزينهن جلال العتق والقدم

يكاد في لفظة منه مشرفةٍ — يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة — حديثك الشهد عند الذائق الفهم

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي — وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ويفخر بدول الإسلام وملوكه :

دار الشرائع روما كلما ذكرت — دار السلام لها ألقت يدَ السلم

فما احتوت في طرازٍ من قياصرها — على رشيد ومأمون ومعتصم

من الذين إذا سارت كتائبهم — تصرفوا بحدود الأرض والتخم

ويجلسون إلى علمٍ ومعرفةٍ — فلا يدانون في عقلٍ ولا فهم

وإذا انتصرت دولة من دوله ترنح طرباً ورنح الشرق معه :

وأرّج الفتح أرجاء الحجاز وكم — قضى اللياليَ لم ينعم ولم يطب

وازّينت أمهات الشرق واستبقت — مهارج الفتح في الموشية القشب

هزت دمشق بني أيوب فانتبهوا — يهنئون بني حمدان في حلب

ومسلمو الهند والهندوس في جذل — ومسلمو مصر والأقباط في طرب

ممالك ضمها الإسلام في رحم — وشيجة وحواها الشرق في نسب

وهو لا ينزه المسلمين عن الأخطاء والمفوات ، ولكن الذنب إنما هو ذنبهم لا ذنب دينهم .

من عادة الإسلام يرفع عاملاً ... ويسوّد المقدام والفعالا
ظلمته ألسنة تؤاخذه بكم ... وظلمتموه مفرطين كسالى
هذا هلالكم تكفل بالهدى ... هل تعلمون مع الهلال ضلالا

ومثل هذه النبضات لا تصدر إلا عن قلب عامر بالإيمان . وقد كان تمسكه هذا بالدين بعد أن خبر الدنيا وذاق حلوها ومرها :

جنيت بروضها ورداً وشوكاً ... وذقت بكأسها شهداً وصابا
فلم أرَ غير حكم الله حكماً ... ولم أرَ دون باب الله بابا

على أن هذا الشاعر الراسخ العقيدة الصادق الإيمان لم يسئ إلى أحد في عقيدته لأن مبدأه كان (المسلم من سلم الناس من يده ولسانه) وهكذا ترون أُدباء المسيحيين والإسرائيليين يتغنون بشعره الإسلامي ويطربون له طرب المسلمين . وقد يتناول أدق الموضوعات من هذا القبيل ولكنه يتناولها بلمس الحرير فلا يؤلم ولا يجرح : كوصفه كنيسة آياصوفيا وقد باتت مسجداً :

كنيسة صارت إلى مسجد ... هدية السيد للسيد

ووصفه مدينة القسطنطينية وقد خرجت من يد الروم إلى يد بني عثمان :

أدارَ محمد وتراثَ عيسى ... لقد رضياك بينهما مشاعا
فهل نبذ التعصبَ فيك قوم ... يمدُّ الجهل بينهما نزاعا

وهكذا يحترم الأديان ويجلها :

أرسلت بالتوراة موسى مرشداً ... وابنَ البتول فعلّم الإنجيلا

وفجرت ينبوع البيان محمداً ... فسقى الحديث وناول التنزيلا

وإذا وقع العيدان — عيد المسلمين وعيد المسيحيين — في يوم واحد حياهما معاً أجمل تحية :

العام أقبل قم نحيِّ هلالا ... كالتاج في هام الوجود جلالا

عيد المسيح وعيد أحمد أقبلا ... يتباريان وضاءة وجمالا

ميلاد إحسان وهجرة سؤدد ... قد غيرا وجه البسيطة حالا

وإذا رأى اعتداءً من دولة من دول الصليب فإنه لا يثير الأحقاد بل يبرئ الدين وينحي باللائمة على الذين لا يتبعون وصاياه :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام

ما كنت سفاك الدماء ولا امرءاً ... هان الضعاف عليه والأيتام

ياحامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت عليه باسمك الآلام

أنت الذي جعل العباد جميعهم ... رحماً وباسمك تقطع الأرحام

البغي في دين الجميع دنية ... والحرب عهد والقتال ذمام

ومن كانت هذه آراءه في الأديان وموحيها فلا عجب أن يكون في طليعة الداعين إلى اتحاد العنصرين في الأمة المصرية:

نعلى تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقرون لأجلنا الإسلاما

الدين للديان جل جلاله ... لو شاء ربك وحّد الأقواما

هذي قبوركم وتلك قبورنا ... متجاورين جماجماً وعظاما

فبحرمة الموتى وواجب حقهم عيشوا كما يقضي الجوار كراما

ومن نعم الله على مصر أن توثق فيها هذا الاتحاد على وجه لم يتوثق على مثاله في قطر آخر فثارت البلاد جمعاء تطالب باستقلالها تحت راية رسم عليها الهلال معتنقاً الصليب . وهو القائل في الصليب [الأحمر] والهلال [الأحمر] .

جبريل أنت هدى السما ء وأنت برهان العنايه

ابسط جناحيك اللذين هما الطهارة والهدايه

وزد الهلال من الكرا مة والصليب من الرعايه

فهما لربك راية والحرب للشيطان رايه

هذا مثال من الأنغام الفخمه التي أخرجها شوقي من وتر الدين ، وهي نغمات ذات أجنحة مصفقة تحملها على تموجات العواطف إلى الملايين من الناس فيتراجع صداها في الصدور حيث تستقر برداً وسلاماً . وهل تعرفون شعراء كثيرين وفقوا لما له شوقي : إيماناً صادقاً ورأياً صائباً ، وحكمة رائعة وذوقاً سليما (؟) مع جزالة في اللفظ وفخامة في الأسلوب

* * *

أما وتر الوطن فلم يكن بأقل براعة وحذقاً في النقر عليه . فوطنيات شوقي خليقة بأن تجمع وتدرس في المدارس لتنشئة الطلبة على حب الأوطان . فهو يقدس الوطن تقديساً ويتكلم عن العاطفة الوطنية كعقيدة دينية . أليس حب الوطن من الإيمان ، وهو الرجل المؤمن كما رأينا :

أيا وطني لقيتك بعـد يأس كأني قـد لقيت بك الشبابا
ولو أني دعيت لـكنتَ ديني عليـه أقابل الختم المجـابا
أُدير إليك قبل البيت وجهي إذا فُهتُ الشهـادة والمتابا

أنزل الوطن في هذه الأبيات وفي غيرها منزلة الدين :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي
وطني لو شغلت بالخلد عنـه نازعتني إليه في الخلد نفسي

ويـكاد يتغزل بوطنه في كل موضوع يعالجه حتى في خمرياته . فبينما هو ينشد في العيد طرباً : « رمضان ولّى هاتها يا ساقي » إذ به يتجهم لذكرى وطنه

وطني أسفت عليك في عيد الملا وبكيت من وجدٍ ومن إشفاق
لا عيـد لي حتى أراك بأُمة شمـاء راويةٍ من الأخلاق

نعم إن حب الوطن سجية كل حر

وللأوطان في دم كل حرٍّ يدٌ سلفت ودينٌ مستحق

ولـكن مصر أحرى من سواها من الأوطان بهوى أبنائها :

إن الذي قسم البلاد حباكمُ بلداً كأوطان النجوم مجيدا
قد كان ، والدنيا لحودٌ كلها ، للعبقرية والفنونـ مهودا

واسمعوه بعد ذلك يعدد محاسن هذا الوطن في مختلف قصائده مهما تنوعت موضوعاتها ، ويبدع في وصف آثار مصر الإبداع كله سوآء تكلم عن الهيا كل :

وبنينا فلم نخلّ لبانٍ وعلونا فلم يجزنا علاءُ
أجفل الجن عن عزائم فرعو ن ودانت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان ولا أنـ ـشأ عصر ولا بنى بنّاء
هيكل تنشر الديانات فيه فهي والناس والقرون هباء

أم خاطب الأهرام :

أسست من أحلامهم بقواعد ورفعتِ من أخلاقهم بعماد
تم قبل الأحجار والأيدي التي أخذت لها عهداً من الآباد

أو خاطب أبا الهول :

كأن الرمال على جانبيـ ـك وبين يديك ذنوب البشر
كأنك فيها لواء القضا ء على الأرض أو ديدبان القدر

أو النيل

لي فيك مدح ليس فيه تكلف أملاه حب ليس فيه تملق

ومجال الفخر بتاريخ مصر وما تعاقب فيها من جسام الحوادث لا يقل اتساعاً عن مجال الفخر بآثارها الخالدة

واخفض جناحك في الأرض التي حملت موسى رضيعاً وعيسى الطهر منفطما
وأخرجت حكمة الأجيال خالدة وبينت للعباد السيف والقلما
هذا فضاء تلم الريح خاشعة به ويمشي عليه الدهر محتشما

وعلماؤها الأعلام هم الذين نشروا نور التمدين في العالم :

فكانوا الشهب حين الأرض ليل وحين الناس جد مضللينا

مشت بنارهم في الأرض روما ومن أنوارهم قبست أثينا

أحب هذا الوطن في ماضيه حباً جماً ، وقد أحبه في حاضره حباً أشد ، لذلك ما فتئ يدعو إلى الجد والنشاط في مختلف ميادين العمل لاستعادة ذلك المجد الباهر :

فاض الزمان من النبوغ فهل فتى غمر الزمان بعلمه وبيانه

أين التجارة وهي مضمار الغنى أين الصناعة وهي وجه عنانه

أين الجواد على العلوم بماله أين المشارك مصر في فدانه

أما كيف يريد هذا الوطن فيريده قبل كل شيء متحداً

إلامَ الخلف بينكم إلاما وهذه الضجة الكبرى علاما

ويريده حراً طليقاً من القيود التي قعدت به عن السير إلى الأمام.

ياقوم هذا زمن قد رمى بالقيد واستكبر عن سحبه

لو أن قيداً جاءه من علٍ خشيت أن يأبى على ربه

وإذا هنأ المعتقلين السياسيين بفك اعتقالهم عاد إلى حرية الوطن فقال :

وجد السجين يداً تحطم قيده من ذا يحطم للبلاد قيودا

وكيف الوصول إلى تحقيق هذه الأمنية ؟

هناك فكرتان أساسيتان بل قاعدتان أوليان يريد أن يبني عليهما إنهاض الوطن وإسعاده: الأولى العلم والقوة. والثانية الدستور والشورى

أما العلم والقوة فحيث يقول :

ومن شرف الأوطان أن لا يفوتها حسامٌ معزٌ أو يراعٌ مهذب

فالحسام المعز هو الذي يصون الحقوق :

فقل لبانٍ بقولٍ ركنَ مملكةٍ | على الكتائب يبنى الملك لا الكتب
لا تلتمس غلباً للحق في أمم | الحق عندهم معنى من الغلب
لا خير في منبر حتى يكون له | عود من السمر أو عود من القضب

واليراع المهذب دوآء النفوس ·

ترك النفوس بلا علم ولا أدب | ترك المريض بلا طبٍ ولا آسٍ

لذلك تراه يقدس مهمة المعلم · وإذا كان بسمرك قد قال: « غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة » فإن شاعرنا يقول :

أعلمت أشرف أو أجل من الذي | يبني وينشئ أنفساً وعقولا

أما الشورى وأما الدستور فيكاد لا يقصد قصيدة إلا جعل لهما منها النصيب الأوفر لأن :

شر الحكومة أن يساس بواحد | في الملك أقوام عداد رماله

ولذلك يقول مخاطباً توتنخ آمون :

زمان الفرد يا فرعون ولى | ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض | على حكم الرعية نازلينا
فؤآد أجل بالدستور دنيا | وأشرف منك بالإسلام دينا

بل إن الشورى من الدين · قال يخاطب سلطان تركيا منذ ربع قرن :

الرأي رأي أمير المؤمنين إذا | حارت رجال وضلت في مرائيها

وإنما هي شورى الله جآء بها   كتابه الحق يعليها ويغليها

هكذا أحب شوقي مصر في ماضيها المجيد ، وفي حاضرها المتوثب حبًا يقرب من العبادة . وهو يحبها كذلك في مستقبلها أي في شبانها فهم أمل الوطن الطالع ورجاؤه الناهض .

وطن يرفُّ هوى إلى شبانه   كالروض رقته على ريحانه

هم نظم حليته وجوهر عقده   والعقد قيمته يتيم جمانه

قل للشباب زمانكم متحرك   هل تأخذون القسط من دورانه

ولا بد من الإقدام على العمل .

تحرك أبا الهول هذا الزمان   تحرك ما فيه حتى الحجر

يريد شبان مصر طموحين إلى المعالي متخلقين بجميع مكارم الأخلاق مما لا أجد الآن مجالاً لإيراده . وهل في استنهاض الشباب أبلغ وأحرُّ من هذه النغمة المنبعثة من سويدآء القلب :

يا شباب الغد ، وابناي الفدى   لكمُ وأكرم وأعزز بالفدآء

من رآكم قال مصر استرجعت   عزها في عهد خوفو ومنآء

إنما مصر إليكم ، وبكم   وحقوق البر أولى بالقضآء

لا تقولوا : حطنا الدهر فما   هو إلا من خيال الشعرآء

هل علمتم أمة في جهلها   ظهرت في المجد حسنآء الردآء

فخذوا العلم على أعلامه   واطلبوا الحكمة عند الحكمآء

واقرأوا تاريخكم . واحتفظوا   بفصيح جآءكم من فصحآء

واطلبوا المجد على الأرض فإن هي ضاقت فاطلبوه في السماء

هذه الأبيات قالها سنة ١٩١٤ وهي تعبر عن الأمل المنشود فاسمعوه في سنة ١٩٢٤ .

يا مصر أشبال العرين ترعرعت ومشت إليك من السجون أسودا

قالوا : أتنظم للشباب تحية تبقى على جيد الزمان قصيدا

قلت : الشباب أتم عقداً مآثر من أن أزيدهم الثناء عقودا

قبلت جهودهم البلاد وقبلت تاجاً على هاماتهم معقودا

وإذا كانت مصر وعرشها وشبانها وحضارتها تكاد تكون القرار في جميع ألحانه فإنه ما نسي ذلك الشرق العاثر .

وما الشرق إلا أسرة أو قبيلة تلم بنيها عند كل مصاب

وما غمط حق قطر من الأقطار التي تربطها بمصر رابطة من روابط الجوار .

رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم عن جيرانه

أو روابط اللغة .

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام إخوان

حتى غمر شعره هذا الشرق فكان شريكه في فرحه ، ومواسيه في ترحه :

كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان العزاء في أحزانه

ولقد نظم في بغداد ودمشق ولبنان ، مهنئاً أو معزياً ، ما قد يكون

قصر عنه شعرآء العراق أو الشام أو لبنان · ولكنه في عواطفه الفياضة على هذه البلاد الشقيقة لا ينسى مصر

نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطناً ولا سريراً ولا تاجاً ولا علما

أحب وطنه ومواطنيه وحببه وحببهم إلى الجميع

وزينب إن تاهت وإن هي فاخرت فما قومها إلا العشير المحبب

ومن أجل هذا اشتركت جميع البلاد العربية بفجيعة مصر بابنها البار وعقدت له حفلات التأبين والرثآء كأن المصاب مصابها · وها هي قد أوفدت أنجب أبنائها لحمل عزآء الملايين من الناطقين بالضاد إلى إخوانهم أبنآء مصر · لأن شوقي الذي تغنى بشعره ـ وهو شاعر الإسلام ـ أبنآء سائر الأديان يدعيه ـ وهو شاعر مصر ـ أبنآء سائر الأوطان · فكان أكبر دعاية حية لمصر في حياته وفي مماته فحق له أن يزهو ويقول كما قال :

رواة قصائدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق

* * *

وهناك وتر ثالث شده أمير الشعرآء إلى قيثارته كما شده غيره من الشعرآء · ولكنه امتاز في نغمته كما امتاز في الألحان التي استنبطها من سائر الأوتار، عنيت به وتر الحكمة أو الاجتماعيات · ولا عجب أن تكثر الحكم والنصائح وضروب الإرشاد في شعر من تغنى بالدين والوطن كما رأينا· وأختصر الآن بحثي من هذه الجهة فقد وفى الموضوع

حقه صديقي الأستاذ منصور فهمي، ولكني أقول على وجه التلخيص إن فلسفة شوقي هي الحكمة تحمل زهراً فهي فلسفة زاهرة باسمة لاعبوس فيها ولاتجهم ولا تصعيب ولا تعقيد، بل تبدو وضاحة المذهب كريمة المطلب · لا يتوخى فيها التعمق في التحليل ، بل يأخذها مما يخطر ببال كل إنسان ، وينطق به كل لسان · ثم ينثر دقائقها عفواً في بيت أو بيتين ، أو في جملة أو شطرة من بيت ، فتجيء كأنها الثمر الشهي بين الزهر البهي،ويجيء شعره معها غذاء للعقول ورياً للنفوس ، كما هو بهجة للقارئ ونغمة للسامع ·

وهناك أيضاً وتر طالما غنانا بما يطرب الأسماع ويفتن الأبصار كذلك ، كأن نغماته تتحول ألواناً تصور، وهو وتر الوصف : وصف الأشياء ووصف الأشخاص · رأى شوقي في حياته كثيراً ووعى كثيراً · وكأن ما كان في عينيه من ارتجاج عصبي جعلها كالزئبق الرجراج قد ساعده على أن يرى بلمحة عين ما لم يره غيره فكان بنظره الجوال يتناول دقائق المرئيات · وما لم يره بأم عينه نظر إليه بعين خياله : لمحة عين أو لمحة قلب كانت تكفيه ·

يطول بنا الوقوف عند كل ما وصف من آثار الطبيعة وآثار البشر، ولكنني أقتطف بعض مقاطع تكاد تكون صورة شمسية دقيقة التفصيل مستكملة الحسن ·

هل زرتم هيكل أنس الوجود ورأيتم مياه النيل قد كادت تغرقه ؟

وإلا فانظروا صورته في هذه الأبيات :

قف بتلك القصور في اليمّ غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضاً سابحات به ، وأبدين بضّا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا نع منه اليدين بالأمس نفضا
ومحاريب كالبروج بنتها عزمات من عزمة الجن أمضى

الأكثرون منا لم يروا الغواصة ولكنهم يرونها ، كما وصفها شوقي ، مرسومة على لوحة السينما .

ودبابة تحت العباب بمكمن أمين ترى الساري وليس يراها
هي الحوت أو في الحوت منها مشابهٌ فلو كان فولاذاً لكان أخاها
خؤون إذا غاصت غدور إذا طفت ملعنة في سبحها وسراها

وشاهدوا بعد ذلك في صورة أخرى كيف تهاجم هذه الغواصة السفينة وتغرقها

بعث البحر بها كالموج من لجج السند وخلجان الخزر
لمستها للمقادير يدٌ تلمس الماء فيرمي بالشرر
ضربتها وهي سرٌّ في الدجى ليس دون الله تحت الليل سر
وجفت قلباً وخارت جؤجؤاً ونزت جنباً ونآءت من أخر
طعنت فانبجست فاستصرخت فأتاها حينها فهي خبر

وهو يجيد وصف المعنويات إجادته وصف المحسوسات فيجعل الغائب شاهداً والخفي ظاهراً .

كلكم يعرف هذين البيتين وقد لخص فيهما رواية الحب بجميع فصولها:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

وإليكم تلخيص النظام الحكومي في الإسلام :

فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

أو ليس في هذه الأبيات القليلة نصوص وأحكام مفصلة في عشرات المواد من دساتير الأمم ؟

ومن الصور ما لا تكثر فيه التفاصيل ، بل إن خطوطاً قليلة تمثل لنا أوفى تمثيل ما أراده المصور ، وعند شوقي الكثير من هذه الصور السريعة العجلى في بيت أو بعض بيت . أذكر على سبيل المثال صورة المدفع عند انطلاقه:

إذا عصف الحديد احمر أفق على جنباته واسود أفق

وصورة النخل في يوم غائم :

والنخل متشح بالغيم تحسبه هيف العرائس في بيض من الأزر

وإذا وصف يد الأعمى تتلمس الأشياء قال :

ويد الضرير وراءها عين ترى

ويدخل في أنغام هذا الوتر — وتر الوصف — المدح والرثاء لأنهما ما خرجا عن أن يكونا وصفاً لأخلاق الناس وطباعهم وتعداداً لأعمالهم

وصفاتهم . ولكن ليس في الوقت متسع لإسماعكم هذا النغم، بل أنتقل سريعاً إلى وتر خامس في قيثارة شوقي وهو ما أسميه وتر الشاعر الخاص المشدود إلى نياط قلبه ، المتصل بدقائق شعوره ، الناطق بخفي وجدانه .

ونرى أثره في شعر شوقي الليريقي أو الغنائي ، في غزله ونسيبه، في مناجاته عهد الصبا ، في بسمته لأولاده وأحفاده ، ودمعته على آبائه وأجداده ، وتبسطه مع أحبائه وخلانه ، فهنا عواطف الحنان ولواعج الأشجان ، وهنا خفقان الجوارح ونبضات الفؤاد .

رأينا أن فلسفته سهلة خالية من التعقيد ، وكذلك جاء وصفه لعواطف النفس وأهوائها وصفاً طبيعياً خالياً من الإيغال في التفصيل والتعمق في التحليل . وهو نفسه يعلن ذلك بألطف أسلوب :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى   لعل الذي لا يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته   فوالله لا أدري الهوى كيف يوصف

بل يقول : إن الهوى هو ما يشعر به والسلام :

وعندي الهوى موصوفه لا صفاته   إذا سألوني ما الهوى قلت ما بيا .

ومع ذلك فكثيراً ما يضرب على هذا الوتر متألماً ، كقوله يناجي من منفاه أحبابه وعهده الماضي في مصر :

بالله يا نسمات النيل في السحر   هل عندكن عن الأحباب من خبر
هجتن لي لوعة في القلب كامنة   والجرح إن تعترضه نسمة يثر
ذكرت مصر ومن أهوى ومجلسنا   على الجزيرة بين الجسر والنهر

وما شجاني إلا صوت ساقيـة   تستقبل الليل بين النوح والعبر

فهو لا تجيش بين ضلوعه تلك العواطف الثـائرة المتمردة تنبعث انبعاث الحمم المتقدة منطلقـة من البراكين ، ولكن قلبه يفيض بعواطف هادئة هنية كجدول الماء المترقرق .

أصغوا إليه يناغي أولاده مناغاة الطيور فيقول لكريمته وهي طفلة صغيرة

كم خفق القلب لهـا   عند البكا والضحك

فإن مشت نخاطري   يسبقهـا كالمسك

ويقول في نجله علي :

وأنت مني كروحي   وأنت من أنت عندي

وفي نجله حسين مخاطباً الجراح الأكبر علي باشا إبراهيم وقد عمل له عملاً جراحياً

جرحه كان بقلبي يا أباً   لا أنبيه بجرحي كيف كانا

لطف الله فعوفينـا معاً   وارتهنا لك بالشكر لسانا

واسمحوا لي ما دمت أحدثكم عن هذا الوتر الخاص أن أسمعكم بعض أبيات من رثائه لوالده فإنه كثيراً ما أفضى إلى أخصائه أنهـا قصيدة من قصائده المفضلة عنده :

أنا من مات ومن مات أنا   لقي الموت كلانا مرتين

نحن كنا مهجةً في بدن   ثم صرنا مهجة في بدنين

ثم عدنا مهجةً في بدن   ثم نلقى جثة في كفنين

ثم نحيي في (علي) بعدنا ... وبه نبعث أولى البعثتين

أنظر الكون وقل في وصفه ... كل هذا أصله من أبوين

فقدنا الجنة في إيجادنا ... ونعمنا منهما في جنتين

ما أبي إلا أخٌ فارقته ... وده الصدق وود الناس مين

طالما قمنا إلى مائدةٍ ... كانت الكسرة فيها كسرتين

وشربنا بين إناءٍ واحدٍ ... وغسلنا بعد ذا فيه اليدين

وتمشينا يدي في يده ... من رآنا قال عنا أخوين

وإذا متُّ وأودعت الثرى ... أنلقى حفرةً أم حفرتين

أيها السادة . أقف عند هذا الحد من عرض الأنغام التي بعثها شوقي من قيثارة الشعر . ولو رجعتم إلى دواوين شعره لوجدتم الكثير مما اضطررت إلى إغفاله اضطراراً . فهناك منجم من الماس غني مهما اغترفنا منه نترك لسوانا الشيء الكثير، فقريحة شوقي قريحة جوادة فاضت على جميع حوادث زمانه فعادت منها بكرائم المعاني في حرائر الألفاظ بتصور موضوعه ثم تلبيه الألفاظ طلية عذبة منسجمة ، فكأنه لا يعبر عن فكره تعبيراً، بل يغنيه غناءً حتى لتنسينا نغمة اللفظ وحسن التوقيع دقائق المعنى وبدائع التفصيل . وكم رأينا من الذين لا يتذوقون الشعر يطربون لقصائد شوقي على حد قول أبي تمام :

ولم أفهم معانيها ولكن ... روت كبدي فلم أجهل شجاها

مصر : ... أنطون الجميّل

ذكريات


داود بركات

لقد يكون من مفاخر حياتي الصحفية أني لقبت أحمد شوقي بك في سنة ١٨٩٩ على صفحات «الأهرام» وأنا حديث العهد بتحريرها بأمير الشعراء ووصفت قصائده بالشوقيات وكانت « الأهرام» يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراقي . وكان المرحوم صاحبها بشارة تقلا باشا الذي رثاه أحمد شوقي بالبيت المشهور الذي ذهب أحد شطريه مذهب المثل : « رجل مات والرجال قليل » من أكبر المعجبين بشوقي وبشعره وبذكائه وحصافته .

ولا أدعي جواز إطلاق هذا اللقب على شوقي أكبر شاعر في عصرنا على ما أعتقد وقد يكون أكبر الشعراء في العصور الخوالي أيضاً لأنه جمع بين الحضارتين القديمة والحديثة والأسلوبين العتيق والجديد ووفق بين الطارف والتليد . ولكن متابعة الكتاب والأدباء للأهرام في ذلك حتى اليوم أعطت اللقب مكانته ، وأحاته المحل الذي

أريد منه وأريد له، وكذلك وصف قصائده، ولما ظهر حافظ إبراهيم بشعره الرائع أطلقت عليه «الأهرام» لقب شاعر النيل فأقر الكتاب والصحف ذلك اللقب. ولا أدري من الذي لقب خليل مطران بعد ذلك بشاعر القطرين وإمام الصناعتين، ولكن أدباء تلك الأيام وشعراءها كانوا يضعون أحمد محرم في هذا الصف صف الثلاثة، وكان المرحوم إسماعيل باشا صبري الذي كانوا يلقبونه بحق وصواب بأستاذ الشعراء يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم، وإذا نظم أحدهم معنى مبتكراً يهتز له طرباً ويهز به مدحاً وترديداً. وكان يقول: إن شيطان الشعر يحلق بشوقي حتى يغيب عن مدار كنا وخيالنا. أما السبب الذي دعا إلى تلقيب أحمد شوقي بأمير الشعراء فهو أن الخديوي عباساً كان يهمل شوقي بعض الإهمال، لا لاعتقاده بل لأنهم أدخلوا على نفسه، أن أحمد شوقي «شاعر» فقط. وأنه هو بحاجة إلى رجل سياسي لما كان بينه وبين الانكليز من الكفاح والجلاد، فاجتمع لإزالة هذا التوهم من صدره المرحومون بطرس باشا غالي (وقد كانت به نزعة للأدب والأدباء) وبشارة باشا تقلا ومصطفى باشا كامل وكان بطرس باشا يطلب من الخديوي أن يسمح له بتوظيفه شوقي في الخارجية بضعفي مرتبه الذي كان يتناوله من قلم الترجمة في السراي، وكان بشارة تقلا باشا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليوليه تحرير «الأهرام»، فتأييداً لذلك وضع شوقي في مكانه من

الأدب وإمارة الشعر إلى أن قربه الخديوي وناط به كثيراً من المهام فقام بها خير قيام . فأولاه ثقته وقدمه على جميع رجاله وطرد من خدمته حسين زكي وزامر الذي قال صاحب « مصباح الشرق » يومئذ في وصف خروجه من السراي : « إن خروج زامر من المعية ألذ من خروج البرغوث من الأذن » . وبعد أن كان الكتاب يلقبون شوقي بأمير الشعراء أعطاه الخديوي بعد إنعاماته الكثيرة التي غمره بها لقب « شاعر الأمير » .

* * *

كان أحمد شوقي بك يسكن داره في حي الحنفي والشيخ زكي سند مؤسس « جماعة مكارم الأخلاق » يسكن في حارة السقايين وكنت أسكن في ذلك الحي . فكنا متجاورين وكنا في كل صباح نلتقي في الطريق فيذهب شوقي إلى سراي عابدين والشيخ زكي إلى مدرسة اليسوعيين للتدريس وأذهب أنا إلى إدارة جريدة « المحروسة » . فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لا يصدقون أن خريجاً من خريجي مدارس فرنسا كأحمد شوقي يستطيع قرض ذلك الشعر الراقي كقصيدته في الخديوي توفيق :

لك مصر يجري تحت عرشك نيلها ... ولك البلادُ عريضها وطويلها

وكقصيدته في مؤتمر جنيف :

همت الفلك واحتواها الماء ... وحداها بمن تقلّ الرجاء

وكلتا القصيدتين كان الطلبة يحفظونها . فكانوايقولون: إن الشيخ زكي سند صديقه هو الذي يساعده في نظم هذه القصائد لما يرونه بين الاثنين من الصداقة ولاجتماعهما كثيراً لأنهما من حيّ واحد .

كان شوقي لايتعرض للسياسة في شعره، فلما قرّبه الخديوي ووكل إليه الكثير من الشؤون السياسية تحوّلت قصائده من الخيال البحت والحكم والوصف الخ . إلى السياسة التي كان يتأثربها كمدحه السلطان عبد الحميد لأنه شاعر أمير مصر ، وكحملته على رياض باشا في حادثة الحدود وقد زار الخديوي الجيش وانتقد نظام إحدى الأورط فعدّ اللورد كرومر ذلك إهانة لكتشنر باشا طلب من أجلها الترضية ، وكان رياض باشا رئيس الوزارة فتبرأ من عمل الخديوي وذهب إلى الفيوم حيث قابل سموه واستصدر منه تلغرافاً إلى كتشنر باشا يثني فيه عليه وعلى نظام الجيش ، وكحملته على هذا الوزير عند افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية لأنه ألقى خطاباً قال فيه للورد كرومر انه يعتمد عليه في إنجاح الجمعية والمدرسة . وقبل أن يطلع صباح اليوم التالي طلع شوقي على الجمهور بقصيدته التي يقول فيها :

كبيرَ السابقين من الكرامِ ... برغمي أن أنالك بالملام
مقامك فوق مازعموا ولكن ... رأيت الحق فوقك في المقام
خطبتَ فكنتَ خطباً لاخطيباً ... أضيف إلى مصائبنا العظام !

وكقصيدته في اللورد كرومر يوم وداعه وكانوا قد عقدوا له اجتماعاً

في الأوبرا ليتمكن من الخطابة . وحضر الاجتماع الأمير حسين كامل فألقى اللورد كرومر خطابه الشديد اللهجة فذم عصر إسماعيل على مسمع من ابنه ، وحمل على المصريين لأنهم لم يقدروا عمله في تحريره أصحاب الجلاليب الزرق ، فنظم شوقي قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

أيامكم أم عهد إسماعيلا أم أنت فرعون يسوس النيلا

فقابلها الرأي العام بالارتياح العظيم لأن اللورد كرومر آلم المصريين في كرامتهم حتى إن السيد حسن موسى العقاد الذي كان يقف في وجه الخديوي مستنداً إلى ذراع اللورد كرومر أرسل إليه تلغرافاً وهو يركب الباخرة من بورسعيد ضمنه أشد اللوم للورد على كلامه القارص .

ولما عاد أحمد عرابي من منفاه هزت روح عودته وهو على ما كان عليه من الكبرياء شاعر السراي شوقي فقابله بقصيدته :

صغارٌ في الذهاب وفي الإياب أهذا كل شأنك يا عرابي

على أن تحول شوقي إلى السياسة وتحول شعره إليها لم يحوله ولم يحول شعره عن بعض الصداقات العالقة بشغاف قلبه كصداقة المرحوم مصطفى كامل ، فإنه رحمه الله قطع صلته بالسراي الخديوية بعد اتباع الخديوي سياسة الوفاق مع السيرا لدن غورست ووجه مصطفى كامل يومئذ كتاباً مفتوحاً على صفحات الصحف إلى الخديوي وكان هذا الكتاب شديد اللهجة ، ولكن ذلك لم يقطع ما بين شوقي ومصطفى كامل ، حتى إن شوقي كان المواسي الوحيد لمصطفى في إبان مرض الموت ، وقصيدته في رثائه من

أروع الشعر . نظمها شوقي في الليل ونشرت في الصباح وذهب مثلاً قوله فيها:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إنّ الحياة دقائقٌ وثوانِ

كانت الحادثة من الحوادث تقع صباحاً فلا يحلّ المساء حتى تذاع بين الجمهور ، وبقصيدة شوقي ، لأنه كان للحوادث تأثير شديد عليه يهزّ أعصابه ويستثير نفسه ويحفز خياله . وكان أكثر ما ينظم الشعر وهو ماش أو واقف أو جالس إلى أصحابه يغيب عنهم بذهنه وفكره ، فقلما يجلس إلى مكتبه للتفكير وعصر الذهن ، فإذا جلس إلى المكتب فلتدوين ما يكون قد نظمه واستوعبه في ذاكرته . فبين سيكارة وأخرى يجد فكرته وبين كلمة وأخرى يجد الظرف الموافق لهيكل الفكرة وكان شديد الحذر ينتقي ألفاظه كما ينتقي معانيه ، لأنه كان شاعراً سياسياً في كل أشعاره وفي كل أطواره الشعرية

ولو أن قصائد شوقي ومنظوماته جمعت بالتتابع مع مراعاة زمن نظمها والظروف التي دعت الشاعر إلى النظم وبيان ما فيها من إشارة وتلويح وتلميح لكان من ذلك في نظري وعقيدتي أجمل ديوان ولكان هذا الديوان أصدق تاريخ لحوادث مصر منذ عهد الخديوي توفيق إلى اليوم . وأما جمع ديوانه على الطريقة التي جمع فيها بعض شعره في العهد الأخير فعمل لا يفي شعر شوقي مقامه من الشعر والتاريخ معاً .

ولربما كان الأمر سهلاً بعض السهولة اليوم ، ولكنه يصير مستحيلاً بعد بضع سنين إلا إذا كان شوقي قد دوّن ذلك بيده كما كان يعد .

مصر : داود بركات

شخصية شوقي وحكمته المطبوعة

انفق لي أن كتبت فصولاً مطولة عن شعر شوقي في سنة ١٩٢٥ وهي فصول منزهة عن الغرض يجدها القارئ في كتاب (الموازنة بين الشعراء » وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين ويعز على أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية ، وكان شوقي عوّدهم التطلع إلى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل ! وكانوا كلما احتاجوا إلى « بره ومعروفه » طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب ، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه ، فكان يخرس ألسنتهم ، ويقصف أقلامهم ، بالهدايا والهبات . وقد ظن أولئك المساكين أني أكتب عن شعر شوقي لنفس الغرض الذي يسوقهم ويحفزهم إلى الكتابة عن شعره ، فكانوا يتقدمون إليّ ناصحين ، وكان نصحهم يتلخص على اختلاف ألوانه في هذه الكلمة الطريفة: « إن شوقي لا يحترم من ينصفه ! »

والاحترام الذي يفهمونه هو السخاء والكرم والجود ، وهذا النوع من الاحترام يبدو لعيني بغيضاً ممقوتاً لا يتطلع إليه إلا سفلة الناس . وليت شعري كيف يحتاج الرجل إلى هبات الأغنياء ورغيفٌ واحد يكفيه يوماً وليلة ، وليس بطن الإنسان إلا وعاء حقيراً لا يستحق

أن تذل في سبيل ملئه النفوس! ولكن هذا هو الذي وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجع، وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبي أبشع تشويه، وأن يقلبوا الحقائق الأدبية قلباً كريهاً، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق إلا مأخوذاً بغرض دفين .

وقد عرفتُ بالتجربة أن شوقي كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه ، وتجلت لي حقيقة ذلك في سنة ١٩٢٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له في داره حفلة استقبال . كنت يومئذ مدرساً بالجامعة المصرية وكنت صديقه ، وكان الدكتور طه حسين من خصومه الألداء ، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور في منزله ولم يدعني ، لأن الدكتور طه كان موظفاً في الدرجة الثانية وكنت موظفاً في الدرجة السادسة ، وفرقُ ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التي يفهمها جيداً أمير الشعراء الذي عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات ! ثم وقع يومئذ ما هو أبشع من ذلك : فقد كان دعا المسيو ساروليا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الأستاذ لكلمة ندّت في محاضراته بالجامعة المصرية ، فكتب إليه شوقي ينبئه بأنه « سحب الدعوة » وأنه يرجوه أن يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والجود « كرمة ابن هانئ » على أيامها وأيامه تحية وسلام !

وكانت هذه أيضاً فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقي : فإن تلك الهفوة لم تنقص تقديري لشوقي ، شوقي الشاعر . أما شوقي الصديق

فقد ثرت عليه ثورة عنيفة ، وعدت لا أقابله حين ألقاه مصادفة إلا بنفس الزاهد العيوف . وقد اتفق أن تلاقينا عفواً في بهو الكونتنتال في ربيع سنة ١٩٢٩ وكنت مع الدكتور منصور فهمي ، فسألني شوقي عن انصرافي عنه ، فأجبته بكلمات فيها جفاء ، فالتفت إلي الدكتور منصور وقال : إن شوقي بك والد الجميع ، وأنشد :

نميل على جوانبه كأنا　　نميل إذا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه　　فنخبر منهما كرماً ولينا

ثم توالت الأيام ، وكانت تزيد في يقيننا بأن شوقي الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقي الذي يعرفه الناس كإنسان اجتماعي يخطئ ويصيب بين الحق والواجب ، وكان أن رأيته لآخر مرة في مسرح حديقة الأزبكية يوم اجتمعنا لمعاونة الأديب محمود أبو الوفا ، وأسرعت أليه أحييه ، وأقبل أبو الوفا يسلم عليه وكدت أصرخ في وجهه : قبل يد الشاعر أيها الجاحد فقد شرّف قدرك بشعره ! وكانت عاطفة طبيعية : فقد كان شوقي في ذلك اليوم وهو محطم مهدود يبدو لعيني في وقار الصديقين . ولما علمت أنه سيقيم حفلة شاي في داره لأعضاء (جمعية أپولو) خطر ببالي أن أسعى لحضور تلك الحفلة ، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء ، ولكني رفضت أن أذهب بدون دعوة ، ثم كان ما مر بالبال صحيحاً ، وكانت آخر مرة يستقبل فيها شوقي رجال الأدب في داره ، فيا حسرتا على ما ضيعت من تلك اللحظات الطيبات !

لم أسئ يوماً إلى شوقي الشاعر، والحمد لله ، وإن كنتُ بعت حظي من شوقي الصديق ، وقد عانيت في سبيل إعجابي بشعره نكبات عديدة ، فإن ناساً كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا إلى هدمه شتى الشعاب ، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية ، وكانت لهم في ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان . والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرضٍ حقود ، وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند إليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق !

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقي أخلاقه ووطنيته ، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائعة .

الحكمة في شعر شوقي

أول ظاهرة واضحة في شعر شوقي هي التماس الشاعر لغرائب الحكمة في جميع القصائد والمقطوعات، وقد آثرت أن أقف هذا المقال التقديري على تلك الظاهرة البارزة في شعره وهي ليست ملحوظة في شعر الكهولة وحده ، وإنما ترجع إلى ميلٍ في نفس الشاعر منذ صباه . ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيماً ، ولكن الأجمل أن ترد الحكمة عفواً بلا

تكلف ولا افتعال . وقد وقع لشوقي أن عقّ أسلوب القصص أحياناً كثيرة في سبيل الحكمة ، وغالبَ سياق القصائد رغبة في تدوين الكلام الحكيم . من ذلك قصيدته الهمزية التي أنشأها منذ نحو ثلاثين عاماً لتلقى في المؤتمر الشرقي الدولي الذي انعقد في مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ . وهي قصيدة مطولة وصف فيها مصر وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم ، وجرى القصص فيها مسلسلاً لم يعقه إلا التنقل إلى الحكمة التي كانت تطّرد أحياناً إلى نحو خمسة أبيات مع أنه كان يكفي أن تقع في شطر بيت لتكون لفتة طريفة لا ينقطع بها سياق الحديث . مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد فرعون ، فقد وصل به هذه الأبيات :

إن ملكتَ النفوس فابغ رضاها   فلها ثورةٌ وفيها مضاءُ
يسكن الوحشُ للوثوب من الأسـ   ـرِ فكيف الخلائق العقلاءُ
يحسب الظالمون أن سيسودو   ن وأن لن يؤيد الضعفاءُ
والليالي جوائرٌ مثلما جا   روا وللدهر مثلهم أهواءُ

ثم عاد إلى القصص فنظم ثلاثة عشر بيتاً عن رمسيس وسيزوستريس الذي وصفه بالتواضع وكره الكبرياء ، ودعاه هذا إلى إلقاء الحكمة فقال :

يولد السيدُ المتوّج غضاً   طهرته في مهدها النعماءُ
لم يغيره يوم ميلاده بؤ   سٌ ولا ناله وليداً شقاءُ

فإذا ما الملقون تولوا ** تولى طباعه الخيلاء

وسرى في فؤاده زخرف القو ** ل يراه مستعذباً وهو داء

فإذا أبيض الهديل غراب ** وإذا أبلج الصباح مساء

وقد نطرد الحكمة عند شوقي لغرض مقصود فتأتي رائعة : مثال هذا قصيدته في مشروع ملنر ، وهي قصيدة كان يجب بترها من الديوان لولا حرمة التاريخ ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن ، وكان ناس دعوا له واستدرجوا شوقي إلى الدعوة له ، فكتبت ألومه في جريدة « المحروسة » ، فلما تلاقينا اعتذر بأنه قال القصيدة مأخوذاً بإلحاح بعض الناس . والقصيدة دعوة إلى الرضا بالضعف ، ولكنها من أظرف ما ينوّم به الضعفاء ، ولم أجد في حياتي كلمة باطل صيغت في مثل هذا الأسلوب الطريف :

قد صارت الحال إلى جدّها ** وانتبه الغافل من لعبه

الليث والعالم من شرقه ** في هيبة الليث إلى غربه

قضى بأن نبني على نابه ** ملك بنينا وعلى خلبه

ونبلغ المجد على عينه ** وندخل العصر إلى جنبه

ونصل النازل في سلمه ** ونقطع الداخل في حربه

ونصرف النيل إلى رأيه ** يقسمه بالعدل في شربه

يبيح أو يحمي على قدرة ** حق القرى والناس في عذبه

أمر عليكم أو لكم في غد ** ما ساء أو ما سرّ من غبه

لا تستقلوه فما دهركم بحاتم الجود ولا كعبه
نسمع بالحق ولم نطلع على قنى الحق ولا قضبه
ينال باللين الفتى بعضَ ما يعجز بالشدة عن غصبه
فإن أنستم فليكن أنسكم في الصبر للدهر وفي عتبه
وفي احتشام الأسد دون القذى إذا هي اضطرت إلى شربه
قد أسقط الطفرة في ملكه من ليس بالعاجز عن قلبه
يا رُبَّ قيدٍ لا تحبونه زمانكم لم يتقيد بــه
ومطلبٍ في الظن مستبعدٍ كالصبح للناظر في قربه
واليأس لا يجمل من مؤمن ما دام هذا الغيب في حجبه

أليس يرى القارئ أن هذا باطلٌ صوّر في أبرع أسلوب ؟ ومع هذا فالشاعر حكيم في طبعه حتى حين يتأنق في تصوير الأباطيل ، فإننا مهما رميناه بالدعوة إلى الضعف واللين لا نستطيع أن ننكر أنه كان أحكم الناس حين قال :

يا رُبَّ قيدٍ لا تحبونه زمانكم لم يتقيد بهِ

فإن الزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق الأحياء كما بدأ يفعل في معاهدة فرساي .

وكان يطيب لشوقي أحياناً أن يبدأ قصيده بالحكمة ثم يطيل كأنما كانت الحكمة غرضه المقصود ، وأكثر ما كان يقع ذلك في قصائد الرثاء . ومن أوضح الشواهد في هذا ما ابتدأ به قصيدته في كارنارفون :

في الموت ما أعيى وفي أسبابه ... كل امرىء رهن بطي كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره ... عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع ... أو لم ينم فالطب من أذنابه
داء النفوس وكل داء قبله ... هم نسين مجيئه بذهابه
النفس حرب الموت إلا أنها ... أتت الحياة وشغلها من بابه
تسع الحياة على طويل بلائها ... وتضيق عنه على قصير عذابه
هو منزل الساري وراحة رائح ... كثر النهار عليه في أتعابه
وشفاء هذي الروح من آلامها ... ودواء هذا الجسم من أوصابه

تلك ثمانية أبيات في الحكمة يجد بعدها القارىء أحد عشر بيتاً حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم ، وهذه المقدمة الطويلة تبدو لنا مستقلة بعض الشيء لأننا نلمح فيها آثار الافتعال ، ولكنا نقف خاشعين حين نصل إلى قوله في وصف ذلك العالم المجهول الذي يسمى عالم البقاء :

ياصاحب الأخرى بلغت محلة ... هي من أخي الدنيا مناخ ركابه
نزل أفاق بجانبيه من الهوى ... من لا يفيق وجد من تلعابه
نام العدو لديه عن أحقاده ... وسلا الصديق به هوى أحبابه
الراحة الكبرى ملاك أديمه ... والسلوة الطولى قوام ترابه

وللقارىء أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ما قيل في وصف ما بعد الموت من قرار وسكون .

ولشوقي قصائد دعت إليها ظروف وقتية ، ضمنها كذلك حكماً

وقتية ! فقصيدته في العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك ، واسمع كيف يقول :

أيها الجمعُ لقـد صر ت َ من المجلس قابا
فـكن الحرّ اختياراً وكن الحرّ انتخابا
إنّ للقوم لعينـاً ليس تألوك ارتقابا
فتوقع أن يقولوا : مَن عن العمال نابا ؟
ليس بالأمر جديراً كلُّ من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قدّ مَ جاهـاً وانتسابا
أو رأى أميةً فاخ تلب الجهل اختلابا

والقوم الذين يعنيهم شوقي هم الانكليز ، والعمال مدعوُّون أن يراقبوا الانكليز حين ينتخبون النواب ، والمطلوب أن ينتخبوا الدكتور محجوب ثابت ! ولكن هذه المنظومة لم تخلُ مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت إليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول :

إنّ لي نصحاً إليكم إن أذنتم وعتابا
في زمـان غَبيَ النا صحُ فيه أو تغابى
أين أنتم من جدودٍ خلدوا هـذا الترابا
قلدوه الأثر المع جزَ والفنّ العجابا
وكسوه أبدَ الده ر من الفخر ثيابا
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد اغتصابا !

إن للمتقن عند الله والناس ثوابا
أتقنوا يحببكم اللـه ويرفعكم جنابا
أرضيتم أن ترى مصر من الفن خرابا
بعد ما كانت سماء للصناعات وغابا

و بساطة هذا الشعر من سِمات جماله وخصوصاً إذا لاحظنا أنه يخاطب به طبقات العمال، وخطابهم يفرض اليسر واللين في العرض والأداء .

وليس من الغلو في شيء أن نصرح بأننا معجبون أفتن الإعجاب بقوله في هذه القصيدة يوصي بالادّخار اتقاء لحوادث الأيام :

إنما العاقل من يجعل للدهر حسابا
فاذكروا يوم مشيب فيه تبكون الشبابا
إن للسنّ لهمّاً حين تعلو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشيب والضعف نصابا
واذكروا في الصحة الداء إذا ما السقم نابا

وقد تبدو هذه الأبيات عادية عند من لا يتأمل فيما تشير إليه من أعقاب الشيخوخة ذات الوبل والعذاب ، ولنذكر دائماً أنه يخاطب العمال الذين تغلب عليهم الغفلة عن مصائر من يهرمون وهم مُعدمون .

ولا ينبغي أن تفوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة الغريبة في حكمة شوقي : فإن الرجل فيما يظهر من شعره ومن أخلاقه الحيوية كان مأخوذاً بالحرص على طيبات العيش، وكان مشغوفاً بمعاودة التفكير

في الأخلاق المعاشية ، والأخلاق المعاشية هذه كلمة نراها أنسب ما يُصوِّر به حرص شوقي على أسباب الحياة . وانظر قوله في النحل :

مخلوقةٌ ضعيفة من خُلقٍ مصوَّرَهْ
يا ما أقلَّ ملكها وما أجلَّ خطره !
قفْ سائل النحلَ به بأيِّ عقلٍ دبره
يجبك بالأخلاق وهي كالعقول جوهره
تغني قوى الأخلاق ما تُغني القوى المفكره
ويرفع الله بها من شاء حتى الحشره !

ليتأمل القارئ في قوله « من خُلقٍ مصوَّره » ووصفه الأخلاق بأنها جوهرة كالعقول ، يريد أنها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير علاّم الغيوب ، وهذا معنى لا يدرك إلا بدقة التأمل ، فإن الخلق الصالح خُلق العيش والحياة من الأسرار الخفية، فكم ناس يوفقون في حياتهم المعاشية ، وليست هناك أسباب ظاهرة لما رُزقوا من توفيق ، غير أن الخبير بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق نفسية وخلقية يتيسر بها العيش والرزق ، وإن كان أصحابها في ظاهر الأمر من العابثين الماجنين . ولينظر القارئ أيضاً قوله :

أليس في مملكة النحل لقومٍ تبصره ؟
مُلكٌ بناه أهله بهمةٍ ومجدره
لو التمست فيه بطالَ اليدين لم تره

تُقتل أو تنفى الكسا لى فيه غير منذرَه

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل ، وفيها عبرة لمن يرون اختلال الجماعات الإنسانية ثم لا يعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع إلى مهادنة أهل البطالة والفراغ .

***

لننتقل بعد هذا إلى الحكمة الفطرية في شعر شوقي ، ونريد بها الحكمة التي تقع في ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال . وشواهد ذلك كثيرة ، منها قوله يخاطب الخليفة مهنئاً بالعيد :

أمثلك يمنع الأوطان خيراً وأنت خُلقت من خيرٍ طباعا
شجاعاً كنت في يوم عصيب توفيها المحبة والدفاعا
جنحت إلى السلام فكان حلماً وقدماً زيّن الحلمُ الشجاعا
ومن صحب الحياة بغير عقل تورّط في حوادثها اندفاعا

فإن البيت الأخير وقع موقعاً طبيعياً لم يشنه تصنع الحكمة ولا اختلاق أسباب القول الحكيم .

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية ، ولنقرأ هذه الأبيات :

رمى القضاءُ بعيني جؤذر أسداً ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم
لما رنا حدثتني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي
جحدتها وكتمت السهم في كبدي جرحُ الأحبة عندي غير ذي ألم

رزقت أسمح ما في الناس من خلق   إذا رزقت التماس العذر في الشيم
يا لائمي في هواه والهوى قدرٌ   لو شفَّك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك أذناً غير واعية   ورب منتصتٍ والقلب في صمم

والأبيات الأربعة الأخيرة مضمخة بعبير الحكمة، وأرقها عندي وأوجزها قوله: « والهوى قدر » . وقد حدثت الدكتور طه حسين عنها مرة فابتسم وقال: «وعدٌ مكتوب عليّ ومقدر على الجبين!» .

ولنقرأ قوله في وصف الدنيا:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية   وإن بدا لك منها حسن مبتسم
فضي بتقواك فاها كلما ضحكت   كما يفضّ أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة   من أول الدهر لم ترمل ولم تئم
يفنى الزمان ويبقى من إساءتها   جرح بآدم يبكي منه في الأدم
لا تحفلي بجناها أو بجنايتها   الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

وقوله في فخار الأصل بالفرع:

قد أخطأ النجم ما نالت أبوته   من سودد باذخ في مظهر سنم
نموا إليه فزادوا في العلا شرفاً   ورب أصل لفرع في الفخار نمي

وقوله في شمائل الرسول [صلى الله عليه وسلم]:

محبة لرسول الله أشربها   قعائد الدير والرهبان في القمم
إن الشمائل إن رقت يكاد بها   يُغرى الجماد ويغرى كل ذي نسم

وقوله في صاحب البردة:

مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملي صادق الكلم

الله يشهد أني لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنما أنا بعض الغابطين ، ومن ... يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

وقوله في يتم النبي :

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة ... وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتم

وقوله في المفاضلة بين محمد وعيسى :

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له ... وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

والموت جهل فإن أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

وقوله في حرب من لم يغنِ في تقويمهم السلم :

لما أتى لك عفواً كل ذي حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

وقوله في فضل الحرب :

دعوتهم لجهاد فيه سوددهم ... والحرب أس نظام الكون والأمم

لولاه لم نرَ للدولات في زمن ... ما طال من عمدٍ أو قرّ من دعم

تلك الشواهد تترى كل آونة ... في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم

بالأمس مالت عروش واعتلت سرر ... لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

والحكمة هي قوله : « والحرب أس نظام الكون والأمم » ، وما بعد هذا الشطر جرى مجرى الشرح والتقرير ، وقوله في فضل العدل على القوة :

واترك رعمسيس إن الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

ويطول القول لو مضينا نستقصي ما اتفق لشوقي من روائع الحكمة الفطرية ، وإنها لتقع له سائغة مستطابة كالورد النمير ، وانظر قوله يخاطب من شيدوا قبر نابليون :

حصنوا ما شئتم موتاكم هل وراء الموت من حصن حصين

وقوله في ذكرى دنشواي :

شهداء حكمك في البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام

وقوله في صلة مصر بالسودان :

فمصر الرياض ، وسودانها عيون الرياض وخلجانها

وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها

وقد جرى الشاعر في هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية ، فليتصفحها القارئ ليرى صحة ما نقول .

* * *

وبعد عرض هذه النماذج في صور الحكمة ومواقعها في شعر شوقي يحسن بنا أن نقرر أن ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاريبه أكثر مما استقاها من مطالعاته : فقد عاش زمناً عيشة محرجة مضجرة لا يعرفها إلا من ابتلي بمثلها أو بما يقاربها ، وما ظن القارئ بمن يعاشر الملوك ويذوق ما في كؤوس السياسة من علقم وصاب ؟ لهذا نراه صادقاً غير متكلف حين يقول :

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... تبدّلُ كل آونةٍ إهابا
وإن الرُّقط أيقظُ هاجعات ... وأترع في ظلال السم نابا
ومن عجبٍ تشيب عاشقيها ... وتفنيهم وما برحت كعابا
فمن يغترّ بالدنيـا فإني ... لبست بها فأبليتُ الثيابا
لها ضحك القيان إلى غبي ... ولي ضحك اللبيب إذا تغابى!
جنيتُ بروضها ورداً وشوكاً ... وذقت بكأسها شهداً وصابا

مصر : ... زكي مبارك

احمد شوقي

شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة

كان قلم عبد الله بن المقفع كثيراً مايقف،فقيل له في ذلك ،فقال: تزدحم المعاني في صدري ، فيقف القلم لتحيره .

ونحن لما شرعنا في كتابةهذا المقال، وجمعنا الذهن لتصوير ما أصاب عبقرية الشعر بموت أحمد شوقي شعرنا بما شعر به ابن المقفع ، فأدركتنا الحيرة في الأمر ، فلم ندر ما نقول ، على أن الكلام على شوقي يزدحم في كل صدر يذوق بلاغة الشعر ، ويعرف مقدار لعبه بالقلوب ، ولئن وجدنا مجال القول ذا سعة فلم نجد اللسان القائل.

لقد ولت هذه الشيخوخة الخصبة التي رجعت بالشعر إلى أيام أبي الطيب المتنبي في عصر كادت تنقطع فيه الصلة بالقديم ، ولكنها لم تولّ إلا بعد أن أدت إلى العرب وحيها ،فنبهت شعورهم،وصفت أذواقهم، وشاركتهم في كل فرح وحزن ، ووقفت إلهامها عليهم فأحبتهم وأحبوها ، وعظمتهم وعظموها .

ومما يزيد في رونق هذه الشيخوخة الجذلة أنها علمتنا محبة الحياة ، فقد غرق صاحبها في النعيم سبعين سنة ، ففاضت عبقريته بهذا النعيم ،

ونظر إلى الدنيا من وجهها الضحوك فأشرقت محاسنها في شعره ، فما ينطوي هذا الشعر إلا على الفرح والنعيم .

ولقد كتب لها أن تستظل في بدء أمرها بظلال من عرف قدرها فأغرقها في مكارمه الباهرات ، فنشطها وشجعها ولم يطفئ من ضيائها ، فكان مثل شوقي في ذلك كمثل المتنبئ ، لازم المتنبئ سيف الدولة قبل أن يشتهر أمره ، فغنى بسيف الدولة ورفع من ذكره حتى خلده ، فلولا سيف الدولة لم يكن المتنبئ ، ولولا المتنبئ لم يكن سيف الدولة ، وكذلك شوقي ، فقد اتصل في صدر أمره بالخديوي عباس ، فعاش في ظلاله الوارفة عيشة الملوك ، حتى نشطت عبقريته ، وقويت نفسه ، فكان منه ما كان

ولكن شتان بين العيشة التي عاشها شوقي وبين العيشة التي عاشها المتنبئ ، فقد كانت حياة أبي الطيب ألماً واضطراباً ، يكاد لم يشعر بطمأنينة البال في ساعة من ساعاته ، أما شوقي فقد كانت حياته لهواً ولعباً .

على أن في النفسين بعض المشابه ، فقد مات المتنبئ وفي نفسه حسرة على الملك ، ومات شوقي وفي نفسه شيء من باشاوية مصر .

***

إذا صح أن الأدب إنما هو صورة المجتمع فشعر شوقي صورة مجتمعه من بعض الوجوه ، لم يكن شوقي أول من نهض بالشعر بعد رقدته ، ولكنه كان من الأوائل الذين نهضوا به ، فإذا ذكرت أسماء

محمود سامي باشا البارودي وإسماعيل باشا صبري ذكر أحمد شوقي بك ، ولكن أحمد شوقي توسع في تصريف الشعر في أغراض مجتمعه وخاصة السياسية منها ، فكان شعره من هذه الناحية صورة بيئته ٠

لم تظهر عبقرية شوقي في ديوانه المطبوع من عشرين سنة ، وإذا استثنينا بعض قصائد في هذا الديوان قيلت في غرض أسمى من المدح فلا نجد إلا أماديح لا تخلد صاحبها ، ولكن هذه العبقرية تجلت خاصة من بعد رجوع شوقي من الأندلس فقد نفاه الانكليز إلى الأندلس فتحركت نفسه واشتاقت إلى وطنها فطفقت النغمات الوطنية تفيض على جنبات شعر شوقي ، و إذا لم ينتسب شوقي إلى حزب خاص في مصر معروف بنزعته الوطنية فليس معنى هذا أنه مجرد عن أمثال هذه النزعات ، وهذا هو معنى قولنا إن شعر شوقي صورة بيئته ، فإنه لم يحلق في سماء أعلى من مجتمعه ٠ولم يعتزل هذا المجتمع فيصرف الشعر في أغراض عامة ، فيها عاطفة عامة وشعور عام ، ولكنه تقيد بمجتمعه فبكى لبكائه ، وفرح لفرحه ٠

ولم يقتصر شوقي على نزعته الوطنية في مصر وحدها ، ولكنه وسع مدى هذه النزعة ، وليس عهد قصائده الخالدات في ثورة الشام ببعيد ، فقد غنى بهذه الثورة ، ونبه من أموية أبنائها ، ففي أغانيه كثير من فيض دمائها ، ولم تتعلق الشام في عهدها الأخير بشاعر تعلقها بأحمد شوقي

هل يخلد شوقي؟ إن سؤالاً مثل هذا السؤال لا يسهل الجواب عنه ، فليس في الأدب مقاييس خاصة للخلود ، فقد يستقبح عصر من العصور

شعر شاعر من الشعراء ثم يأتي عصر بعده فيستحسن ما استقبح غيره وفي تاريخ أدب الأمم شواهد كثيرة من هذا القبيل، ولكن مالنا وللخلود شوقي فإنه كان عظيماً في شعره فلنذق هذه العظمة ولنتمتع بها ، لما مات أناتول فرانس قالوا فيه إنه ثبت اللغة ، وقد تنازع القوم في جميع فضله إلا في فضل تثبيت اللغة فإنهم قد أجمعوا عليه، وما ألصق هذا القول بشوقي نفسه ، فإنه قد ثبت الشعر، ونعني بهذا أنه ظهر في عصر انقطعت فيه الصلة بالقديم فاحتجنا فيه إلى شاعر يرجع بنا إلى الماضي فيحيي من آثاره ورسومه بعد أن فسدت الأذواق وسقمت القرائح، فكان هذا الشاعر في عصرنا أحمد شوقي ، فقد اقتبس عن شعرائنا المتقدمين أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام وأبي نواس وابن زيدون ونقيل طرائقهم فلم يُخلِ شعرَه من هذه النغمة الموسيقية التي هي سحر الشعر العربي ...

إنه لشاعر كبير لم يظهر مثله من ألف سنة، فقد أغنى ميراثنا الشعري أكثر من كل شاعر ، رحم الله شيخوخته الناعمة !

دمشق : شفيق جبري



لغة شوقي



عز الدين التنوخي

بلغ في القرن الماضي انحطاط البيان العربي شعره ونثره أسفل دركاته في جميع الأقطار العربية ، ولولا من تداركه من أمرآء الشعر وزعمآء النثر الذين تعهدوا روضه بالحرث والتشذيب والتهذيب لما اكتست لغتنا حلتها العصرية الزاهية ، ولما عادت إلى مكانتها السالفة ، فعدت من اللغات الحية السامية ، ولما ظهر في مصر والشام والعراق من الشعرآء المتصرفين في فنون الشعر الحي، والكتاب الأبينآء من أعانوا من تقدمهم في الأخذ بناصر هذه اللغة العذبة المباركة فأعادوا إليها شبابها بما أحيوه من آدابها ، وإلا فإن سخنة عين الأدب ما كان عليه البيان منثوره ومنظومه قبل الشيخ محمد عبده وإبراهيم المويلحي والبارودي وصبري وحافظ وشوقي : تعابير سوقية مبتذلة، وكلف بالصناعة وشغف بالتصنع ، وألفاظ لا منخولة ولا معسولة ، ومعانٍ سقيمة مرددة مملولة ، والغالب

مع ذلك على النثر انطباعه على سجع ليس تحته رجع ، ولنا أن نعتبر البارودي هو المهلهل الثاني ، لأن الأول قد هلهل الشعر وقصده ، والثاني قد أنعشه وجدده ، وعرض للناس أسلوبه الجزل المستقطر من أساليب البحتري والمتنبي وأبي تمام والرضي وصريع الغواني وسائر من اختارلهم في مختاراته من حذاق القريض ورواض القوافي ،وقد حذا صبري حذوه في تنقيح الشعر وتنويقه ، إلا أنه قد فاقه بتقصيره وترقيقه ، وقد باراهما حافظ وأخذ إخذهما في شد أمر الشعر وتجويد حبكه ، وأما راحلنا الكريم فقد كان بادي الرأي يخشب الشعر في شبيبته ،بينا كان حافظ يبالغ في تنقيحه وتحكيكه ، فكان المولعون يومئذ بصناعة الشعر يفضلون في ذلك حافظاً على قريعه شوقي ، وأما المولعون بقوة الشاعرية وسمو المعنى وسعة الخيال وخلود الحكمة والأمثال وببعد الشعر عن التعسف وقربه من الطبع والطلاوة فكانوا في ذلك كله يفضلون شوقي على خدينه ، وكأن لسان حالهم يقول :

إذا صح أن شوقياً يخشب الشعر وحافظاً ينقحه ، فإن خشب شوقي خير من تنقيح حافظ ، كما قيل مثل ذلك في جرير والفرزدق ؛ والحقيقة أن شوقي ما كان يخشب الشعر في شبيبته إلا لسرعة خاطره وفيض قريحته التي كانت تحمله على قول الشعر على البديهة لا يكد فيه طبعاً ولا يسهر عليه جفناً ، مع أنا رأيناه بعد كهولته يعنى بتنقيح لغة شعره حتى أوشك أن يجاري في ذلك أخاه حافظاً ، ذلك الذي كاد لفرط

تنقيحه وتحكيكه للشعر يشبه الحطيئة الذي يقول : خير الشعر الحولي المنقح المحكك ، وبذلك حق لشوقي أن يقلد إمارة الشعر بمبناه ومعناه معاً ، وقد كان العرب كما ذهب إليه صاحب الوساطة « إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة . ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض . » وشوقي في الكثير من ذلك وبوفرة إنتاجه وازدياد شعره شباباً وفتوة بازدياده شيخوخة وضعف قوة يتفوق على سائر المعاصرين .

تخرج شوقي في اللغة على الأستاذ النابغة المرصفي صاحب الوسيلة ، وكان أحب الشعراء إليه — كما أجاب به سائلاً — هو المتنبي قال مانصه : « وأنا أعده أستاذي الأول ثم يلي المتنبي ابن الرومي ، وأحب شعراء الغرب إلي ڤكتور هوغو ودي موسه الذي لا أمل القراءة فيه » ؛ ومن ذلك نستنتج أن لغة أمير الشعراء قد تأثرت كل التأثر بلغة نبي الشعراء أبي الطيب المتنبي ، الذي كان يذكره في شعره قائلاً :

ولو مشت بي الليالي تحت كوكبه غادرت أحمد نسياً وابن حمدانا

وتأثرت بعده بلغة ابن الرومي ، ثم بلغة من عارضهم من فحولة الشعر وصاغة القريض كالبحتري الذي عارضه في سينيته ، والحصري في

داليته، والأبوصيري في البردة والهمزية، وابن زيدون في أندلسيته النونية، وأمثالهم ممن يمر كلامهم العذب على الآذان مر الصبا على عذبات الأغصان، وإنما تأثرت لغة شوقي بمعارضة قلائدهم المشهورة لأن المعارضة تدعو إلى المضارعة ، فإن كان المعارَض جيد الحبك نقيّ المستشف اقتبس المعارِض ذلك منه طبعاً وارتاض على طريقته ، وإن كان المعارَض رديء السبك ضعيف التأليف متجافياً عن مضاجع الرقة ومتجانفاً عن مذاهب السلاسة أثرت لغته بمقدار زمن المضارعة والتقليد، ذلك أن العبارة السقيمة أعلق بالنفس كما ذهب إليه الجاحظ من العبارة القويمة وأسهل مراساً وأهون اقتباساً ، والحقيقة أن المتأمل في شعر شوقي وأسلوبه وتعبيره وتركيبه ، يوقن أنه خلاصة أساليب فحولة القريض ، هذا في الشعر ، وأما النثر فقد كان يعجبه أسلوب ابن خلدون كما يظهر ذلك من شعره ، وتروقه لغة المبرد في كامله ، قال في تحليته لكتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض:

لغة الكامل في استرساله ... وابن خلدون إذا صح وصابا

ولغة المبرد امتازت بمتانتها وابن خلدون بطلاوتها ، فشوقي على ذلك تعجبه لغة المجودين من أمراء الصناعتين وإن كان لا يحسن استرسالهم إلى تكلف في سجع يرد الطبع كثيراً منه ، ولا يعجب بلغاء الكتاب المترسلين .

إن الشعر على مذهب شوقي لا يسمى شعراً ما لم يكن عاطفة وحكمة وذكرى ، فإذا ما نحن حللنا شعر ديوانه ، وأنعمنا النظر في أسلوب

تفكيره وبيانه، حكمنا بأن ذكراه وعاطفته الذائبة في شعره الوجداني قد قويتا فيه بتأثره بشعر أبي تمام والرضي وابن الرومي والبحتري وبشار ومهيار وأضرابهم ، وأن حكمته التي أكثر منها في شعره وكثيراً من أساليب بيانه قد احتذى فيها طريقة أستاذه الأول أبي الطيب ، كما قال في حكمة الشعر :

والشعر مالم يكن ذكرى وعاطفة   أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

ومن الأمثال الدالة على تأثير المتنبي في أسلوب شوقي قوله مثلاً :

ولا تبال بشعر بعد شاعره   قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وشوقي يقول محتذياً أستاذه :

ولا تبال بكنز بعد مبسمه   أغلى اليواقيت ما أعطيت والدرر

والمتنبي يقول في ابن العميد :

عربي لسانه فلسفي   رأيه فارسية أعياده

وتلميذه شوقي يقول في الخديوى سعيد :

عربي زمانه عمري   عهده فيه رحمة ووفاء

وانظر إلى قول شوقي في حور دمر والهامة :

والحور في دمر أو حول هامتها   حور كواشف عن ساق وولدان

تجد أنه في تشبيهه الحور بالحور وقد كشفن عن ساق ينظر إلى قول مهيار في الأشجار :

وعزت فصانت سوى ساقها   وما إن أباحته إلا اضطرارا

تشمر عنه جلابيبهـا لعادته أن يخوض الغمارا

ثم انظر إلى تأثره بشعر المعري مثلاً :

لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنثات إماء

وأبو العلاء يقول من قبله :

للمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات إماء

وكذلك يقول شوقي :

ومهد المرء في أيدي الرواقي كنعش المرء بين النائحات

مثلما قال المعري من قبله :

وشبيه صوت النعيّ إذا قيـ س بصوت البشير في كل ناد

وألفت نظرك بعد ذلك كله إلى قول شوقي وهو يصف الأطلال المندثرة والرسوم المبعثرة :

فلا تستبين سوى قرية أجدُّ محاسنها ما اندثر

فتحسبه ينظر إلى قول أبي نوّاس في وصف الرسوم :

لمن دمنٌ تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم

ولا نـكران أن تأثر الشاعر بمن تقدمه من فحولة الشعر أمر طبيعي ، وقلما نجا منه أحد من رواض القوافي ، بيد أن من التأثر ما يبعث إليه التقليد والتقديس مما لا يدعو إليه مقتضى حال ، ولا يولده صدق عاطفة ، وهو ما يجب أن يتخلى منه الشعر المعبر عن الشعور ، ولولا مثل هذا التقليد الناشئ عن تقديسه لأساليب الجاهلية لجبّ عن

نفسه غيبة من تهجم عليه من المجددين ، ولأضعف من حجتهم عليه وإن كان فيها كثير من روح التحامل، فما انتقد عليه قوله :

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

قالوا : لقد كان بإمكانه أن يشبب بريم مصري يرتع بين الجيزة وحلوان أو النيل والأهرام فيقول مثلاً :

ريم على المرج بين النيل والهرم   أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ولكنه جرى تقليداً على أسلوب من سبقه من شعراء الجاهلية الذين كانوا يتغزلون بما يعرفون في جزيرة العرب وما يشاهدونه ويشعرون به ، وأما من ترسم آثارهم من التابعين فأية علاقة لهم بالبان والعلم وكاظمة وذي سلم ، والروحاء ودارة العلم ، وأي ذكرى تهيجهم لذكرها ووصفها ، فإن قلنا لهم إن شوقي ما تشوق إلى البان والعلم – وهو في هذا الموطن صحيح – إلا لاتصال هذين الموضعين بمدينة النبي العربي المبين ، قالوا : فما باله إذن لا يترك مثل هذا التشبيب في قصيدة يقولها في مشروع ملنر :

اثن عنان القلب واسلم به   من ربرب الرمل ومن سربه

وما باله يقول في قصيدة أخرى أنشدت في حفلة تكريم لمعتقلين يخرجون من السجن :

يحدجن بالحدق الحواسد دمية   كظباء وجرة مقلتين وجيدا

مقلداً في ذلك قول امرئ القيس وبينهما ما بينهما من القرون :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل

ألا سمعت ما قاله القاضي في وساطته : (ولا تلتفتن إلى ما يقوله المعنويون في وجرة وجاسم ، فإنما يطلب به بعضهم الإغراب على بعض ، وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً عن وحش ضرية وغزلان بسيطة ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، وأما العيون فقل أن تختلف لذلك)

وهذا لايمنع أن شوقياً كان واقفاً على أسرار العربية عارفاً بفرائدها الفصحى ، مميزاً بين معسولها ومرذولها ، وأنه كان لايستعمل الوحشي الغريب إلا إذا عز وجود الإنسي القريب ولم يقم مقامه في دقة التعبير وفي وضوح الدلالة والإشارة ، وكثيراً ما تجيئه للغريب المهجور ضرورة القافية كالقنا المشتجر ، وأقام الصعر ، والخميس الدثر أو ما هو أغرب من ذلك كجرضي وحضوضي والبوغاء بمعنى التراب والعماء بمعنى السحاب وهلم جراً ، ولعله لولا طول نفس القافية في طويلاته التي يختلف عدد الواحدة منهن ما بين مائة وثلاثمائة بيت تقريباً ، لولا ذلك لما اضطر إلى استعمال غريب القوافي المهجور ، وترك القريب الحبيب المشهور ، نعم إن من الموضوعات مايلجئ الشاعر بطبيعته إلى الإسهاب ، وإنه ما زالت الصلة بالشعر القديم وثيقة العرى ، غير أن الخلود في الشعر بهذا العصر لا يكتب إلا للقصائد التي لا يلجأ فيها الشاعر إلى التعمل

والضرائر ؛ على أن له من القصائد الخالدة لامتيازها بألفاظها المتخـيرة ومعانيها العلوية وعواطفها المتأججة ما يتغنى به العاشق الشاكي والصندوق الحاكي في الشوارع والمجامع .

وفي لغة شوقي مفردات عامية كان يتجوز في استعمالها إيثاراً لوضوح الدلالة ، وماذا كان عليه لو نقى لغته من أمثال طار بمعنى إطار الواردة في قوله يصف قرص الشمس طالعاً :

فسمت فكانت نصف طار مابدا   حتى أناف فلاح طاراً أكبرا

إذ لم ترد طار في الفصحى بمعنى إطار الذي هو حلقة الشيء وما أحاط به ومنه إطار الدف والمنخل ، وإطار البيت كالمنطقة حوله ؛ ومنها فعل حرق بمعنى أضرم فيه النار إذ لم يرد بهذا المعنى متعدياً إلا بالهمزة . ومنها لفظة المعية بمعنى الحاشية والبطانة في قوله :

قامت السراة به   والمعية النجب

فإن البطانة تحل محل المعية ويستقيم الوزن معها ، والمعية من مصطلح النحو بمعنى المصاحبة وأما استعمالها بمعنى البطانة فمن المصطلحات التركية لا العربية، وفي استعمالها التباس ينافي التخصيص ولا حاجة في التعبير إليها .

بيد أن من الألفاظ العامية ما يحتاج إليها لعروبة مادتها ورشاقة صيغتها، ولعدم ما يقوم مقامها كلفظه مرفع بمعنى كرنفال ، فقد استعملها شوقي في قوله يخاطب النفس :

كم بنت فيه و كم خفيت كأنه   ثوب الممثل أو لباس المرفع

وإذا نحن أبينا أن نستعملها فقد حجرنا واسعاً وحملتنا الحاجة إلى استعمال « كرنفال » ، كما أنا لو لم نستعمل جريدة لاضطررنا إلى استعمال « جورنال » .

هذا وقد امتاز بما وفق إليه من حسن استعمال الأعلام الأعجمية مع المحافظة على رنة الشعر الموسيقية ، فتسمعه في مطلع قصيدة «طوكيو» التي وصف بها نكبة اليابان بزلزالها يقول :

قف بطوكيو وطف على يوكوهامه وسل القريتين كيف القيامه

وتصغي إليه في قصيدة أخرى يخاطب اللورد كرومر :

هل من نداك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا

فتجد للفظة الأعجمية في هذا البيت مع بشاعتها حسن الشيء يحل محله، ثم يذكر لك وزيرين انكليزيين ومدينة انكليزية في بيت واحد وهو :

واحمل بساقك ربطة في لندن واخلف هناك غراي أو كمبيلا

ومع أن الإكثار في الشعر من الألفاظ والأعلام الأعجمية الثقيلة مما ينافي لغة الشعر وسلاسته ، وهي أجمل حلاه ، ويجافي رنته الموسيقية وهي نشوة طلاه ، نجد الشاعر بحسن تصرفه وتأتيه وتلطفه يكاد يعرب لنا تلك الطمطمانية حتى نسيغها ، من ذلك التلطف قوله :

أأم المالكين بني أمون ليهنك أنهم نزعوا أمونا

ولدت له المآمين الدواهي ولم تلدي له قط الأمينا

ومن هذه القوافي التي أحكم وضعها قوله :

لك الأصل الذي نبتت عليه فروع المجد من (كرنارفونا)
خليليّ اهبطا الوادي وميلا إلى غرف الشموس الغاربينا
وخصا بالعمار وبالتحـايا رفات المجد من (توتنخمينا)

وله من التعابير ما اختص بها ، أو أحياها وأذاعها بشعره كقوله في دمشقيته المشهورة :

و (للحرية الحمرآء) باب بكل يد مضرجة يدق

وأعاد (الحرية الحمرآء) في قصيدة أخرى بقوله :

لابد (للحريةالحمرآء) من سلوى ترقد جرحها كالبلسم

وأورد هذا التعبير والحرية موصوفة بوصف آخر في قوله :

سلوا (الحرية الزهرآء) عنا وعنكم هل أذاقتنا الوصالا

فهذا التعبير ممـا اقتبسه شوقي من أستاذه الأول أبي الطيب ، وله فضل إذاعته ، فقد قال المتنبي يصف الحدث بالحمرآء لانصباغها بالدمآء :

هل الحدث الحمرآء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمائم

ومن تعابيره الشوقية المبتدعة قوله : (العلم بدريّ) فإنه نسب العلم إلي بدر مشيراً إلى الأثر القائل : (إن أهل بدر مغفور لهم هفواتهم) :

والعلم بدريّ أحل لأهله ما يصنعون

ومنها كليوباترة المكابد ، وإيزيس الندى ، وعيسى الشعور ، وعمرو الأمور ، ونعته لأبى الهول بديدبان القدر أي حارسه ورقيبه ، وأمثالها

« ذكرى ٢٦ »

كثيرة في شعره ،وآخر ما صنع من ذلك تلقيبه لصديقه حافظ بحافظ الفصحى .

ومن المفردات التي يظن إن شوقياً أول من استعملها ونشرها الفظة (مثال) أطلقها على نحات التماثيل وصناعته (المثالة) ولم تنتشر هذه الكلمة إلا بدافع الحاجة إليها ، ولا كتب لها البقآء إلا بمقتضى ناموس بقآء الأصلح ، ونحن أحوج ما نكون في هذا العصر إلى أمثال هذه المفردات المخصصة التي تعين على التدقيق في التعبير العربي، وقد أحياها أو أذاعها شوقي باستعمالها ، واللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالإهمال ، ومن أحق من الشاعر النابغة أو الكاتب البليغ بالأخذ بناصر اللغة بما يحييه أو يذيعه من مفرداتها ؟

وهذا لا يمنع اللغوي الضليع كشوقي أن يسجد في محراب اللغة سجدة السهو كقوله في أسواق الذهب يتحدث عن التزوج باثنتين : وإن التيس لو عقل ما اتخذ نعجتين ، فكيف يتزوج الفقير العاقل باثنتين، والصواب أن يقول: ما اتخذ عنزتين ، إذ التيس ذكر المعزى لا الضأن الذي يطلق الكبش على ذكره والنعجة على أنثاه .

وتنقحت لغة شوقي ورقت عبارته وازداد شعره رصانة وانسجاماً ، وأين قوله أيام كان يخشب الشعر :

كم ياجماد قساوة ... كم هكذا أبداً جحود

نطوي إليك دجى الليا ... لي والدجى عنا يذود

من قوله أيام تنقيحه وتهذيبه :

الله في الخلق من صبٍّ ومن عاني تفنى القلوب ويبقى قلبكِ الجاني
صوني جمالك عنا إننـــا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني

وأما لغة مطالع قصائده فمنها الركيك بمعناه ومبناه كقوله مثلاً :

يابارك الله في الدنيا بعباس وبارك الله في عمات عباس

ونحن إذا جارينا في هذا البيت من انتقد مطالع شوقي ، لا نجاريه في النقد على إطلاقه فإن لشوقي من المطالع ما يعد من الروائع كقوله مثلاً :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي هذه المحاسن ما خلقن لبرقع
قلب يذوب ومدمـــع يجري ياليل هل خبر عن الفجر
بالله يانسمات النيل في السحر هل عندكن عن الأحباب من خبر
يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينـــا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وقد يستعين الإنسان لتوضيح عبارته بالتشبيه ولا يستغني عنه أحد من العامة ولا الخاصة ، والأصل الذي يعتمد عليه فيه أن يشبه المتكلم المجهول بالمعلوم لدى المخاطب ، فإذا انعكست القضيـــة خفي المقصود وهو المشبه على المشبه له ، وبذلك يكون التشبيه ركناً خطيراً من أركان البيان ، وعوناً مليباً للمصور الواصف ، ولكن التشبيه قد خرج في عصور انحطاط البيان العربي عن محوره ، وبعد عن غايته ، وأصبح مطمح الشاعر ومسمى خياله أن يشبه شكلاً بشكل ولوناً بلون وطولاً بطول ، وإن لم يكن وجه الشبه واضح الملامح ، لأن المشبه لم يقصد في

محاكاته تصويراً ولا تبييناً ، وإنما أراد تزويقاً وتحسيناً ، وبذلك لم يصبح التشبيه من أركان البيان بل أمسى من محسنات البديع اللفظية ، وقد انتبه الشاعر إلى ذلك فأنقذ كثيراً من شعره وشفاه من هذه العلة وهـذا النوع من العيّ والحصر ، وإذا أردت مصداق ذلك فانظر مثلاً إلى ذلك التصوير البارع في التشبية التالي :

بِنّا فلم نخلُ من رَوح يراوحنا   من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا   وباسمه ذهبت في اليَم تلقينا
ومصر كالكرم ذي الإحسان فاكهة   لحاضرين وأكواب لبادينا

ومنها :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا   ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق   إذا تلوّن كالحرباء شانينا

وأنعم النظر في تشبيهه للحمام الأسود المغرّد بالراهبات المرتلات في سود الجلابيب ، وتأمل ما في ذلك من جمال البيان ولطف المحاكاة :

بيض القلانس في سواد جلابب   حلين بالأطواق والأوضاح
رتلن في أوراقهن ملاحناً   كالراهبات صبيحة الإفصاح
يخطرن بين أرائك ومنابر   في هيكل من سندس فياح

وإذا جردت بقوة مخيلتك ما في البيتين التاليين من صورة دقيقة واضحة ، شهدت بما للتشبيه الصادق من قوة التصوير وبلاغة التعبير :

وترى الفضاء كحائط من مرمر   نضدت عليه بدائع الألواح

الغيم فيه كالنعام بديئة بركت وأخرى حلقت بجناح
وجرت سواقٍ كالنوادب في القرى رعن الشجي بأنة ونواح
الشاكيات وما عرفن صبابة الباكيات بدمع سحاح
من كل بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح
تبكي إذا ونيت وتضحك إن هفت كالعيس بين تنشط ورزاح
هي في السلاسل والغلول وجارها أعمى ينوء بنيره الفداح

اللغة المجازية في شعر شوقي . — لا نكران أن لغة الحقيقة في كلام أمير الشعراء هي لغة الشعر الرقيقة المنسجمة ، المنخلة الألفاظ ، المتقنة التركيب ، ومَن أحق منه بالاهتداء إلى كرائم الألفاظ ورقائق العبارات ؟ فقد آخى في شعره بين فصاحة اللفظ وبلاغة القول في سلك بيان ناصع ، ترافقه رنة موسيقية علوية أشبه شيء بالرنة البحترية ، وأما لغة شوقي المجازية فغالبة على بيانه ، وقلما خلت جملة أبيات منها، والظاهر أن الاستعارة بأنواعها متغلبة على المجاز العقلي والكنايات في شعره ، ولأمرٍ ما ولعت العرب بالمجاز لما فيه من قوة التصوير وفخامة التعبير مع الإيجاز ، ولما يحصل به للنفس من أريحية مما يدل على ميل بالعرب إلى اتساع الكلام ، وإن التفنن في وجوه التعبير نتيجة لازمة لقوة التصوير والتفكير ، وقديماً كان الإنسان إذا عجز في الكتابة عن التعبير بالرموز الحرفية يلجأ إلى رموز الصور مستعيناً بوضوح دلالتها ، فالتصوير الخطي والبياني من أقوى وسائل التعبير .

ومن مجازاته العقلية قوله في مطلع نهج البردة :

(ريم) على القاع بين البان والعلم	أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم	رمى القضاء بعيني (جوذر) (أسداً)

استعاراته . — أما الاستعارة المبنية على التشبيه فكأنها ما غلبت على لغة شوقي إلا لاعتقاده بأنها أبلغ من المجاز العقلي لما بين طرفي الاستعارة من المناسبة القوية والمبالغة التي تجيز لك أن تسمي الشيء بغير اسمه وتبلغ بهما حد الاتحاد، ولولا القرينة الدالة على مرادك لما انتبه المخاطب إلى غير المفهوم من العبارة ، وإنك لترى الاستعارات البليغة بأنواعها فيما سنورده على سبيل المثال فمنها قوله :

القاتلات بأجفان بها سقم	وللمنية أسباب من السقم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً	أشكاله وهو فرد غير منقسم
دقات قلب المرء قائلة له	إن الحياة دقائق وثواني
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت	كنانة الله حزماً يقطع الذنبا
يتمشى القضاء خلف نواهيـ	ـك حديد الأظفار يطلب صيدا
قصد الدهر منك ركن المعالي	ورمى طودها الذي كان طودا .
قف ناج أهرام الجلال وناد	هل من بُناتك مجلس أو ناد

كناياته . — وقد أولع بالكناية لأنها من أبلغ ضروب المجاز بقوة تأكيدها وبيان تعبيرها ، بل جعلها البيانيون أبلغ من المجاز لأن دعوى الكناية مؤيدة بالبرهان ، ودعوى الاستعارة لا دليل عليها ، ومن

كناياته البليغة وهي كثيرة قوله :

فدع كل طاغية للزمان فإن الزمان (يقيم الصعر)

رفقاً بجفن كلما أبكيته سال (العقيق) به وقام الماء

وبين الهوى والعدل للقلب موقف تخالك بين السيف (والنار) ثاويا

وبيان كما تجلى على الرسـ ـل تجلى على (رعاة الضال)

ومن جناساته التي شغف بها قوله :

و(سلا) مصر هل (سلا) القلب عنها أو (أسا) جرحه الزمان (المؤسي)

يا قصوراً نظرتها وهي (تقضي) فسكبت الدموع والحق (يقضى)

(زار) والحرب بين جفني ونومي قد أعد الدجى لها (أوزارا)

ما لرب الجمال (جار) على القلـ ـب كأن لم يكن له القلب (جارا)

ومن المطابقة في هذه القصيدة والطباق من محسنات البديع المعنوية التي يزين بها شوقي لغته كثيراً — قوله :

يا ليالي لم أجدك (طوالاً) بعد ليلى ولم أجدك (قصارا)

إن من يحمل الخطوب (كباراً) لا يبالي بحملهن (صغارا)

وقوله :

وبي رشأ قد كان دنياي (حاضراً) فغادرني أشتاق دنياي (نائياً)

وفي هذا البيت (إيهام المطابقة) فإن النائي ليس بضد الحاضر وإنما يوهم بلفظه أنه ضد ، ومثله قول دعبل ٠

لا تعجبي يا سلم من رجل (ضحك) المشيب برأسه (فبكي)

ومن مطابقته الرائعة ويسمى طباق المقابلة قوله :

وكلن بالألحاظ (مرضى) (كليلة) فكانت (صحاحاً) في القلوب (مواضيا)

ومن محسنات شوقي المعنوية أيضاً (الاستخدام) أي ذكر لفظ بمعنى وإعادة ضمير عليه بمعنى آخر كقول البحتري :

فسقى الغضا والساكنيه وإنهم شبوه بين جوانح وقلوب

ومثله قول شوقي في إيزيس وهو القمر عند قدماء المصريين وإحدى معبوداتهم سميت باسمه :

تضيء على صفحات السما ء وتشرق في الأرض منها الحُجر

ومنها (الجمع مع التفريق) كقول البحتري :

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجب رائي الدر منا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

ومثله قوله في مخاطبة الحمام :

أراك يمانياً ومصر خميلتي كلانا غريب نازح الدار موجع

هما اثنان : دان في التغرب آمن ونآء على قرب الديار مروّع

ومن محسناته (التصريع) وهو استوآء آخر جزء في صدر البيت وآخر جزء في عجزه في الوزن والروي والإعراب وهو أليق ما يكون بمطالع القصائد ، وفي وسطها ربما يمجه الذوق وينبو السمع عنه ، ومعظم مطالع شوقي مصرعة وقد تجده في أوساط قصائده أيضاً مع انسجـام ورنة موسيقية يستعذبه الذوق ولا ينبو عنه السمع لأنه وليد الطبع كقوله:

لك أن تلوموني من الأعذار ـــ أن الهوى قدرٌ من الأقدار

ومن الترصيع المستحسن في الوسط قوله من قصيدته الأندلسية التي مطلعها:

اختلاف النهار والليل ينسي ـــ اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وفي وسطها يقول :

في ديار من الخلائف دَرسٍ ـــ ومنار من الطوائف طَمس

وكل ذلك ما كان ليحط من منزلة أمير الشعراء أو ليدق من خطره وهو القابض على ناصية البلاغة في شعره الخالد ، والملقن ما يحاوله ، والمحدث بما في نفسك ، وقد وقف على أسرار العربية وشغف بسواحرها شغفاً جعله يتغنى بعربيته وعروبته ، غافلاً عن جنسيته وأرومته ، فمن تغنيه بعروبته قوله وفيه من محسنات البديع الاكتفاء :

تسأل أترابها ـــ مومئة بالعنم

أيّ فتى ذلكن ـــ العربي العلم ؟

قلن تجاهلته ـــ ذلك رب القلم

شاعر مصر الذي ـــ لو خفي النجم لم

ومن تغريده في عربيته وهيامه بمحاسنها الأدبية ومزاياها العلمية قوله :

إن للفصحى زماماً ويداً ـــ تجنب السهل وتقتاد الصعابا

لغة الذكر لسان المجتبى ـــ كيف تعيا بالمنادين جوابا

كل عصر دارها إن صادفت ـــ منزلاً رحباً وأهلاً وجنابا

ائت بالعمران روضاً يانعاً ـــ وادعهـا تجرِ ينابيع عذابا

لا تجئها بالمتاع المقتنى ... سرقاً من كل قوم ونهابا

سل بها أندلساً هل قصرت ... دون مضمار العلى حين أهابا

غرست في كل ترب أعجم ... فزكت أصلاً كما طابت نصابا

ومشت مشيتها لم ترتكب ... غير رجليها ولم تحجل غرابا

ومنه قوله :

إن الذي ملأ اللغات محاسناً ... جعل الجمال وسره في الضاد

دمشق ... عز الدين التنوخي

شـــــوقي

.. في يوم ٢١ يوليو (تموز) مات إمام الشعراء حافظ إبراهيم ، وكنت يومئذ بلبنان ، وأمس الأول توفي أمير الشعراء شوقي بك ، وكنت بالريف بعيداً عن القاهرة ، وكان حافظ لي صديقاً وفياً لم يغير الزمن ما بيني وبينه من صداقة ، وكان شوقي لي صديقاً ربط الزمن بيني وبينه بخير أواصر الصداقة سنين متوالية ، فكنت ألقاه كل نهار أو أكاد ؛ وكنت أمضي وإياه الساعات الأخيرة من كل أمسية بعد أن يخرج هو من السنما وأخرج أنا من عملي (بالسياسة) ؛ ثم عدا الزمن على صداقتنا وباعدت الأحداث ما بيننا ؛ فلم أره في السنوات الثلاث الأخيرة إلا لأعوده في مرض ، أو لأقدم إليه بعض كتبي ؛ مع ذلك هوى الحزن بقلبي حين علمت بموته إثر عودتي من الريف صبح أمس كما هوى بقلبي حين علمت بموت صديقي الوفي حافظ إبراهيم وأنا في ربوع لبنان ؛ ورأيتني من خبر فاجعة مصر بشوقي أقف ذاهلاً أفكر كما وقفت ذاهلاً أفكر حين فجعني الناعي بنعي حافظ . وقفت ذاهلاً أفكر في مسألة ليست مسألة شوقي ولا مسألة حافظ ، ولكنها مسألة هذا الوجود كله نتخطى في فنائه الفسيح لا نهاية في الزمن وفي المكان لفسحته على هذا الدهليز الضيق الذي نسميه الحياة والذي يتشبث به

بعضنا حتى ليحسبه أمسك ناصيته ووقف منه على قرن الخلود، ثم إذا هو ينحدر كغيره في هاوية الموت ؛ ويذكر آخرون أنه دهليز يعبرون أثناءه من ناحية من نواحي الوجود إلى ناحية أخرى فيسلمون لبارئ الوجود أنفسهم يقضون فرضه ويفعل بهم ماشاء حتى يختارهم إلى جواره لم يفكر أحدهم في أنه قبض بكفيه على ناصية الزمن أو أنه وقف على قرن الخلود ، وهم مع ذلك ليسوا أقل على الحياة من الأولين عزًّا وقد يكونون أكثر منهم في الحياة سعادة .

ونزلت من فوق هذه القمة من شواهق التفكير إلى عالمنا المحسوس .
مات حافظ ومات شوقي . مات هذان الإمامان من أئمة الشعر والعلمان من أعلامه ، مات أولهما في بيت صغير بضاحية الزيتون من ضواحي القاهرة لم يكن يعرفه إلاّ أصدقاؤه وأخص الحريصين على الاتصال به . ومات ثانيهما في قصره المنيف على النيل بالجيزة ، في هذا القصر الذي أمه الكبراء كما أموا من قبل قصره في المطرية على مقربة من الزيتون . ومع ذلك فجع عالم الشعر في الرجلين على سواء . ذلك بأن العالم يفجع في الرجال ولا يفجع في الأموال؛ يفجع في الأرواح ولا يفجع في القصور ولا في الأكواخ . والتاريخ وحده هو الذي يقيس بعد أن يزن بالقسط مقدار الفجيعة في رجولة الرجل وفي سمو الروح ؛ والتاريخ وحده هو الذي يجزي بعد ذلك بما يخلع عن الذكر من بقاء ؛ وعلى أحدوثة صاحب الذكر من جمال وبهاء .

ووقفت من بعدُ أذكر شوقي . أذكر هذا الذي غادرنا أمس الأول وما يزال فيض إنتاجه الشعري جياشاً بالثمرات يلقيها إلى الوجود عاماً بعد عام ، وحادثاً في أثر حادث . وقفت أذكر شوقي وبدء معرفتي به واتصالي بشعره . وسرعان ما ذكرت أني كنت بشعر حافظ وبشخصه أسبق اتصالاً . وحاولت أن أكشف في نفسي عن السبب في هـذا فحسبته في أنني شببت منذ نشأتي مصرياً ، وشببت منذ نشأتي فلاحاً ، وانغرس في نفسي منذ بدء الصبا كره متأصل للذين ظلموا مصر وعبثوا بحقها ، أفراداً كانوا أو أمماً ودولاً ، ونشأت لذلك وفي نفسي ثورة على شعر المديح كله وإيمان بأنه شعر استجداء غير خليق بنفس تحترم ذاتهـا وتؤمن بأن الله وحده بارئها ومجتبيها . وما أذكر أني استظهرت في صباي وشبابي قصيدة مدح واحدة إلا ما ألقي علينا أثناء الطلب استظهاره ، وما أذكر أني وقفت عند قصيدة من المديح أتلوها لأعجب منها بما قد يكون فيها من عليا فنون الشعر . وكان شوقي في أول شبابه أمير الشعراء لأنه كان شاعر الأمير فكانت هذه الثورة تحول بيني وبين قراءة شعره ، كما أني لم أقرأ من شعر حافظ مديحه في عباس أو في عبد الحميد وإنما كانت تهزني منه أمثال هذه الأبيات يخاطب بها اللورد كرومر :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت	حواشيه حتى بات ظلماً منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى	وأن أصبح المصري حراً منعما
أعد عهد إسماعيل جلداً وسخرة	فإني رأيت المن أنكى وآلما

حملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتمُ طيناً وأرخصتمُ دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السما

لهذه الحال النفسية ظللت على مقاطعة شوقي وشعره إلى سنة ١٩١٠ حين كنت أطلب العلم بباريس . في أواخر هذا العام أو في أوائل سنة ١٩١١ مات كاتب روسيا وفيلسوفها الكبير يومئذ : ليوتلستوي . وفي عقب وفاته كتب أستاذنا الكبير لطفي بك السيد ، وكان يومئذ مدير الجريدة ، مقالاً عنوانه : (مات الرجل) ينعيه فيه إلى مصر وإلى العالم العربي كله ؛ وأثار هذا المقال نفس شوقي فكتب في رثاء تلستوي قصيدة تلوتها وأعدت تلاوتها وأنا عاكف عن تناول القهوة بعد طعام الغداء في ركن سحيق من أركان أحد مقاهي الحي اللاتيني .

تلستوى تذري آية العلم دمعها عليك ويبكي بائس وفقير
وشعب ضعيف الركن هد نصيره وما كل يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون كنت ملاذهم وأنت سراج غيبوه منير

وبعد وصف قوي بديع لتلستوي ولفلسفته ولإيثاره واشتراكيته حديث عن الحياة والموت وعبرتهما يجري بين كاتب روسيا وفيلسوف المعرة وقد أصبح كلاهما رهن محبس القبر . ما هذا ؟ ! هذا جديد من شوقي ، وهذا عظيم حقاً . أتستطيع هذه المعاني القوية العظيمة الباقية على الزمن بقاء الزمن أن تنفذ إلى نفس شاعر بلاط . وازددت للقصيدة ولشوقي إكباراً حين وافتني (الجريدة) بعد ذلك بثلاثة أيام أو أربعة

بقصيدة لحافظ في رثاء تلستوي فيها المعاني التي كتب شوقي والتي سبق إليها لطفي السيد وفيهـا مطلع لم يعجبني لأني شعرت فيه بالاستهانة بالنفس ، هذا المطلع قوله :

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى　　لمدحك من كتاب مصر كبير
ولست أبالي حين أرثيك بعده　　إذا قيل عني قد رثاه صغير

ومع ما في كثير من أبيات هذه القصيدة من قصائد حافظ من جمال فإني أنكرت عليه يومئذ هذه المجاراة لشوقي في البحر والقافية والمعاني والتصوير . وكان حافظ يقول لي دائماً حين أذكر له هذا : (دع هذه القصيدة من شعري ومثيلتها من شعر شوقي وخذ أي قصيدتين نظمتا في موضوع واحد ولك الحكم) . ولست اليوم في موقف الحكم في الشعر وما أحسبني كنته أو سأكونه يوماً ما . وإنمـا أوردت هذا على أنه أول اتصالي بشعر شوقي اتصالاً زاد بعد ذلك على الأيام وجعلني أقدر في الرجل عبقرية آتت خير الثمرات ، وكانت جديرة بأن نؤتي خيراً منها لولا ظروف حياة شوقي ولولا البيئة التي أحاطت به مما سنعرض من بعد له ونتدلل عليه .

وعدت من أوربا في سنة ١٩١٢ وأنا أتوق لمعرفة هذا الرجل كما كنت أعرف حافظاً . وعرفته وجلست وإياه في فندق الكونتننتال وفي غير فندق الكونتننتال ولكن من غير أن تزداد المعرفة بيننا إلى حد الخلطة . وقد كان ذلك راجعاً من ناحية إلى نوع حياته ونوع حياتي

ومن الاخرى إلى ما في نفسي من حب الانكماش وإلى ماقدمت من اعتبارات تباعد دائماً بيني وبين الذين يقومون بالأمر في مصر . وقد كان شوقي يومئذ من هؤلاء ومن أقوامهم ومن أنفذهم كلمة وأعظمهم سلطاناً . ألم يكن القريب من الخديو السابق عباس الثاني ؟ والقرب من الخديو هو صاحب الأمر والنهي، إليه يضرع الوزير ويضرع صاحب الحاجة وطالب الجاه والطامع في مجد الألقاب والرتب . بل لقد كان الوزير في مصر صورة قليلاً عملها إلا أن يكون وزيراً ممتازاً ، وكان أصح ما يصدق في وصف الوزرآء قوم المرحوم حافظ إبراهيم :

رجائي في قومي ضعيف كأنه جَنان وزير سودته مناصبه

فطبيعي وقد كان شوقي شاعر الأمير وصاحب الحظوة الكبرى عنده، وقد كان الأمير صاحب سلطان لا يحد منه إلا نفوذ ممثل انكلترا وفي ظروف معينة ، أن لا تتفق حياته وحياة شاب مايزال في بدء الحياة كما كنت يومئذ . ولم تطل ظروف ترددي في ربط أواصر الصلة بيني وبين شوقي أن اشتغلت بالمحاماة في المنصورة وأن بقيت بها إلى سنة ١٩١٩ .

في هذه الفترة أعلنت الحرب الكبرى وأعلنت انكلترا حمايتها على مصر ونزعت عباساً من العرش وأحلت فيه المغفور له السلطان حسين كامل . وقد تردد شوقي يومئذ بين الوفآء لعباس والولآء لعائلة محمد علي تردداً ظاهراً في قصيدته التي يقول فيها :

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا

ذالتي يتحدث فيها عن الحرب وعن الحماية وعن عباس وعن عمه و يشير فيها إلى أن (الرواية لم تتم فصولاً) . ولم ترض هذه القصيدة أصحاب العهد الجديد فأخذ شوقي وأبناؤه ونُفوا إلى اسبانيا حيث بقوا بها من أوائل سنة ١٩١٥ إلى أواخر سنة ١٩١٩ أو أوائل سنة ١٩٢٠ ولقد كان رحمه الله يذكر كما كان أبناؤه ولا يزالون يذكرون أن هذه الفترة كانت أهنأ فترات حياته . ولسنا نستطيع القول إن كان ذلك كان تقديره لها أثناء عيشه إياها أو أن هذا التقدير إنما جاء بعد أن عاد إلى مصر و بعد أن رأى فيها حياة غير حياته الأولى حين كان شاعر الأمير وصاحب الكلمة النافذة عنده وصاحب الرأي والتدبير في شؤون كثيرة كان لا يأبى أن يقص بعض قصصها في السنين الأخيرة . وفي الفترة التي قام شوقي في إسبانيا وفي السنوات التي أقامها بعدُ في مصر اتجهت شاعريته وجهة جديدة ؛ لكنها وجهة لم تكن مستقرة إلى غاية مقصودة حتى هاته السنوات الثلاثة الأخيرة حين بدأ بنـاء القصص الشعري المسرحي من غير أن يترك نواحي الشعر المختلفة التي كان من قبل هذه الفترة يتردد بينها .

من بعد أن عاد شوقي من إسبانيا بسنوات ثلاث ، و بعد إنشاء هذه الجريدة (السياسة) بدأت صلاتي وإياه تتوثق حتى بلغت حد الصداقة الخالصة لا تشوبها شائبة إلى سنة ١٩٢٧ حين أوحى إليه بعضهم على أثر إصدار عدد السياسة الأسبوعية الخاص بتكريمه لمناسبة الاحتفال

الذي أقيم له بدار الأوبرا في ١٩ ابريل من تلك السنة أن هذا العدد فيه من نقد شعره ما لم يكن يليق نشره في هذه الفرصة . على أن هذه السحابة مالبثت أن زالت وعادت علاقاتنا كما كانت إلى أوائل اكتوبر سنة ١٩٢٩ . ثم شاءت ظروف الحياة أن تباعد ما بيننا وإن رأيت واجباً له في غير ظرف أن أعوده . فما كنت لأنسى مجاملته إياي في أكثر من مناسبة ، وإن نسيت فلا أنسى مجاملته اياي في ظرف لا ينسى إنسان مجاملة صديق له فيه .

***

في هذه الظروف التي اتصل فيها ما بيني و بين شوقي استطعت أن أعود إلى شعره وأن أدرسه . ومكن لي من ذلك أنه حرص في الجزء الأول الذي طبعه أخيراً من ديوانه على أن توضع لهذا الجزء مقدمة ولم يأب علي أن أكتب هذه المقدمة . ومع أني جعلت هذه المقدمة دراسة لا مجرد تقريظ ؛ ودراسة في حدود مقدمة كتاب ينشره صاحبه؛ ومع أني أثناء هذه الدراسة أبديت آراء ليس من شأنها أن تروق شوقي ؛ فقد شفعت الصداقة وشفعت ثقته بحسن قصدي في نشرها وإن لم يخف عني رأيه مصوغاً في عبارة ظريفة . فقد كان يقول إن أصدقاءه يشهدون له بالتسامح وسعة الصدر بسبب نشره إياها في الديوان مع ما فيها مما لا يرضون . وقد سمحت لي هذه الدراسة وسمح لي اختصاصه السياسة بنشر قصائده إلى سنة ١٩٢٩ وما ظل بيننا من صلة الحسنى بعد ذلك إلى

حين وفاته أن أقدر عبقرية هذا الرجل كشاعر، وأن أقدر هذا الفيض العظيم الذي كان يصدر عنه وهذه الخصوبة المدهشة التي امتاز بها على غيره، وهذا الدأب العجيب على العمل دأباً لزمه إلى آخر أيامه. وما أشك اليوم ولا شككت يوماً أن شوقي كان شاعراً مطبوعاً، وأن ربة شعره كانت أقوى من شخصه حتى لقد كنت أقول له مداعباً في بعض الأحيان إنه لا فضل له في هذا الشعر إلا أن يكون للنيل فضل في فيضانه. لكنني لا أشك لحظة في أن الظروف التي أحاطت به والبيئة التي عاش فيها كان لهما من سوء الأثر على هذه العبقرية القوية ما جنى على الشعر جناية كبرى، هذا مع تقديري التام وشديد إعجابي بما في شعر شوقي الذي أنتج من روعة وجمال ومتانة ديباجة ورصانة عبارة وحسن تصوير. ومن هنا يجب أن ندرك جميعاً مدى الكارثة التي أنزلتها ظروف حياة شوقي والبيئة التي عاش فيها بالشعر العربي، كما يجب أن ندرك ما على الذين كانوا سبب هذه الكارثة من تبعة ثقيلة.

فقد ولد شوقي شاعراً وقال الشعر ناشئاً وشاباً ولعل شعر شبابه لم يكن ومئذ عذباً رصين العبارة، لكنك تحس أنه كان يجد في كل مظهر ن مظاهر الحياة ميداناً للشعر. كانت لا تعجبه الساعة التي يحمل فيقول

لي ساعة من معدن لا يقتنيها مقتن
تعجل دقاً وتني مثل فؤاد المدمن

الخ الخ ...

و كان يرى في قطة تعبث وفي طفل صغير وفي كل ما حوله من مظاهر الحياة والطبيعة ملهماً للشعر وقوله . عاش في باريس ورأى الحياة والحب وعبثهما بالناس فيها فقال في ذلك كثيراً عبثت به يد الزمن أو عبثت به يده هو حين رأى في مكانته من الأمير ما لا يصح معه نشر هذا الشعر . وهو في هذا الطور الأول من أطوار حياته كان شاعر الشباب وشاعر الحياة القوية الحرة المتدفقة بفيض المشاعر والإحساس . وقصيدته :

حف كاسها الحبب فهي فضة ذهب

تدل على ما كان يجول بخاطره من هذا . لكنه ما لبث أن عاد واتصل بالخديو السابق عباس وعمل في القصر وأصبح شاعر الأمير حتى أثقلت قيود منصبه ربة شعره ، وحتى تحددت دائرة خياله بحدود القصر وصاحبه فعيد الجلوس مقبل فيجب أن يقول قصيدة يمدح فيها الخديو وجلوسه على أريكة مصر ، وعيد الميلاد مقبل فيجب أن يقول قصيدة يمدح بها الخديو وطالع السعد بميلاده ، والخديو معتزم الحج فيجب أن يقول في عباس وصحبه وابتهاج بيت الله وقبر نبيه بزيارة عباس إياهما . وعباس كان في نزاع مستمر مع لورد كرومر ممثل إنكلترا في مصر فلا مفر له من استمداد العون من السلطان عبد الحميد متبوع مصر الأعظم . يجب على شاعر الأمير أن يكون إذن شاعر الخليفة ويجب عليه في كل مناسبة تقتضي استمطار رضى الخليفة وعطفه ، وفي كل مناسبة بقاء

هذا الرضى أن يقول شعراً . طبيعي لمن كانت هذه ظروفه أن يوجه عبقريته في طريق ضيق محفوف بالأشواك وأن يخضعها إلى ما يرى فرضاً عليه لأميره أن تخضع له ، والعبقرية شيطان ثائر لا يعرف الحدود ولا يعرف الآفاق الضيقة . فإذا أنت حبسته في هذه الآفاق والحدود كنت كمن يحبس البلبل في قفص ولو من ذهب ، يبقى البلبل بلبلاً ، لكن صوته ، لكن شدوه ، لكن الأنغام القدسية التي يلقيها من أعلى سمواته حين يكون حراً طليقاً ، هذا كله يصبح شيئاً آخر له من غير ريب جماله ، لكنه ليس عبقرية الطبيعة متجلية في هذا الصوت الملائكي العذب الذي يبعث إلى السموات والأرض أناشيد النعمة والسعادة

أضف إلى ذلك ما أحاطت ظروف القصر والبلاط شوقي به من بيئة . كم من عشرات الملقين ومئاتهم كانوا يتناثرون حوله في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ؟ كم من أصحاب الحاجات ومدبري المناورات كانوا يتصلون به ؟ والأوامر التي يصدرها الخديو لتنفذ كم كان يقتضي تنفيذها من تفكير وجهد ؟ والشاعر ككل رجل من رجال الفن سمو إبداعه في ساعات فراغه . في الساعات التي لا يعرف فيها أميراً ولا حقيراً والتي لا يشغله فيها من شؤون هذه الحياة شاغل . في الساعات التي تكون نفسه فيها طليقة تحلق من أجواء الحياة في الجو الذي تريد ، تستدر الرحمة على الجدير بها والنقمة على من تراه يستحقها، أرضت بذلك الآلهة أو أغضبت الشياطين . وهذا كله لم تكن لتيسره

البيئة التي يعيش فيها شوقي – بيئة القصر والبلاط – لذلك كان طبيعياً أن يلجأ إلى ما يرفه عن شاعريته ويخفف العبء عن عبقريته .

ولا ملجأ أقرب ورداً لبلوغ هذه الغاية من معارضة الأقدمين . وإلى هذا الركن لجأ شوقي . ومن هذا الورد نهل . وأشهد لقد أجاد وابتدع وما كان للعبقرية مهما حبست أن لا ينفذ إلى الحياة من سجنها شعاعها . لكن شتان بين هذا الشعاع وبين ثمرات العبقرية الحرة الطليقة . على أنه : رب ضارة نافعة : كما يقولون . فقد طوع هذا السجن لشوقي أن ينهض بعبء جديد ما نحسبه كان ينهض به لو أنه ترك طليقاً وتركت عبقريته تحلق فيما تختار من سمواتها . فقد حمل هذا القيد ، قيد معارضة الأقدمين شوقي على أن يجود اللغة ويدقق فيها . وهو حتى في رأي ناقديه قد نضج في هذه الناحية نضجاً تاماً وملك زمام اللغة بما رد إليها من حياة كانت في أشد الحاجة إلى جهود من يردها إليها ، وأحسب شوقي قد اندفع في هذه الناحية إلى غاية الحدود . سألته يوماً عن كتاب أقرأه في العربية يشعرني استطاعة الاستغناء ولو إلى حد عن الأدب الغربي؛ فأشار علي بكتاب أطنب في مدحه غاية الإطناب . أفتدري أي كتاب هو ؟ كتاب الوسيلة للمرصفي ، والوسيلة كما يعرف الأدباء جميعاً كتاب نحو وصرف واشتقاق واستشهاد بالشعر في ذلك كله . وقد حاولت أن أتم قراءته فحال بيني وبين ذلك أني لست من رجال النحو والصرف والاشتقاق ، وإني أعتقد أن الأدب والكتابة شيء ؛

وهذه الدراسات اللغوية شيءٌ آخر مختلف جداً!

قضى شوقي في البيئة التي وجهته هذا الاتجاه من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٤ ، أي ما بين الثانية والعشرين والرابعة والأربعين من سنه . وسافر بعدُ ذلك إلى الأندلس وعاد . وأثناء مقامه بالأندلس و بعد عوده منها تحطمت من حوله قيود الظروف التي أحاطت به وقيود هذه البيئة ، ولكن ! أفيستطيع رجل الفن الموهوب أن يستعيد بنشاط عبقريته اتجاهها الطبيعي بعد الخامسة والأربعين ؟ ! قد تحسب أني أريد أن أقول لا . وإن حكم العادة أقوى من كل ما سواه . لكن الواقع أن حيوية شوقي كانت أقوى من حكم العادة ؛ وأنه حاول محاولات كثيرة لإحياء الشعر العربي ؛ منها محاولاته في تجديد البحور الأندلسية ، ومنها محاولاته في القصص الشعري المسرحي ، ومنها محاولاته الغنائية ووضعه للأستاذ محمد عبد الوهاب قطعاً غنائية كثيرة ذات رواء غاية الرواء وبهجة غاية البهجة . وإذا كان الزمن هو وحده صاحب الحكم على هذه الجهود فإنها لذاتها تدل على صحة ما قدمنا من أن ظروف الحياة التي عاش شوقي والبيئة التي أحاطت به كانت سبباً في اتجاه شعره وجهة محدودة بحدود وآفاق معينة كم كان شوقي قديراً على تخطيها والسمو فوقها لو أن هذه الظروف لم تخضعه لها ولو أن هذه البيئة لم تحط به .

أترانا نلقي على شوقي كل التبعة في هذا ؟ الإنصاف يقتضينا أن

نقول : كلا ! وأن نلقي حظًّا عظيماً منها على هذا الأمير الذي اتصل شوقي به . فقد تربى عباس في البيئة الأوروبية وكان حريًّا به أن يكون رجلاً آخر غير الحاكم الشرقي الذي لا يعرف إلاّ نفسه والذى يرد كل شيء إلى نفسه، يريد أن يمدحه الكل وأن يعبده الكل ويرى واجباً أن يكون الكل له عبيداً . كان حريًّا بعباس وقد عرف عبقرية شوقي أن يصنع كما صنع لويس الرابع عشر في فرنسا ، وكما صنعت الملكة فكتوريا في انكلترا ، أن يجري من مال الدولة ما يشبع كل مطامع هذه العبقرية لتحلق في أعلى سمواتها . ليكن صاحبها جمهوريًّا، وليكن بعيداً كل البعد عن حب التمليق والمداهنة وما يطمع فيه أصحاب الثروة والجاه ، وليكن ما تشاء له عبقريته أن يكون ، إن مكان الإمارة يجب أن يسمو فوق كل ما يقدر الأفراد العاديون إذا أراد صاحبه أن يكون جديراً في عالم الأدب والشعر والفن بالمكان الذي يشغله كحام للعلوم والآداب والفنون ؛ لكن عباساً لم يفعل ، وأحاطت بشوقي الظروف التي قدمنا ؛ فمن الظلم أن يحمل وحده كل تبعتها بينا على غيره الحظ الأكبر من التبعة .

وهذا الظلم يبدو أكثر وضوحاً إذا نحن عدنا فقدرنا كم خدم شوقي الشعر وكم أبدع فيه وكم صقل اللغة وهذبها . وهو يبدو أكثر جسامة إذا نحن استعرضنا أندلسيات شوقي وشعره بعد عوده من الأندلس . وهل كسينيته الأندلسية التي يقول فيها :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهل كقصائده الفرعونية في توت عنخ آمون ؟ وهل كهذا الفيض العظيم الذي انهار على الشعر العربي في هذه السنوات العشر الأخيرة؟ لكن الشعر العربي والعالم العربي كله كان يطمع في أمير يميل لهذه العبقرية أن تظل طليقة إلى غاية حدود الحرية مدى الاثنتين والعشرين سنة التي قضاها إلى جوار عباس شاعراً للأمير . وما ندري ولشوقي — رغم ما أحاط به من ظروف وبيئة خلال هاتين الفترتين من السنين — كل ما خلف من شعر عنت له الوجوه في العالم العربي كله وجعل لشوقي مكانه الذي لا ينازع بين شعراء العرب في مختلف العصور — ما كان يبلغ هذا الرجل الذي اختاره الله أول من أمس إلى جواره لو أن عبقريته تركت حرة طليقة تنشد في أذن العالم كل ما أودع الله فيها من سر الحياة .

ما أشك في أن هذا الظرف السعيد لو أتيح لشوقي لكان في مقدمة شعراء العالم كله على اختلاف لغاته .

رحم الله شوقي وعزى الشعر والعبقرية فيه ، وألهم أهله وألهم مصر والعالم العربي فيه جميل الصبر والعزاء عن فقده .

مصر : محمد حسين هيكل

حياة احمد شوقي



محمد كرد علي

حدثني أمير الشعرآء أحمد شوقي بك أن أصل جده لأبيه وجد العلامة أحمد تيمور باشا من أكراد الجزيرة ، هبطا مصر في سن الصبا يحملان وصاة من أحمد باشا الجزار والي عكا إلى محمد علي باشا والي مصر فضمهما إلى جملته ، وأبانا عن ذكآء ومضآء وأمانة فنبلا ونسلا . وجد والدة شوقي تركي الجنس اسمه أحمد بك النجده لي (ولعله النيكده لي) جآء من الأناضول فاستعمله والي مصر إبراهيم باشا في حكومته ، ثم زوجه بمعتوقته تمراز وهي يونانية أسرتها الحملة المصرية من بلاد المورة ، وكانت في العاشرة من عمرها ، ونشأت في القصر العلوي وكان لها بأخرة مكانة بين أهله . وتمراز هي التي كفلت شوقي فأحسنت كفالته ، وكان لها أثر في تخريجه ، ولما مضت لسبيلها في التسعين من عمرها رثاها شوقي وندبها . ويقول شوقي عندما ترجم لنفسه إنه عربي تركي

يوناني چركسي بجدته لأبيه ، أصول أربعة في فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل فهو من حيث دمه سامي آري يافثي .

ولد في القاهرة في سنة ١٨٦٨ في بيت عز ونعمة ، ولما ترعرع دفعه ذووه إلى الكتاب ولم يتجاوز الرابعة ، ومنه انتقل إلى المدرسة الابتدائية فالثانوية ، وتخرج في العلوم العربية بأستاذه الشيخ حسين المرصفي صاحب الوسيلة الأدبية ، ثم التحق بمدرسة الحقوق فدرس سنتين ، ودرس فن الترجمة فأحرز شهادتها . وكان في خلال الدراسة ينظم بعض القصائد في مدح الخديوي توفيق باشا فمنحه مشاهرة حتى يتم تحصيله ، وأرسلته الحكومة المصرية إلى فرنسا يحكم الحقوق ويطلع على أدب الفرنسيس . ولما رجع إلى مصر عين رئيساً للقلم الإفرنجي في ديوان عباس حلمي باشا الخديوي السابق ، وظل في هذا المنصب حتى نشوب الحرب العامة فأرادته السلطة الإنكليزية على الخروج من مصر فاختار المقام في إسبانيا ، وعاد إلى القطر عقبى الهدنة لينصرف إلى إدارة أملاكه ، وفي سنة ١٩٢٤ عين عضواً في مجلس الشيوخ

هذا شوقي من حيث المادة ولم يرزق مالم يصل إليه غيره ، فإن مئات من الشبان مثله يدخلون المدارس ويستمتعون بطيب العيش ، ويعنى أهلهم بتربيتهم ، ويعاشرون أرقى الطبقات ، وتدر عليهم الدنيا أخلاف الرزق ويشرفون بالرتب والمناصب والأوسمة ، ولكن لاينبغون كشوقي ولا يعملون عمله ولا يخلدون خلوده . ذلك لأن الفاطر أودع فيه

سراً لم يودعه غيره من أبناء العربية ، وخلقه شاعراً استجمع أدوات الشعر واستوفى أسباب محاسنه ، وصعبت مساماته في أخيلته البديعة وبيانه الرائع .

لم يخرج شوقي على أساليب العرب وقوالبهم في شعره ، بل رعاها كلها وحرص على إحيائها ، وزاد في موضوعات الشعر بابتداع المعاني الجديدة في قصائد مديحه ، وفي تشبيبه ، يطالع الناس بطريف من القول ويلبس الشعر حلة العصر ؛ وقد نقل لأول أمره قصصاً منثورة ماعلت كثيراً عن مستوى القصص المتعارفة بأسلوبها وبلاغتها . ثم ألف واحتذى حكايات للأطفال فاستجادها الناس واستظهرها فتيان المدارس

واعتذر عن نظم المديح فقال إنه لم يجد أمامه لأول نشأته غير دواوين للموتى لا مظهر فيها للشعر ، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عالٍ ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد ، فما زال يتمنى هذه المنزلة ويسمو إليها مخلصاً في حب صناعته ، صائناً لها عن الابتذال حتى وفق إلى ما أراد . ولذلك أنفق معظم مديحه في الخديوي عباس ، ووفى له وهو صاحب الشأن الأول في مصر ، فكان يوالي من والاه ويعادي من عاداه ، وكذلك كان على الوفاء له بعد أن اعتزل الحكم . وقد نظم قصائد في حسنات محمد علي وإسماعيل والسلطان حسين كامل وجلالة الملك فؤاد الأول إلى غيرهم من آل محمد علي ممن لم يجد حرجاً

في التنويه بهم ، وأشار إلى اعتزازه ببيت محمد علي بقوله :

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا

ولبست نعمته ونعمة بيته فلبست جزلاً وارتديت جميلا

ووجدت آبائي على صدق الهوى وكفى بآباء الرجال دليلا

وقال في مدحه أحد أعيان القبط دفاعاً عن مذهبه في الإشادة بالمناقب :

يظهر المدح رونق الرجل الما جد كالسيف يزدهي بالصقال

رب مدح أذاع في الناس فضلاً وأتاهم بقدوة ومثال

وثناء على فتى عم قوماً قيمة العقد حسن بعض اللآلي

إنما يقدر الكرامَ كريمٌ ويقيم الرجالُ وزنَ الرجالِ

وفي الحق ان أماديح الشاعر انطوت كعامة موضوعاته على حكم وأغراض اجتماعية وأخلاق وتربية ، وإشارات تاريخية وفلسفية وأدبية . أما المسائل الوطنية الكبرى التي تستهوي قلوب الناس ، فما كان يخوض عبابها إلا بالقدر الذي لا يخرجه عن الرسميات ، لأنه كان مضطرًا بحكم عمله أن لا يحرج مقام مولاه مع المحتلين ، ولا يقول إلا ما يروقه من عامة نواحيه . وكان محيطه وهو من عمال البلاط الخديوي مشبعاً بروح الرسميات ، وهو على اتصال دائم بالأجانب من رجال السياسة والمال والأدب والفن ، فخذق بذلك مداخل السياسة ومخارجها وأوامرها ونواهيها . وغريب في شاعر هو أسير خياله وإلهامه في ليله ونهاره ، أن يخضع مختاراً لهذه القيود والتقاليد ، ولكنه لولا ذل الخدمة أعواماً طويلة

ما ذهب الشاعر بهذا العز ، والعز في الشرق ينبعث عن طريق صاحب السلطان ، والناس لا يرون فوق ذلك مظهراً .

ثم إن اتصال مصر بالصلة الرسمية مع السلطنة العثمانية ، وغرام المصريين يومئذ بالعثمانيين والخلافة ، دعا الشاعر إلى أن ينظم عدة قصائد في مدح السلطان عبد الحميد الثاني ، كما مدح بعض الأعيان ممن كانت لهم صلة به أو منزلة في المجتمع ، أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، وإن لم يشاركهم في دعاياتهم وأحزابهم ، بل كانت مشاركته لهم في مصريتهم وقوميتهم فقط ، وكان من دواعي التنويه بهم مجاراة الرأي العام . وقد يجيش صدره في موضوع ويرده عن ورود حوضه مقامه في الدولة ، كما وقع له أن قال من قصيدة يخاطب بها قبط مصر ، يوم هاجوا لمقتل أحد رجالهم بطرس غالي باشا ، فقال يخاطبهم وهو مما لم ينشره في حياته :

بني القبط إخوان الدهور رويدكم ... هبوه (يسوعاً) في البرية ثانيا
حملتم لحكم الله صلب (ابن مريم) ... وهذا قضاء الله قد غال غاليا

ومنها :

قضاء ومقدار وآجال أنفس ... إذا هي حانت لم تؤخر ثوانيا
نبيد كما بادت قبائل قبلنا ... ويبقى الأنام اثنين: ميتاً وناعيا

ولقد صان شعره عن الهُجر والهجو فعدّ ذلك من مفاخره وذكر مظالم عون الرفيق أمير مكة لأن المسلمين ضجوا من إدارته ، وعدد

سيئات حكم لورد كرومر بعدما غادر مصر وذكر حادثة دنشواي ، وما حاول محاربة الظلم مباشرة ، ولا جابه أعداء المجتمع مجابهة ، ولو صحت نيته على الضرب بسهم في هذا الضرب من القريض ، لما عدم كل يوم عن يمينه وشماله ، أمثلة يطيش لها حلم الحليم ، ويضيق بآلامها صدر الحكيم ، هذا وهو الجائل في كل فنون الشعر ، المجلّي في معظم حلباته .

من أوائل قصائده التي خرج بها عن مألوف الشعراء ملحمته التي ألقاها في المؤتمر الشرقي في جنيف عام ١٨٩٤ وكان مندوباً فيه عن الحكومة المصرية ، أتى فيها على تاريخ وادي النيل منذ عرف إلى اليوم ، وضمنها حكماً وعبراً وسياسة ، ومنها قصيدته الكبرى في نهج البردة مدح بها الرسول على طريقة البوصيري وعرض فيها لما صح من معجزاته وآياته بأسلوب عصري خال من الشوائب . ومن قصائده ملحمته في وصف الحرب العثمانية اليونانية . ومن بدائعه سينيته في الأندلس التي عارض فيها سينية البحتري في وصف إيوان كسرى ومنها قصيدته في معارضة قصيدة ابن زيدون المشهورة إلى ولادة ، وموشحته في صقر قريش ، نسج فيها على منوال الموشحات الأندلسية . وكثيراً ما كان يتعمد معارضة الأقدمين من الشعراء ويبذهم . وله عشرات من القصائد في موضوعات اقتصادية وأدبية وغزلية واجتماعية مختلفة مثل الهجرة النبوية ، توت عنخ آمون ، ذكرى كارنافون ، وفي هذه القصيدة الإبداع كله . ومنها مسجد أياصوفيا ، على سفح الأهرام ،

البارلمان ، مشروع ملنر ، ٢٨ فبراير ، جسر البسفور ، كلاب الأستانة أنس الوجود ، طوكيو ، جنيف ، رومة ، باريس ، الكونكورد ، استقبال روزفلت ، مصرع كتشنر ، على قبر نابليون ، الأندلس الجديدة ، أرسطاطاليس ، شكسبير ، ابن زيدون ، وغيرهما مما دون به كبريات حوادث مصر وما له مساس بنفوس أهلها . وعني عناية خاصة بذكر الثورات التركية ، ومدح الأتراك أصحاب الخلافة أمس والجمهورية اليوم ، مدح مصطفى كمال باشا بثورته فلما قضى على الخلافة تأثرت نفسه فعاتبه ، وهنأ أنقرة أن أصبحت عاصمة وكان معجباً بفروق ، ولطالما ردد آيات جمالها . كل أولئك تغنى به وندبه ، بنفس طويل وإبداع غير قليل . وتراه على الغالب يرسم الصور الجميلة ، ويترك لغيره ما وراءها ، علماً منه بأن الشعر شعر مهما حمل من الحقائق ، ويغتفر للشاعر ما لا يغتفر للناقد المؤرخ . ولو تم لشعره أن نقل إلى إحدى لغات العلم الحديث نقلاً صحيحاً لسقط فيه الغربيون على ابتكارات وغرائب قد تروقهم ، كما راقهم ديوان عمر الخيام لخروجه على المألوف وإتيانه بالجديد أحياناً .

قال بعض من ترجموا لشوقي إنه تحامى الدخول في بعض المسائل الاجتماعية الكبرى من مثل مسألة المرأة ، فلم يرسل عنان فكره في إصلاحها ولم يمعن في نصحها وإرشادها ، بل شفق عليها لما رأى بعض أغنياء مصر يتزوجون في سن عالية فتيات الأستانة يطمعونهن بالمال على

غير كفاءة بين الزوجين ، ويترك المصري زوجه وأولاده . ولعله أراد أن لا ينغص على المرأة عيشها ، وحافظ على عادات لا يرى الاقتراب من نزعها ، وأبقى هذا الموضوع للزمن يختمر في رأس غيره فيواجه وحده صعابه ، وليس من المحتم على كل شاعر أن يعاني كل شأن من شؤون العالم ، على أن جريدة أعماله في الشعر طويلة ، ربما كان يحسن اختصارها أيضاً ، ويضاف إلى هذا أن المعروف من خلقه التلطف مع كل أحد ، فلا يرى إزعاج غيره ولا نفسه ، بل يكتفي بأن يعظ وينصح ويسلي ويطرب .

لا جرم أن الشعر انقاد بأعنته لشوقي . وأسلس له قياده أي إسلاس وما كان يعجز عن إلباس كل معنى اللباس الذي يحاول أن يكسوه به . وهو نسيج وحده غير مدافع ولا منازع ، وقد سهلت عليه منافذ النظم بقدر ما ثقف من أدب القدماء ، وجنى من تراكيبهم وأحيى من ألفاظهم ، وما لقف من علم المحدثين ، وأخذ من معانيهم وأغراضهم .

ومن أهم ما عاناه شوقي بعد عودته من الأندلس ، وقد تحرر من رق عمله ونامت فيه النزعة السياسية قليلاً ، تأليف روايات مسرحية صنف بضعاً منها بشعره المرقص وأسلوبه الرقيق ، ليكون في العرب بمثابة شكسبير عند البريطانيين . ونظم مقاطيع في الغزل مؤنثه ومذكره ، وجرى تلحينها نخدم بها الموسيقي ، وأدخلت في أسطوانات الحاكي ، فسمعها ووعاها ابن القاصية والدانية . وهذا مما لم يكتب لشاعر

عربي قبله . وأثبت بقصصه ومقاطيعه وملاحمه أن اللسان العربي بل الشعر العربي لا يضيق ذرعاً بكل المعاني والصور القديمة والحديثة، وأنه يصلح لأكبر الملاحم صلاحه للإبداع في البيتين والثلاثة ، على شرط أن يكون الشاعر متمكناً من لغته ويتسع له أفق النظر بما تلقفه من المعارف اللازمة . ولقد خدم برواياته المسرحية فن التمثيل ، وبمقاطيعه الملحنة خدم الموسيقي ، وبجمال خياله وإشراق ديباجته وانتقاء ألفاظه برز على كثير من المشار إليهم بالبنان من القدماء .

هو يرتجل الشعر إذا أراد ، ولكنه يؤثر أن يجوّده قبل أن يخرجه للعالم ، ويختار للنظم في العادة الهزيع الثاني من الليل ، وقد رقدت العيون وعم السكوت والسكون ، كأن الزهرة ربة الجمال لا تتجلى له فتملي عليه إلا في تلك الساعات الهادئة . ويقول فيه صديقه وعشيره خليل مطران بك: إنه ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية ، وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بَصُرَ به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرّها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة، فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي حديث يباحث فيه ، حاضر الذهن صافيه ، جميل البادرة كعادته في الحديث ، ثم استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال ،

وعاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهراً ما تم منه ، حافظاً لبقية المعنى الذي يضمره ، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما نسيها شهراً ، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة .

وقال : إنه يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبذّهم ، لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى ، فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء ، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والعرب فلسفة حقوق : حقائق التاريخ ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية ، استقاها من مطالعته صنوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب . وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحتري ، ومن صياغة أبي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف الرضي ، ومن مسلسلات مهيار ، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهي أنه من نظم شوقي ، ذلك شعر العبقرية والتفوق .

ومن جميل بديهته المطواعة ما شهدته منه ليلة تكريمه في المجمع العلمي العربي ، فقد نظم قصيدة ثم أبطلها لأنه ما ارتضاها ، ونظم في الحال غيرها بمحضر من أصحابه في دار فخري بك البارودي ، وأجمع العارفون بالشعر أنه لم تمدح دمشق بمثل هذا اللسان ، ذلك لأن الشاعر مدحها

بل رثاها متأثراً بغابرها وحاضرها فبكى واستبكى . وقصيدته في الثورة التي خاطب بها دمشق وقصائده في لبنان تذوب كلها عذوبة وسلاسة ، سارت في البلدان على كل لسان . ومن أمعن في شعره المنشور المتداول يوقن أن شوقي كان يحب الشام كما يحب مصر ، ويعشق الترك كما يعشق العرب ، ويعطف على المسيحيين كما يعطف على المسلمين ، ويعجب بالمدنية الغربية كما يعجب بالمدنية العربية ، ويحنو على الإنسان والإنسانية ويدعو باعتدال إلى الكمال ، ويردّد أبداً ذكر الإسلام والمسلمين ، وعلى معظم قصائده تتجلى مسحة جميلة من هذا المعنى تستهوي أفئدة الخاصة والعامة .

نشر شوقي خلال هذا العام كتاباً في النثر أسماه (أسواق الذهب) جرى فيه على نمط (أطواق الذهب) للزمخشري و (أطباق الذهب) للأصفهاني ، وقصد من تقليدهما في كتابيهما باسمها ورسمها أن يقول إنه عزّ عليه أن يقطع مع عهد الأسجاع ، وشاء أن يقول وهاكم أكبر شعراء العصر يقوم على احتذاء مثال الأقدمين في منثورهم ، يقصره على الحكم العلمية الجميلة لا على الزهد المضعف للنفوس ، وأكثر سجعات هذا السفر مرصعة موزونة ، ومنها ماجاء شعراً مقفى على غير قصد ، ومنها ما جاء مع الطبع وعفو الخاطر وهو قليل ، وأجمل ما في أسواق الذهب هذا الجزء اللطيف من حكمه المرسلة التي أوردها في آخره وفيه زبدة تجاربه وعنوان أدبه البارع .

وهناك ظاهرة غريبة في معاناة شوقي للشعر ، وهو أنه بقي يجيده أيام الهرم على نحو ما كان يبدع هذا الإبداع النادر في كهولته وصباه . ومن العادة أن ينقطع الشاعر في الشيخوخة عن قول الشعر ، أما نابغة الشعر العربي فكان على مثال بعض المعمرين من شعراء الإفرنج أمثال كيتي وهوغو ممن بلغوا سناً عالية وظلوا ينتجون أجمل إنتاج ، وما عاقتهم مراحل الأعوام التي قطعوها عن السبق في مضمار الإجادة ، بل كأن الشيخوخة فتحت أمامهم كل مغلق من أبواب القريض ، فصار نظمه طبيعة ثانية فيهم ، وكلما أسنوا عرفوا كيف يصلون به إلى مراتب الإحكام والإطراب .

لاحظت عيون السعادة شوقي منذ صغره إلى أن شب وشاب ، فما اهتم منذ وعى على نفسه بشيء من هموم الدنيا : أضاع والده ثروة جده فعاش شوقي مع هذا موسعاً عليه ، تفتح أمامه الطرق الصعبة بذكائه ولطيف حيلته ، وقد بسمت له الدنيا فارتاش وأثرى . وقل أن كتب لشاعر عربي في المحدثين والأقدمين مثل غناه ورفاهيته، اللهم إلا ما يروى عن بعض شعراء الإنكليز وكتابهم اليوم وعن طاغور شاعر الهند . وفي القصر الفخم الذي بناه في الجيزة ودعاه كرمة ابن هانئ مثال من هذه النعمة السابغة . قال المنصور لمن استمنحه (البلاغة والغنى إذا اجتمعا لامرئ أبطراه) بيد أن شاعرنا لم تبطره ، وعرف كيف ينفقها . وكان على نعمته صاحب ترتيب في كسبه وعطائه ، يحاسب غريمه

حساباً مدققاً ، وينزل عن مال كثير ينفق على الأدباء والشعراء وأرباب البؤس . وقد رأيناه مع شدة حرصه على خدمة الفن حباً بالفن ، لم تسمح نفسه أن يتساهل مع مديري الجوقات فأغلى ثمن رواياته المسرحية، وتقاضاهم أكثر ما يكون من أجر ، ليعلمهم — كما قال لي بصراحة — احترام الأدب فيؤدوا لأهله بعض قيم قرائحهم ، وكانوا من قبل يعيشون بهضم حقوق المؤلفين . ومن شدة كلفه بالبلاط أحب أن يستأثر بهذه الخدمة لا يشاركه فيها أحد ، ولذلك حاول أن يحول بين البلاط و بين من أراده أو أراد التقرب منه .

تمتع شوقي بطيب العيش طول عمره ، وتهنأ بالنعيم فلم يفلت منه شيئاً، وتذوق مباهج الحياة تذوق شاعر عملي قدّر له أن يحقق الخيالات ويجعلها قيد حسه ، دانية من نظره . وأحسن الانتفاع بشعره ، ونهج السبيل للعرب ليعجبوا بما يقول و يتداولوه و يتدارسوه . وأكثر نقاد الشعر ورجال العلم باللغة والأدب وفي مقدمتهم أستاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، مجمعون على أنه لم يقم بين أبناء العربية منذ عهد المتنبي والبحتري وأبي تمام ، أسلم ديباجة ، وأمتن لغة ، وأرق عاطفة ، وأجمل خيالاً ، وأشرف منزعاً ، من شاعري مصر في هذا العصر شوقي وحافظ، أجزل الله ثوابهما .

وصف الأمير شكيب أرسلان شعر شوقي الذي كان بشعره خلال خمسين سنة مجداً للشعر والعرب والشرق فقال :

يتمثل العصر الحديث بشعره حقّ التمثل من جميع جهاته
ولرب بيت يستقل بجملة تغني عن التاريخ في صفحاته
لم يفتتن من عصره بمساوئ كلاّ ولم يغمطه من حسناته
ما حلّ بالإسلام حيف مصيبة إلا وكان بها لسان شكاته
كانت قصائده هي الصوت الذي سرّى عن الإسلام ثقل سُباته
بعثت به روح الحياة كأنها هي صور إسرافيل في زعقاته
قد كان أدرى الناس بالداء الذي قدحط هذا الشرق عن صهواته
داء هو الأخلاق في اضمحلالها فلذا ترى الأخلاق رأس وصاته
أشعاره تحيي وتحيي أمة تجد الحياة الحق في كلماته

دمشق : محمد كرد علي



اثر الشعر الاوروبي في نظم شوقي

قال كاتب يصف شوقي في شيخوخته :

« حدثنا شوقي يومئذ أحاديث كثيرة وقد لاحظت أن ابتسامته كانت حلوة إلى حد الفتنة حتى ليذهل اللب حين يتمثل المرء مـا كانت عليه تلك الابتسامة في نضارة الشباب » .



محمد لطفي جمعة

ومن يرد أن يتمثل ما كان عليه شوقي وابتسامته في نضارة الشباب فليتأمل صورته التي تمثله متلفعاً بقباء الطلاب وعلى رأسه قبعتهم الصغيرة السوداء ، فقد كان ذلك الثوب وتلك القلنسوة دليلاً على حياة الطالب في باريس إذا التحق في إحدى كليات الجامعة وسكن في حي الطلاب والعلماء وأرباب الفنون « كارتييه لاتان » .

هذه الصورة هي المظهر الخارجي الوحيد الذي عاد به شوقي من فرنسا بعد دراسة الحقوق . ولكن ما اختفى في نفسه من الميول

والعواطف وتوجيه النفس وما طرأ على فكره من التحول والتغيير كان أعظم بكثير من دلالة الرداء والقبعة على شخصية الطالب المصري الذي غادر مصر قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين عاماً ليدرس الحقوق

ومن الغريب أن كل شاب في الشرق والغرب يتوسم في نفسه ميلاً للأدب يبادر إلى درس الحقوق ظناً منه أن بين القانون وفنون النثر والشعر رابطة نسب . وما يزال هذا الظن متمكناً من نفسه حتى يشارف على نهاية دراسته ، فيرى بعين الأسف أن علم الحقوق والأدب إن لم يتناقضا فيهات أن يخضعا لإرادة واحدة أو يسيرا في حياة الرجل المهذب بالجمع بينهما على نسق واحد أو وتيرة واحدة . لأنه من لزوم رجل القانون أن يكون بليغاً وأن يكون ملماً بالأدب والتاريخ وعلم النفس والاجتماع ، ولكن الأديب ليس في حاجة إلى القانون . وقد كان أحمد شوقي أديباً بأصله ومولده ونشأته وتكوينه وخلقه وخلقه وعواطفه وميوله وجميع عناصر استعداده ، ولكن أنظمة الحياة الشرقية ضحت بوجوب تنمية كل مواهبه الأدبية والروحية في سبيل الحصول على شهادة فنية تكفل العمل الرسمي وتضمن الرزق وتجعل الأدب ضيفاً يحل في رحاب الوظيفة . وفي الحق ان الأدب والشعر والقانون وحب الجمال والافتتان بصناعات البلاغة كانت عند شوقي الكل في الكل ، وكانت علاقة شوقي بالقانون كعلاقة الشاب الذي يتزوج من سيدة لا يحبها ، ولكن حياءه يوجب عليه أن يجاملها في حين أن

قلبه مشغول بسواها . وهذه هفوة للدهر لا تغتفر ، لأن شوقي لو قضى شبابه في درس الفنون التي تلائم عبقريته فلا يعلم إلا الله مدى ما كان يصل إليه بالشعر العربي والأدب المصري الحديث . لأن شوقي لم يعط الأدب واللغة العربية كل ما كان مستعداً لإعطائه . ومثله كمثل المنجم الذي لم يستخرج كل ذهبه ، بل إن ناحيات من ذلك المنجم بقيت طول حياته بكراً لم تمسسها يد ، فذهب وبعضه إن لم يكن معظمه مجهول لنفسه ولمعاصريه .

ربما كان أفضل شعر شوقي لم يقله شوقي ، لأنه كان يتطلب جهوداً لم يستطع بذلها وعاقته عن محاولتها موانع عرضت له في شبابه ورجولته ، ومن العجب العاجب أن هذا الرجل الذي أرغم على درس القانون إرغاماً وأهملت مواهب الأدب فيه إلا بقدر ما تطلعت إليه نفسه فبذل من الجهد الشخصي ما أظهر حكمة الطبيعة فيه — هو الرجل الذي انتخبته العناية ليكون لسان مصر الناطق فمنحته مالم تمنح سواه ، وشدت أزره بما لم يتهيأ لغيره ، وخلعت عليه من الاقتدار والاستطاعة ووسائل السيادة ولوازمها ما يكفي شعباً في ظهور عبقريته الشعرية ، وما يجعل أحمد شوقي خليفة بنتاؤر والمتنبي والشريف الرضي والبحتري والمعري وأبي تمام وابن الرومي ، وقد أراد أن يكون في شعره من روح هيجو وموسيه وفيرلين وبودلير وفيني ولامارتين . وفي أواخر أيامه أراد أن يشابه إيشيل وسوفوكليس وأوريبيد واريستوفات

لأنه في السنتين الأخيرتين من عمره تقدم إلى نظم القصة التمثيلية فأتم منها ست قطع أقربها إلى الكمال مجنون ليلى وأصدقها في الوصف كلوبطرة، ولم يقنع شوقي بهذا كله بل تراه أحيانًا ينظم المواعظ والأمثال على خطة لافونتين ·

سافر شوقي إلى فرنسا وعاش في باريس في عصر هيجو وفيرلين وموسيه، وعاش في ظلال السوربون والضفة اليسرى لنهر السين، وهو الذي رأى فيرلين جالسًا بقهوة فاشيت غارقًا في بحار تأملاته وبحار أخرى من بنت الكروم يمر به ثلاثة عشر ألف طالب من جامعة باريس ومدارسها العليا لدى انصرافهم فيحيونه فردًا فردًا وهو لاهٍ عن تحياتهم بما هو فيه من ذهول العبقرية التي توشك أن تودع الدنيا · وكان شعر هيجو وأدبه وديوان الفرد دموسيه القديم والجديد بين أيدي الشباب والشيوخ، وشعراء الديكادنس والبارناس ينظمون شعرهم وشوقي يعاصرهم ويرقب حياتهم عن كثب · وكانت المطابع في مصر تنشر دواوين الشعراء المتقدمين والمحدثين ولا سيما المصريين منهم أمثال البهاء زهير وابن نباتة وابن مطروح والساعاتي وهو أول النهضة والبارودي، كأن الطبيعة أعطت شوقي كل ما يحتاج إليه العبقري في الوقت المناسب فنشرت له صحائف الشعر بكل اللغات، ولم تفرط في وقته الثمين علمًا سابقًا منها بعظم الواجب الذي ندبته إليه العناية العليا ·

ترى شوقي وقد حل أرض فرنسا في عهد نهضة وطنية في سبيل

الانتقام بعد حرب السبعين وفي عهد الانحلال الأدبي وهو عهد ديكادنس وفيه بودلير وفيرلين ، وعهد تجديد فني بظهور مذهب كتاب الطبيعة والحقيقة (ناتورالست) . و (رياليست) أمثال زولا وفلوبير وموبسان وقد تأثر شوقي بالنهضة الوطنية لأن وطنه كان حديث العهد بحال تشبه حال فرنسا . وكان شعرآء فرنسا في تلك الفترة وطنيين . لذا ترى تلك النزعة ظاهرة في شعره كما ظهرت في شعره حاسة الأسف على ما فرط من الجيل السابق ، فتراه يقول للشباب منذ عشرين عاماً :

هل يمدّ الله لي العيش عسى ... أن أراكم في الفريق السعدآء
إن أسأنا لكم أو لم نسئ ... نحن هلكى فلكم طول البقآء
واحكموا الدنيا بسلطان فما ... خلقت نضرتها للضعفآء

وتراه متحرقاً ينظم الحقائق التي يلمسها ويعتقد أنها سبب في حالة وطنه

وطني أسفت عليك في عيد الملا ... وبكيت من وجد ومن إشفاق
لا عيد لي حتى أراك بأمة ... شمآء راوية من الأخلاق
أيظل بعضهم لبعض خاذلاً ... ويقال شعب في الحضارة راق
وإذا أراد الله إشقآء القرى ... جعل الهداة بها دعاة شقاق

وهذه الأبيات الأربعة نقلها إلى الفرنسوية المرحوم عثمان غالب باشا ونشرتها جريدة الطان .

كانت مواهب شوقي طليقة غير مقيدة ، وأفكاره في القصيدة الواحدة قد تتناقض وقد تختلف المقاصد كما كانت مواهب شعرآء العهد الذي

عاش فيه وكما كان اختلاف مقاصدهم ، ففي هذه القصيدة نفسها التي تصف ناحية من أخلاق أهل مصر في أواخر الجيل الماضي تراه يقول في مطلعها:

رمضان ولى هاتها يا ساق　　مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وهذا الذي يتشوق إلى بنت الكروم تراه يلتمس الغفران ويطمع في عفو الله

ألله غفار الذنوب جميعها　　إن كان ثَمَّ من الذنوب بواق

وهذا الخيام الحديث يبدو لك خبيراً بمحاسن الغيد وقد كشف عن أوجه الشبه بينهن وبين الخمر

حمراء أو صفراء إن كريها　　كالغيد كل مليحة بمذاق

وليس هذا الإعجاب بالخمر والتدليل على أنواع الملاح سوى وسيلة ما كرة لوصف حال نفسه وشكوى الدهر من فساد الأخلاق وهو يخاطب الساقي:

لا تسقني إلا دهاقاً إنني　　أسقى بكأس في الهموم دهاق

فلعل سلطان المدامة مخرجي　　من عالم لم يحوِ غير نفاق

ولم يكن شعر بودلير في ديوان (أزهار الشر) وشعر فيرلين وارنور ريمبو سوى ترديد لهذه المعاني عن الهموم والخمور والملاح ووصف الأوساط البورجوازية بالنفاق والخداع وانحطاط الأخلاق بتحوير طفيف أفادوه من الرمزية (سمبولزم)

كان شوقي ذا شخصيات متعددة ، أهمها تلك الشخصية التي كونتها عيشته الأوروبية وكان مستعداً لها بأصله وميراثه ، فقد اجتمع له في

وراثته عنصر عربي وعنصر تركي وعنصر يوناني وعنصر شركسي وجاء هو مصرياً فهو آسيوي إفريقي أوربي . وصادفت بعثته العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، وكان ماكس نورداو المفكر اليهودي النمساوي قد وضع كتابه (Enuartung) الذي نقل إلى الفرنسية باسم (degénérescence) وشرح فيه نظرية علمية مؤداها وصول المدنية الأوربية إلى المرحلة الأخيرة التي يصحبها الانحلال ويتلوها الهدم والفناء . وسبب هذا الانحلال تصرف في الحضارة أورثها الاضمحلال والضعف في الأبدان والاضطراب في العقول ، وكان أظهر أعراض هذا الاضمحلال الضجر وعدم الاتزان وقلة اكتراث الجيل المعاصر لنورداو بما خلفته الأجيال السالفة من المبادئ والفضائل وأصول الحياة وتعاليم الاجتماع وقواعد الأخلاق التقليدية .

ولما كان الأدب المنثور والمنظوم مرآة لحالة الأمم التي تنتجه فلا ريب في أن مرآة ذلك العهد كانت تعكس صوراً من الفوضى العقلية التي تمثل آمال ذلك العهد ومطامح بنيه . ففي فرنسا ظهر كتاب الطبيعة يمثلهم زولا وجونكير وموباسان وهويسمان والرمزيون Symbolistes يمثلهم رامبو وفيرلين وبودلير وبانفيل . وفي انجلترا نفسها قامت حركة (أنصار روفائيل) وهم رسكين وروسيتي وولترباتر وأوسكار وايلد وجورج مور وهم أصحاب المدرسة (الايستتيك) أو (عشاق الجمال) ولم تنج ألمانيا من ذلك الوباء الجارف بعد أن لاح في جوها العقلي

شوبنهور ونيتشه وابسن وبخنر وهينه ، هذا هو شفق الآلهة الذي يسبق غروب الشمس وانغماس الغرب في ظلمات الفناء الأبدي . وهذا هو الطالع الذي تكهن به نورداو، وربما كان مبالغاً ولكنه كان معذوراً في تقديره ، فمن يقرأ ديوان تيوفيل جوتييه وشعر بولير وأدب سوينبرن وستيفان جورج وشعر أوسكاروايلد وصورة دوريان جراي وقصيدة رولالموسييه ولياليه و كتابه إلى لامارتين ولا يرى في ذلك كله دلائل ظاهرة على صدق تلك النبوة ؟

و كيف كان لشاعر شاب مثل شوقي أن يعيش في هـذا الوسط ويعاصر هؤلاء النابغين ويحيا حياتهم ويقرأ كتبهم ويخالط بعضهم ثم لا يتأثر بهم في شعره وحياته وآماله ؟ وقد كان من أحب الأشياء إلى نفسه طول حياته أن ينقل شعر ديموسيه أو نثره إلى العربيـة ولا سيما اعتراف فتى العصر (Confession d'un enfant du siècle) وما هذا الكتاب الذي فتن شوقي ومؤلفه أقرب الناس خلقـاً ومواهب لشاعرنا المصري ؟

هو كتاب جمال وحب وانحلال ، هو صورة للحياة في آخر الزمن وهو الوصف الذي اتخذه نورداو علماً على الحالة المرضية التي شخصها في جسم الحضارة الأوربية وهي في زعمه تحتضر .

عاد شوقي من أوربا في منتصف العقد الثالث وهو مشغول بأربع عواطف قوية وهي التي كان لها الفضل الأكبر في إظهار شاعريته :

عاطفة حب الوطن وقد لازمته طول حياته ،

عاطفة حب الجمال في جميع أنواعه وألوانه وأوضاعه ،

عاطفة الحب بأوسع معانيها ، حب الأسرة وحب الصديق وحب الجنس وما يتبعها ،

عاطفة الإصلاح القومي بتقويم اعوجاج الأخلاق

أما العاطفة الدينية فقد تحلل منها بالتدريج وصار على مذهب سيدنا محيي الدين بن العربي : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وإن الناظر في دواوين شوقي الثلاثة التي نشرت في مدى ثلاثين عاماً ليعثر بأسماء الأنبياء والرسل والآلهة القديمة في مصر وغيرها كأن شوقي يعبدها جميعاً :

كنيسة صارت إلى مسجد هدية السيد للسيد
كانت لعيسى حرماً فانتهت بنصرة الروح إلى أحمد

ويقول في مخاطبة الجوهر الآلهي :

فمحمد لك والمسيح ترجلا وترجلت شمس النهار ليوشع
مابال أحمد عيّ عنك بيانه بل ما لعيسى لم يقل أو يدع

ولسان موسى انحل إلاعقدة من جانبيك علاجها لم ينجع

ويقول في مكان آخر :

أين الفراعنة الأُلى استذرى بهم عيسى و يوسف والكليم المصعق

وقال في مصر :

ملعب مثل القضاء عليه في صبا الدهر آيةَ الصديق

وامحاء الكليم (آنس ناراً) والتجاء البتول في وقت ضيق

وقال:

و كل معنى لعيسى في محاسنه جاءت به من بنات الشعر عذراء

وقال :

يا ابن الثواقب من رُع وابن الزواهر من أُمون

نسب عريق في الضحى بزَّ القبائل والبطون

أما الأخلاق فترى شوقي ينعيها في الشرق عامة وفي مصر خاصة ، وله بيت سار مسير المثل وقد تكرر هذا البيت على صور مختلفة اختلافاً طفيفاً عشر مرات في شعر شوقي ، تراه أحياناً يصف صوراً من أخلاقنا في رفق ولين ، لأن الشدة لم تكن من طبعه ولم يكن رجل كفاح ، وكانت الفوضى في الأخلاق والاجتماع أهم ما يلفت نظره ، وقد رآها في الثورة العرابية ، وفي مجموعة المتناقضات التي تلت النهضة الوطنية ، ورأى الفوضى في بعثته يدرس القانون الروماني وهو بدرس اللغة العربية والأدب والفلسفة أحق وأجدر ، وعاد يشغل منصب الترجمة وهو يصل في

الحقيقة في دوائر السياسة ، وكان يجب أن يعيش صريحاً طليقاً متحرراً من قيود التكلف والتصنع ، فإذا الدنيا كلها حوله تأبى الصراحة وما يتبعها ويفسرها من المترادفات ، كان رجل خير فإذا العالم حوله يرزح تحت أعباء الشر والأذى والإثم . قال يخاطب شكسبير ويصف الشر:

كانوا الذئاب وكان الجهل داءهم   واليوم علمهم الراقي هو الداء
لؤم الحياة مشى في الناس قاطبة   كما مشى آدم فيهم وحواء
قم أبد الحق في الدنيا أليس له   كتيبة منك تحت الأرض خرساء
وأين ماضية في الظلم قاضية   وأين نافذة في البغي نجلاء
أيترك الأرض جانوها وليس بها   صحيفة منك في الجانين سوداء

ولكن شعر شوقي لم يؤثر في الأخلاق كثيراً ولا قليلاً ، لأن أبياته كانت ترد عفواً في عرض القصائد التي لها أغراض تاريخية أو شخصية .

وقد تأثر شوقي بشعر هيجو ولا سيما في ديوانه الموسوم بأساطير القرون Legendes des siecles وقد جعله شاعر فرنسا منفذاً لمواهبه الفياضة . وحاول شوقي هذا النوع من النظم وكان فيه موفقاً ، فإن فكتور هيجو الذي كان شوقي يرمي إلى النسج على منواله في مصر استقل برياسة الشعر ثلاثين عاماً نافخاً بروحه القوية في جسد الرومانتزم البالي ، وأراد أن يجعل للتاريخ الإنساني نصيباً من شعره دون أن يكون لشخصه أثر في هذا الديوان الذي جعله معرضاً لصور رمزية تمثل الوجود

الإنساني . وقد ظهرت مواهب شوقي في الاقتداء به في قصيدته التي جاء فيها على تاريخ مصر القديم ، وفي قصيدة أنس الوجود التي قدمها إلى روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة :

أيها المنتحي بأسوان داراً ... كالثريا تريد أن تنقضا
إخلع النعل واخفض الطرف واخشع ... لا تحاول من آية الدهر غضا

وقصيدته الأخرى في النيل التي أهداها إلى مرجليوث وفيها عن الآثار .

هي من بناء الظلم إلا أنه ... يبيض وجه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الأممَ الملوك بمثلها ... فخراً لهم يبقى وذكراً يعبق

ومن هذا النوع (أساطير القرون) قصيدة توت عنخ آمون وحضارة عصره . والفرق بين هيجو وشوقي في هذا النوع أن هيجو كان يدرس ويجعل الشعر غلافاً للتاريخ ، وكان نفَسه يطول أجزاء ، أما شوقي فأطول قصائده وهي النيل فلا تزيد عن مائتي بيت .

وأفاد شوقي من هيجو أنه صار شاعراً عالمياً فلم يقصر نظره على وطنه بل أضاف إليه الشرق والغرب ، فنظم في تاريخ تركيا وجمالها ودمشق واليابان ، ووصف جمال البوسفور والتيرول وسويسرا والأندلس . وهنا يجب أن أقرر أن شوقي تميز ببراعة الوصف في الإجمال والتفصيل على طريقة هيجو ، وهو في وصف الطبيعة وجمالها والآثار الخالدة وعناصر الكون الثابتة أقدر منه على وصف الأشخاص والنفوس ، وكان هذا من مناقب هيجو وعيوبه ، فإنه لم يجد وصف الأشخاص إلا في النثر والقصص .

ومن صفات العبقري الصادق أن يلهو بالأدب في مقتبل العمر ثم تتم مواهبه فيخرج من حيّزنفسه إلى الكون وتنضج عبقريته وتدنو ثمارها ، هكذا كان هيجو وأيبسن وأناطول فرانس وتوماس مان وجرهارت هوبتمن ، وقد وصف نفسه قال :

« كنت أنظم الشعر أول أمري لنفسي لأنسى به همومي وخيبتي ، ثم كتبت بعد ذلك بروح ثائر وحنق . أما الآن فأنا الشجرة المخضرة تعرض للشمس زهرها ليزداد ازدهاراً وثمرها لينضج »

فشباب العبقري لا يزول بمرور الأعوام ، ومواهبه تنمو وتنضج كلما طال عمره . وإذا كان عامة الناس يشبون ويكتهلون ويشيبون ليشيخوا فإن العبقري في الأدب إذا شب واجتهد لا يشيخ وإن كان يشيب ، ولكنه يعود إلى شباب ناضر لأنه لا يحيا حياة البدن وحده، ولكنه يحيا حياة القلب والروح ، وخياله بين انصباب وامتلاء ، والأفكار يوحي بعضها بعضاً ، والمعاني الجميلة تتوالد وتتوالى وتتواتر وتترى .

رأى شوقي بعينيه هيجو متربعاً على عرش الرياسة الشعرية ، ورآه محوطاً بالإعجاب والإجلال حتى العبادة ، وعلم أن سر الوصول إلى هذه المكانة العظيمة في أن هيجو كان لسان الوطنية الناطق وصوت فرنسا الصارخ في بوق الحرية وسيفها المسلول على كل من أرادها بسوء .

وكانت فرنسا حديثة عهد بمحنة الامبراطورية والهزيمة والانتقاص من أطراف دولتها . وكما هيأت الحياة ظروف هذا المجد لهيجو كذلك

اجتمع لشوقي ما لم يجتمع لسواه من النعم والفرص والمعونة ، وكان المقصود بما ناله شوقي أن يعمل على إحياء روح المجد التاريخي في نفوس أهل مصر وتنوير المصريين بعظمتهم الماضية وإعدادهم للحياة الجديدة والملاحم المقبلة التي تضمن ظفرها وتخرجها أمة سعيدة بين الأمم وتبوئها مكانها في ضوء الشمس .

وكان شوقي رحمه الله يعلم ما أعدته له الطبيعة وما حدث له من العوائق والموانع ، وعلم أن تنفيذ الخطة قصر دون المثل الأعلى الذي جعله نصب عينيه ، لذا تراه في سنة ١٩٢٤ لدى وصول فدرين وبونييه طائرين من باريس إلى مصر يتحرق على شباب مصر الذي لم يبلغ شأو هؤلاء الرجال ويقول في حزن وحداد :

إن أسأنا لكم أو لم نسئ ... نحن هلكى فلكم طول البقاء
لا تقولوا حطنا الدهر فما ... هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة في جهلها ... ظهرت في المجد حسناء الرواء
باطن الأمة من ظاهرها ... إنما السائل من لون الإناء

وتلك العاطفة الوطنية التي تتجه إلى الشباب هي نفسها التي أنطقته وهو بعيد عن وادي النيل بشعره المدهش :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ... ماله مولعاً بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلا ... في خبيث من المذاهب رجس

وهذه السينية الخالدة من أساطير القرون أيضا ، لأن الشاعر تعرض فيها للدول التي حكمت مصر ثم دالت ، ثم تطرق بعد ذلك إلى النوع الذي يمتاز فيه وهو وصف قصر الحمرآء .

وإن كان هيجو قد ساعده الحظ بوحدة موضوعه في إحيآء وطنية فرنسا وتخليد مجدها فإن حظ شاعرنا قد خانه في ذلك: كان هيجو يحب وطناً واحداً وديناً واحداً ولغة واحدة ويمجد تاريخاً فرداً و يؤيد نزعة فذة، أما شوقي الذي يفاخر بأنه ينتمي إلى أصول أربعة فقد عاني من تعدد الأوطان والأجناس والمعتقدات واختلاف منازع التاريخ ما ذهب بنصيب كبير من خير شعره لو أن ظروف الشرق ومصر كانت غير ما أراده مجرى الحوادث وأخلاق الأمم والأفراد ، فقد كان نصيبه أن ارتاض بسياسة مبدؤها الوطنية المصرية النزاعة إلى الاستقلال، وما يتبع ذلك من تمجيد الماضي والتاريخ المصري القديم والإشادة بذكر الفراعنة وآثارهم، ثم مجاملة الدولة العثمانية والمتبوع الأعظم وذكر مفاخرها ومناصرتها في حروبها مع دول أوربا كاليونان، وتمجيد العرب ومدنيتهم والإسلام وحضارته ومحاسنة المسيحية واليهودية ليظهر بمظهر التسامح وينفي عن أمته تهم التعصب، ثم استجدت فكرة الجامعة الإسلامية التي كان يدعو لها السلطان عبد الحميد والخلافة العربية التي كان يدعو لها مقام كبير في مصر في أوائل هذا الجيل . دع عنك سياسة شخصية كان يجب اتباعها مع الأفراد والجماعات تبعاً لرغائب الأمير الذي

كان يخلد ذكره بمدائحه، وقد كان هيجو في راحة من هذا العناء ، ونظام الحياة الفرنسية لا يقتضي أن يخلد الشاعر أميره كما صنع أبو الطيب . ولعل الشاعر هيجو لم ينظم قصيدة مدح وإن كان نظم ديوان الشاتيمان ضد نابليون الثالث ، وهذا تكليف آخر قد يكون أشد الأعباء على كاهل الشاعر الموهوب والمستعد بفطرته لخدمة الجماعة .

ربما كان عند شوقي شاعرية وحيوية وخيال كالتي كانت عند هيجو ، وكانت عنده بلا ريب مؤثرات أقوى من التي كان يحملها دماغ هيجو ،ولكنك إذا نظرت في شعر هيجو وجدت المعنى الشامل المتصل بالمجهول وقوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدقيق، وترى طبيعته المؤاتية وقد مكنته من استيعاب كل صورة شعرية بخصائصها . أما الشاعر الشرقي عامة والعربي خاصة ماعدا شعراء الفرس الأقدمين فهو لا يقع إلا على الخاطر العارض، يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يتغلغل فيه ولا يصل في الأغلب إلا على نزوات ضئيلة من التفكير، وروحه لا تطوف بأسرار الوجود وعظائم الحياة إلا مراً سريعاً كأنها في منطاد . بل إن همومه ومسراته وأوجاعه وأفراحه لون من الوصف لا نوع من الشعور وألفاظ لا معاني، وصورة جامدة من نوع الطبيعة الميتة ، واللوم في ذلك كله على الوسط وفقد المعين والمعجب وهما قوام حياة الشاعر ، وقد تمكن شوقي بحظه السعيد من جهة، و بعبقريته النادرة من جهة أخرى أن ينجو من معظم هذا السقوط المحزن .

وفي الواقع أن سعود الدنيا وحسن حظها خدمت شوقي منذ نشأته إلى وفاته بما لم تخدم به هيجو ولا شكسبير، ولا يقرب منه في حسن التوفيق إلا جوته . فقد تفرغ شوقي لنظم القوافي خمساً وأربعين سنة قضاها في التنقل والسفر والجري وراء كل جديد وطريف، وهو في ظاهر الأمر طليق الفكر خفيف الحركة موفور الرزق مجدود في الأسرة والولد والحل والارتحال . وقد كان كل شعراء أوربا الذين أحبهم وقرأ شعرهم وترسم خطواتها في فنونهم على نصيب وافر من الألم الحي والفلاكة والضنك، ولكن هذا لم يحجب عنهم مواهبهم لأنهم مهيأون بتركيب أدمغتهم وأعصابهم للنبوغ الشعري، ولو أرادوا الإعراض عن الشعر ما استطاعوا، لأن الجواد الكريم لا بد أن يجري، والبلبل الغريد لا بد أن يغني .

وكان شوقي بما ثبت في ذهنه من ضرورة ملازمة الشاعرية للفلاكة تراه في كثير من الشؤون يعيش عيشة المفلوكين، فيركب الترام في مؤخرته، ويلبس معطفاً يزيد عن قياسه، ويتخذ ربطة العنق من صنف لا يكلفه عناء عقده، ويعتز أحياناً بثياب قديمة، وكان يغشى مجالس الأدباء أو دور الصحف ليتصل بالكتاب والمنشئين اتصال صديق ودود، وكان في كل هذه الأحوال يرى بعين الخيال صورة بول فيرلين وشارلز بودلير وبانفيل وبول فور (وكان هو أيضاً أمير الشعراء Princ de Poètes) وكل رجال البارناس من هنري مورجيه فصاعداً

وإذا انتقلنا إلى أمر شعرآء الغزل والخمر في فن شوقي فأول ما يعرض لنا فيرلين وموسيه . فإن موسيه وإن كان لعهد شوقي قد مات وانطوت صحيفته إلا أن شعره ونثره كانا على قيد الحياة ، بل قد وردا سجل الخلود ، وتراه قد ألهب القلوب والأرواح بقصة عشقه جورج ساند وسياحتهما في إيطاليا وخيانتها إياه وتراشقهما بعد ذلك بالكتب والقصائد، فصار علماً من أعلام الأدب الأوروبي بعد نشر ديوانه الجديد، وهو الذي حين اكتوى بنار الحب والغدر كتب لياليه الساحرة التي كان شوقي بها شديد الإعجاب ، وهو الذي بعث إلى لامارتين شاعر البحيرة مكتوبه الفاجع الذي مطلعه :

« قبيل رحيل بيرون من إيطاليا باحثاً في عرض البحر على شاطىء قصي يقتل على صخوره ما تملكه من ضجر وملال ، كان ذات عشية مضطجعاً تحت أقدام معشوقته مقطب الجبين أصفر اللون ناظراً بعينيه المتقدتين نحو بلاد اليونان، فتناولت معشوقته كتاباً وفتحته وقرأت فيه قصيدة مهداة لشاعر أوروبا الكبير وهو بيرون ، وكانت تلك القصيدة من نظم لامارتين »

وباب النسيب من شعر شوقي كله ملهم من شعر موسيه، ولكنه أخفى آلامه المبرحة لأن بعض أخلاق الشرق لا تسمح بأن يفتح الشاعر كل قلبه لجمهور قرائه . وقد عبر عن هذا الحال فحول الشعرآء بثلاثة أبيات خالدة:

وكم في فؤادي من جراح ثخينة يحجبها بردای عن أعين الناس

أنا الألم الساجي لبعد مزافري　　أنا الألم الداجي ولم يخبُ نبراسي
أنا الأسد الباكي أنا جمل الأسى　　أنا الرمس يمشي دائساً فوق أرماس

وكل نابغ وكل أديب صادق وكل مخلص في الشرق يحق له أن يتخذ هذه الأبيات شعاراً له .

بدأ شوقي نسيبه بقصيدته الشهيرة :خدعوها !

وأوقع أثر لذكريات حياته في باريس قصيدته

يا غاب بولون ولي　　ذمم عليك ولي عهود
زمن تقضى للهوى　　ولنا بظلك هل يعود
حلم أريد رجوعه　　ورجوع أحلامي بعيد
وهب الزمان أعادها　　هل للشبيبة من يعيد

وقد طافت بقلب شوقي نفس العواطف التي طافت بنفس موسيه ولكن موسيه كان يفضح معشوقه الخائن ويندب حظه ، أما شوقي فيكتفي بالشكوى وقد يذكر الغيرة فيقول :

غِرْتُ حتى لترى أر　　ضيَ غيرْى من سمائي

ويعرض له خاطر استبدال الحبيب ودواء النفس بنفس الداء :

إذا ما اعتضت عن عشق بعشق　　أعيدَ العهدُ وامتدَّ الشراب
وقالوا في البديل رضاً ورَوح　　لقد رمت البديل فرمت صعبا

ويلجأ إلى العلاج الذي وصفه فيرلين :

إذاما الكأس لم تذهب همومي　　فقد تبَّت يد الساق وتبا

ومن أجمل شعره في ندب الشباب وحاجة الشاعر المكتهل للحب في جميع أدوار حياته ما قال مثله موسبيه :

الرشد أجمل سيرة يا أحمد ودُّ الغواني من شبابك أبعد
قد كان فيك لودهن بقيـة واليوم أوشكت البقية تنفد
لما سمعنك قلن شعر أمرد يا ليت قائله الطرير الأمرد
أئذا وجدت الغيد ألهاك الهوى وإذا وجدت الشعر عز الأغيد
ومن عبث الدنيا وما عبثت سدى شبينا وشبنا والزمان وليد

ترى فكرة الشباب والشيب ومسارعة العمر بخطى واسعة وما يتبعها من حرمان وألم، والنفس لا تزال فتية ، وعدم قناعة الشاعر في كهولته بادية . وحاجته الملحة إلى معشوق في مقتبل العمر ، تلك الفكرة قد عذبت موسيه وأورثته الجنون، فهو تارة ينسب مصابه إلى خيانة معشوقته، وطوراً إلى سوء حظه ، وتراه يقنع بآلهة الشعر التي تؤنس وحدته وتلهمه القناعة بأدبه، فهو ينشد باكياً ولكنه ينظم ولا تتعطل مواهبه. بل تراه يستمد منها وحيه وهو دائم الشكوى من الفقر والوحدة وغدر المرأة ووحشة الحياة، وهذه (الميوز) أو ربة الشعر لا تكترث لشكواه بل تأمره ملحة :

أيها الشاعر خذ قيثارتك إنني خالدةٌ والدهر لك

ولم تفتر ربة الشعر في الليالى الأربع عن دعوة الشاعر إلى الإنشاد وما تزال به حتى يشكوها بثه فتعالجه ويشفي من دائه . وهذا رمز

الجهد الذي تبذله النفس للخلاص من مواطن الضعف حتى تتغلب عليه .

وترى في شعر شوقي لمحات من هذا المعنى :

وقلت لهصبراً فكل أخي هوى على يد من يهوى غداً سيتوب

وراجعت الرشاد عساي أسلو فما بالي مع السلوان أصبى

ويلتمس لنفسه عذراً لدى الشراب :

على أني أعفُّ من احتساها وأكرم من عذارى الدير شربا

وتراه دائماً يدعي الحب الأفلاطوني ويقلد البارودي في قوله :

خرجت أجرّ الذيل تيهاً وإنما يتيه الفتى إن عف وهو قدير

حتى في قصيدة خدعوها :

وعلينا من العفاف رقيبٌ تعبت في مراسه الأهواءُ

وقال :

ملءُ بردينا عفافٌ وهوى حفظ الحسن وصنت الأدبا

ولكن كيف يستقيم هذا الحب الأفلاطوني مع قوله :

أنا أهواك ولا أر ضى الهوى من شركائي

ليتني كنتُ رداءَ لك أو كنتَ ردائي

ليتني ماؤك في الغدا ة أو ليتك مائي

وهو القائل :

وإذا النفوس تطوحت في لذةٍ كانت جنايتها على الأجساد

مصر : محمد لطفي جمعة

شوقي والنزعة العربية

كنا في أواخر أيام السلطان عبدالحميد عصبة تلامذة في فروق نتداعى خلسة ويعقد بعضنا على بعض وعوداً للاجتماع في غسق الليل نتدارس الأدب العربي والتركي والفرنسي ونقرأ من الصحف المصرية ما حرم السلطان علينا مطالعته وكنا جميعاً دُعاةً للعربية وسُعاة لاستقلال الشرق العربي، وقد هلك معظمنا في هذه الغاية فيما بعد وراحوا



الأمير مصطفى الشهابي

شهداء حرية بلادهم . ففي تلك الأيام السود الحوالك وفي حذر المجرم الخائف المتماسك كان يهمس أحدنا في أذن أخيه قائلاً : أترى يُتاح للأمة العربية شاعر قومي يوقظ منها النيام المسبتين والكسالى الخادرين، شاعر إذا تغنى فبالنيل وبردى والفرات ودجلة ، وإذا حنّ فإلى مهد عيسى وأحمد وإلى فراديس القاهرة وجناتها الغناء وإلى الربوة والغوطتين وإلى لبنان وبلاد الرافدين ، وإذا استعزّ على الناس واستكبر فبالملوك

الحلاحل من بني غسان ، وبالغر الميامين من عبد شمس، وبالخلائف الصيد من بني هاشم، وبالأبطال الأشاوس من بني حمدان وبني أيوب وبني الأحمر وبني مرين وبني فاطمة الزهراء وكل قرين لهم عربي أو مستعرب ، ممن طواهم الدهر في طياته لكنه عجز عن طمس أعمالهم الخالدة وأمجادهم التالدة .

وكانت تأتينا من مصر فيما يأتي قصائد شوقي وفرائده، فكنا نقرأها بل نستظهرها معجبين بجمال حوكها ومتانة لغتها ودقة التصوير والتحليل فيها ، لكنها ما كانت لتشفي منا غليلاً ولا لتطفئ في نفوسنا نيران الشباب المتأججة . بل كنا نردد الاستنكار قائلين :ما لشوقي ورياض البوسفور يمدحها في قصيدته (البوسفور كأنك تراه) ؟ وماذا يعنيه من جسر غلطة ومن نهر كوك صو ومن كلاب الأستانة وحدائقها وقصورها ونحن قد تشبعنا بوصفها حتى التخمة في شعر أدباء الترك ونثرهم أمثال توفيق فكرت وخالد ضيا وعبد الحق حامد وجناب شهاب الدين ومن على غرارهم من الفحول الذين ذاع صيتهم واستفاضت شهرتهم لدى الشعب التركي .

ثم أخذنا نقرأ أماديحه في السلطان عبد الحميد وثناءه على العثمانيين وبسالتهم، فكنا نتهامس بأنه مسلم لاح له أن يطري خلافة فروق القائمة ، لكنه سها عن باله أننا في عصر النور والقومية ، بل محب للترك له الحق بأن يشيد برجالهم وبلادهم ، لكننا نراه يثني عليهم بلسان عربي لا يفهمه المخاطبون ولا يريدون أن يفهموه .

وكنا والله يعلم نأسف لتلك الجهود الضائعة يبذلها شاعر عربي فحل ما أنجبت الكنانة مثله منذ قرون ، ويوجهها إلى قوم لا يكترثون لها لأنهم لا يفهمونها . أما شباب العرب الذين يدركون تلك الروائع فلقد كانوا عنها في شغل شاغل . وكيف تشجيهم هذه الأناشيد وهي ما صيغت لهم ولا لبلادهم ولا لقومهم .

وكنا في أسمارنا نقول أترى لو كان فيكتور هوغو كتب بلغة غير لغة الفرنسيس قصائده الحماسية المائلة التي دونها في كتاب (المشاهدات) أفكان يكون لها تأثير يذكر في أبناء جلدته ؟ ولو ظل شوقي يحمس ضباط الترك وشبابهم عشرات السنين بقصائد عربية حماسية تحاكي فرائد المتنبي أفيمكن أن يكون لجهده المضني تأثير كبير يذكر في أناس يجهلون لسانه ؟ ولكم عتبنا على الأقدار التي جعلت مثل هذا الأديب الكبير يكد لغير قضيتنا ويشيد بغير بلادنا .

ثم دار دولاب الدهر فثارت الحرب الكبرى فطحنتنا فيمن طحنته وأهلكت عدداً من رفاقنا ، لكنها ما انقشعت غمائمها السود حتى فصلت البلاد العربية عن البلاد التركية، وحتى طلع علينا شوقي بسينيته المشهورة في الأندلس . وما إن قرأنا فيها قوله :

وعظ البحتري إيوانُ كسرى   وشفتني القصور من عبد شمس

وقوله :

وعلى الجمعة الجلالة والنا   صر نور الخميس تحت الدِّرَفْس

ثم قوله :

صنعة الداخل المبارك في الغر ب وآلٍ له ميامين شُمس

قلت ما إن قرأنا له هذه الأبيات وأشباهها حتى هللنا وكبرنا وقلنا الآن بدأ أمير الشعراء شاعر النزعة العربية الكبرى . وقلنا لعل انفصال بلادنا عن بلاد الترك هو ما ولد فيه هـذه النزعة ، أو هو ما حدا به إلى إذاعة ما استسرّ منها في قرارة نفسه ، دون محاذرة دولة الخلافة أو مغاضبة ضميره في حبه الخالص للترك ودفاعه المجيد عن الدولة العثمانية .

ثم اختلفنا إليه في لبنان منذ سبع سنين وإنا في ذات يوم لنسرح الطرف في آكام الجبل وحراجه الملتفة ونتنادر ونرسلها أفكوهة تتلوها أملوحة وإذا بأحد رفاقنا يبتدره قائلاً : يا أبا علي يا أمير الشعراء أنت شاعر مصر الأكبر وشاعر الإسلام وشاعر الملوك من آل محمد علي وشاعر الخلفاء العثمانيين والترك الكماليين، وأنت الفياض الذي جمع بين وصف الدنيا بأجمل ما فيها ، ووصف الآخرة بأروع ما في الدين من إيمان وتقوى ، هلا أضفت إلى كل هذه النواحي التي سالت فيها مراعف أقلامك ومقاطرها ناحيةً هي لدينا بكل تلك ؟ فقال رحمه الله وقد تجهم لنا وانتصب على كرسيه : أي ناحية هذه ؟ وكأنه يستغرب أن يكون ثمة نواحٍ لم تتناولها عبقريته ولم يذّ الناس فيها ببيانه، فقلت : هي التي ذرّ قرن شمسها ولاح نور هلالها في أندلسيتك السينية . هي وصف روائع الطبيعة في بلاد الشرق العربي كافة ، هي

تذكيرنا بالشموس السواطع من أجدادنا ، هي حثنا على عظيم الأعمال وجليل الشؤن حتى نصبح أحراراً في بلادنا . والخلاصة هي أن لا تقصر نفسك في فرائدك على مصر أو على من لا يفهمونك من الترك ، بل تطمح بها إلى البلاد العربية اللسان كلها فتكون شاعر العرب الأكبر وشاعر المنازع العربية السامية ، ونحن بعد هذا موقنون بأن شباب العرب في الشرق والغرب سينكبون على قصائدك يستظهرونها ويروونها في كل مكان ويزجونها بدمهم ، حتى إنه لو أمكن انتقال العلوم والآداب بالوراثة لولد أطفالنا وهم حفاظ لأشعارك مذاييع لأخبارها . ثم أضفت قائلاً : نحن ما تقاعس شعراؤنا عن القيام بواجبهم نحو مصر ، وهاك مطران والرافعي وغيرهما دليل ساطع على ذلك ، كما أن النزعة العربية ما عدمت شعراءها كالزركلي وجبري ومردم والخطيب في الشام ، والرصافي والزهاوي والشبيبي والكاظمي في العراق ، لكن النفس توّاقة إلى إيمانك بهذه النزعة حتى تكون أميرها وأمير شعرائها على التخصيص كما أنت أمير الشعراء على التعميم .

ولقد رأيت بعد ذلك وجهه المربدّ يبش لنا ، ولمحت الخير في سرائره ، وإذا به يجيب قائلاً : أيها الصحاب كأني بكم تأتمرون بي لكنكم ما تجاوزتم المكنون في نفسي . فانطلقنا نتباشر بالأمر ، وإذا بشوقي يطلع علينا بعد قليل أي عندما اجتمعنا لتكريمه في مجمعنا العلمي العربي الدمشقي في ١٠ آب « أغسطس » سنة ١٩٢٥ بيتيمة

نونية مـا مدح الإنس ولا الجن دمشق وأهلها منذما كانت هذه المدينة الخالدة حتى أيام الناس هذه · وقد تناولت تلك الدرة وصف دمشق وجناتها والإشادة بالأمويين وملكهم العظيم، وذكرت أهل الشام بأنهم أحفاد بني غسان وعبد شمس وحثتهم على إعادة الملك وأوضحت لهم السبل التي تؤدي بهم إلى هذه الغاية · ولو لم يكن للفقيد سوى هذه القصيدة في منازعنا القومية لكانت وحدها منةً له في أعناقنا تدوم ما دام في بلاد الشام ناطق بالضاد · لكن الراحل الكريم لم يكتف بها بل ما كادت تنكب دمشق في ثورة بلاد الشام الأخيرة حتى نسج لها قصيدة قافية مهلهلة تحرك الصخر الأصم وتعيد الحياة إلى الميت في ترابه ، وقد ضرب بها على الوتر العربي الذي نحن بصدده ، وهو الوتر الشرقي كما يسميه كثيرون منا، ويشيرون بلفظة الشرق إلى البلاد التي يتكلم أبناؤها العربية قال :

ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ　　بيانٌ غير مختلف ونطق

ثم لم ينسَ النزعة نفسها في آيته التي أُلقيت في حفلة تكريمه بدار الأوبرا المصرية فقال :

رب جارٍ تلفتت مصر توليـ　　ـه سؤآل الكرام عن جيرانه

وقال :

كلما أنّ بالعراق جريحٌ　　لمس الشرق جنبه في عُمانه

ثم أتحفنا بلامية عصماء في ذكرى استقلال الشام وذكرى شهدائه جاء فيها :

بني البلد الشقيق عزاء جارٍ	أهاب بدمعه شجنٌ فسالا
قضى بالأمس للأبطال حقًّا	وأضحى اليوم بالشهداء غالى
وما زلنا إذا دهت الرزايا	كأرحم ما يكون البيت آلا

وقد مدح لبنان وتغنى بجماله ونظم موشحاً في عبد الرحمن الداخل وألف رواية مجنون ليلى ورواية أميرة الأندلس ورواية عنترة، كل ذلك في السنين الأخيرة من حياته بعد أن آمن بالنزعة العربية الكبرى ووطد النفس على أن يكون شاعر العرب الأكبر أي شاعر البلاد التي يتكلم أهلها باللسان العربي كما أسلفت أيًّا كانت أصولهم وأيًّا كان الدين الذي يدينون به . وقد جلّى في هذا المضمار وعلا وحلق وقام فينا برسالته . ولو مدّ الله حياته الغالية لانتظمت فرائده بلاد الشرق العربي بأسرها ولتناولت بعض الأقطار التي ما أتاحت له الأقدار زيارتها كالعراق وغيره .

فوالهف نفسي على بلبلنا الغريد ، ونايِنا الحزين ، و ربابنا الطروب ، وحكيمنا النصوح ، و مِدْرَهنا الأروع في مدلهمات الشؤون . أثابه الله عن الوطن العربي الأكبر خير ما يتمناه لنا شبابنا الأحامس ، كلما رتلوا آياته البينات ، وتغنوا فيها بروائع البلاد ومحامد الأجداد والسلام .

دمشق : مصطفى الشهابي

شـــوقي

هذا هو الرجل الذي يخيل إلي أن مصر اختارته دون أهلها جميعاً لتضع فيه روحها المتكلم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره ، وأعانته بما لم يتفق لسواه ، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة ، لا على قدر رجل في نفسه ، وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعري وأدبي .

شوقي . هذا هو الإسم الذي كان من الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع ، ومتى ذكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدل على مصر كلها ، كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة . مترادفات لا في وضع اللغة ولكن في جلال اللغة .

رجل عاش حتى تم ، وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر ، ودليل العبقرية على أن فيه السر المتحرك الذي لا يقف ولا يكل ولا يقطع نظام عمله ، كأن فيه حاسة نحلة في حديقة . ويكبر شعره كلما كبر الزمن ، فلم يتخلف عن دهره ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنه مع الدهر على سياق واحد ، وكأن شعره تاريخ من الكلام يتطور أطواره في النمو فلم يجمد ولم يرتكس ، وبقي خيال صاحبه إلى آخر عمره

في تدبير السماء كعرّاص الغمامة سحابه كثير البرق ممتلئ ممطر ينصب من ناحية ويمتلئ من ناحية

والناس يكتب عليهم الشباب والكهولة والهرم، ولكن الأديب الحق يكتب عليه شباب وكهولة وشباب ، إذ كانت في قلبه الغايات الحية الشاعرة ما تنفك يلد بعضها بعضاً إلى مالاانقطاع له ، فإنها ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبه ، ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب .

. . .

أقرر هذا في شوقي رحمه الله وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأماكن الغميزة في أدبه وشعره ، ولكن هذا الرجل انفلت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها المتساير في الجو، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربي في الشعر، وهي لم تذكر قديماً في الأدب إلا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة، ولم يستفض لها ذكر بنابغة ولا عبقري ، وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر في العالم، حتى إن أبا محمد الملقب بولي الدولة صاحب ديوان الإنشاء في مصر للظاهر بن المستنصر (وقد توفي سنة ٤٣١ هـ) وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار في السنة غير رسوم يستوفيها على كل ما يكتبه — سلم لرسول التجار إلى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملها إلى بغـداد ليعرضها على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها فيستشيرهم في تخليد هذا الأدب المصري بدار العلم إن استجادوه وارتضوه . كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها في مكتبة

بغداد قديماً يشبه في حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها في عصبة الأمم ..

وهذا أحمد بن علي الأسواني إمام من أئمة الأدب في مصر (توفي سنة ٥٦٢ هـ) وكان كاتباً شاعراً يجمع إلى علوم الأدب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك — أراد أن يدوّن شعر المصريين فجمع من شعرهم (وشعر من طرأ عليهم) أربع مجلدات ، كأن الشعر المصري وحده إلى آخر القرن السادس للهجرة في العهد الذي لم يكن ضاع فيه شيء من الكتب والدواوين لا يملأ أربع مجلدات ... على اختلافهم في مقدار المجلدة ، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم ، والأسواني نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة

وأخوه الحسن المعروف بالمهذب الأسواني المتوفي سنة ٥٦١ قال العماد الكاتب: إنه لم يكن بمصر في زمنه أشعر منه ، وسارت له في الناس قصيدة سموها النوّاحة وصف فيها حنينه إلى أخيه وقد رحل إلى مكة وطالت غيبته بها وخيفَ عليه . فالرجل أشعر أهل مصر في زمنه وحادثة النواحة تجعله في هذا المعنى أشعر من نفسه ، على أنه مع هذا لم يقل إلاّ من هذا :

يا ربعُ أين ترى الأحبة يمموا	هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا
رحلوا وفي القلب المعنّى بعدهم	وجدٌ على مرِّ الزمان مخيمُ
وتعوضت بالأنس نفسي وحشةً	لا أوحش الله المنازل منهمُ ...

ولولا ابن الفارض والبهاء زهير وابن قلاقس الإسكندري وأمثالهم

وكلهم أصحاب دواوين صغيرة وليس في شعرهم إلاَّ طابع النيل أسيء الرقة والحلاوة، لولا هؤلاء في المتقدمين لأجدب تاريخ الشعر في مصر، ولولا البارودي وصبري وحافظ في المتأخرين وكلهم كذلك أصحاب دواوين صغيرة لما ذكرت مصر بشعرها في العالم العربي . على أن كل هؤلاء وكل أولئك لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر، ووضعه شوقي وحده .

والعجب أن دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون إلاَّ صغيرة، كأن طبيعة النيل تأخذ في المعاني كأخذها في المادة، فلا فيض ولا خصب إلاَّ في وقت بعد أوقات، وفي ثلاثة أشهر من كل اثني عشر شهراً . ومن جمال الفراشة أن تكون صغيرة ، وحسبها عند نفسها أن أجنحتها منقطة بالذهب ، وأنها هي نكتة من بديع الطبيعة

على أنك واجدٌ في تاريخ الأدب المصري عجيبة من عجائب الدنيا لا تذكر معها الإلياذة ولا الانيادة ولا الشاهنامة ولا غيرها ، ولكنها عجيبة ملأتها روح الصحراء إن كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل ، وهي قصيدة نظمها أبو رجاء الأسواني المتوفى سنة ٣٣٥هـ وكان شاعراً فقيهاً أديباً عالمًا كما قالوا ، وزعموا أنه اقتصَّ في نظمه أخبار العالم وقصص الأنبياء واحداً بعد واحد ، قالوا : وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك ؟ فقال : ثلاثين ومائة ألف بيت . . . وما أشك أن هذا الرجل وقع له تاريخ الطبري وكتب السير وقصص الإسرائيليات

فنظمها متوناً متوناً ... وأفنى عمره في ١٣٠ ألف بيت حوّلها التاريخ إلى خبر مهمل في ثلاثة أسطر .

*** [١]

كل شاعر مصري هو عندي جزء من جزء ولكن شوقي جزء من كل ، والفرق بين الجزءين أن الأخير في قوته وعظمته وتمكنه واتساع شعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل . ولم يترك شاعر في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقي ، وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه ، وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده ، فساوى الممتازين من شعراء دهره وارتفع عليهم بأمور كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبرة التي لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطي ، أو يزيد ما تنقص ، أو ينقص ما تزيد . وقد حاولوا إسقاط شوقي مراراً فأراهم غباره ومضى متقدما ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ... ويرى بهما أن شوقي من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحرب ونصر ، وما هو بمنزلة شاعر وشعره

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ في نعمة الخديوي إسماعيل باشا ونثر له الخديوي الذهب وهو رضيع في قصة ذكرها شوقي في مقدمة ديوانه القديم ، ثم كفله الخديوي توفيق باشا وعلمه وأنفق عليه من سعة وأنزل نفسه منه منزلة أب غني كما يقول شوقي في مقدمته ، ثم تولاه الخديوي عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول :

شاعر العزيز وما   بالقليل ذا اللقبُ

وإذا أنت فسرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه في ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعرٌ مرهفٌ معانٍ بأسباب كثيرة ليكون أداة سياسية في الشعب المصري تعمل لإحياء التاريخ في النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها وإقحامها في معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة، وتصل الشعر بالسياسة الدينية التي توجهت لها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة أوروبا في تقسيم الدولة بفكرة الجامعة الإسلامية. ولا يخرج لك شوقي من هذا التفسير على أنه رجل في قدر نفسه بل في قدر أميره ذلك، وكان ممتلئاً شباباً يغلي غلياناً ومعداً يومئذ لمطامع بعيدة ملففة حشوها الديناميت السياسي ....

كنت ذات مرة أكلم صديقي الكاتب العميق فرح أنطون صاحب الجامعة وكان معجباً بشوقي إعجاباً شديداً فقال لي: إن شوقي الآن في أفق الملوك لا في أفق الشعراء. قلت: كأنك نفيته من الملوك والشعراء معاً، إذ لو خرج من هؤلاء لم يكن شيئاً، ولو نفذ إلى أولئك لم يعدُ شيئاً. إنما الرجل في السياسة الملتوية التي تصله بالأمير هو مرة كوزير الحربية ومرة كوزير المعارف.

وهذه السياسة التي ارتاض بها شوقي ولابسها من أول عهده واتجه شعره في مذاهبها من الوطنية المصرية إلى النزعة الفرعونية إلى الجامعة الإسلامية فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعري — هي بعينها مادة نقائصه، فلقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها وتسخير الناس في

ذلك بما وسعته قوته إلى غيرة أشد من غيرة الحسناء تقشعر كلُّ شعرة منها إذا جاءها الحسن بثانية . وهي غيرة وإن كانت مذمومة في صلته بالأدباء الذين لذّعوه بالجمر ... ونحن منهم ، غير أنها ممدوحة في موضعها من طبيعته هو ، إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظـله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقي أشعر من شوقي . وعندي أن كل ما في هذا الرجل من المتناقضات فمرجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التي ردت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة ، فجعلت تضطرب في وجوه من الحيل والأسباب مدبرةً مقبلةً متهديةً في كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها في الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائمًا إلى رائحة الدجاج ....

ومؤرخ الأدب الذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئًا إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديوي توفيق والخديوي عباس لمصر كالدلتا بين فرعي النيل . وما أصابه المتنبي من سيف الدولة مما ابتعث قريحته وراش أجنحته السماوية وأضفى ريشها وانتزى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الأدب — أصاب شوقي من سمو الخديوي عباس أكثر منه ، فكان حقيقًا أن يساوي المتنبي أو يتقدمه ، ولكنه لم يبلغ منزلته لأن الخديوي لم يكن كسيف الدولة في معرفته بالأدب العربي ورغبته فيه . وسر المتنبي كان في ثلاثة أشياء :

في جهازه العصبي العجيب الذي لا يقل في رأيي عما في دماغ شكسبير، وفي ممدوحه الأديب الملك الذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائي من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية، ثم في أفق عصره المتألق بنجوم الأدب التي لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو في قدرها، ولا يتميز فيها إلا ما هو أكبر منها، ولا يتركها كالمنطفئة إلا شمس كشمس المتنبي تتفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية

ولقد والله كان هذا المتنبي كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء، وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الصابي شيخ الكتاب في عصره يراسله أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم، فيرسل إليه المتنبي : ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولكني إن مدحتك تنكر لك الوزير (يعني المهلبي) لأني لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالي هذا الحال فأنا أجيبك ولا أريد منك مالاً ولا من شعري عوضاً. فأين في دهرنا من تشعره عزة الأدب مثل هذا الشعور ليأتي بالشعر من نفس مستيقنة أن الدنيا في انتظار كلمتها ؟

على أن شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشعري) وكل بلاء الشعر العربي أنه لا يجد هذا الجمهور ، فالشاعر بذلك منصرف إلى معانٍ فردية من ممدوح عظيم أو حبيب عظيم أو سقوط عظيم . . . حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع مبتورة من الكون داخلةٌ في الحدود لابسةٌ الثياب . ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه

من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره ، وإلا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة ، فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ، ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود ، فلا تجد في طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدقيق ، ولا تواتيه طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها ، فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه ، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره ، وإذا نفسه تمر على الكون مراً سريعاً وإذا شعره مقطع قطعاً ، وإذا آلامه وأفراحه أوصاف لا شعور ، وكلمات لا حقائق ، وظل طامس ملقى على الأرض إذا قابلته بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض .

واجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري أعراقه عنصر عربي وآخر تركي وثالث يوناني ورابع شركسي ، وهذه كثرة إنسانية لا يأتي منها شاعر إلا كان خليقاً أن يكون دولة من دول الشعر . وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبي في عينيه ، كأن هذا دليل طبيعي على أن وراءهما عينين للمعاني تزاحمان عيني البصر . وما لم يكن التركيب العصبي في الشاعر مهيأ للنبوغ فاعلم أنه وقع من تقاسيم الدنيا في غير الشعر ، وليس في الطبيعة ولا في الصناعة قوة تجعل حنجرة البلبل في غير البلبل . ومع كل ما تقدم فقد أعين شوقي على الشعر بفراغه له أربعاً وأربعين سنة غير مشترك العمل ولا متقسم الخاطر ، على سعة في الرزق

وبسطة في الجاه وعلو في المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربي والأوروبي والتركي والفارسي، وإن تنس فلا تنس أن شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة، وهو روح الشعر لا روح للشعر بدونه، فسافر ورحل وتقلب في الأرض وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة يتخللها ببصره ما بين الأندلس والأستانة وظهيره على ذلك ماله وفراغه ، وإنما قوة الشعر في مساقط الجو ، ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة ، والطبيعة كالناس هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء ، وهي في موضع نائمة تحلم وفي موضع قائمة تعمل ، وفي بلد هي كالأنثى الجميلة، وفي بلد هي كالرجل المصارع، ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشده إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللذيذة المفيدة ألوان الهواء اللذيذ المفيد .

وعندي أنه لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم في طبقة الفحول من شعراء العالم إلا أذا أعيد تاريخ شوقي مهذباً منقحاً في رجل وهبه الله مواهبه ثم تهبه الحكومة المصرية مواهبها

***

والكتاب الأول الذي راض خيال شوقي وصقل طبعه وصحح نشأته الأدبية هو بعينه الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكرناه في مقالنا عنه، أي كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي . وليس السر في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة ، فهذا كله كان في مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقي

ولكن السر ما في الكتاب من شعر البـارودي لأنه معاصر، والمعاصرة اقتدآء ومتابعة على صواب إن كان الصواب ،وعلى خطأ إن كان الخطأ وقد تصرّمت القرون الكثيرةوالشعرآء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ،ولا يخلد الجيلُ منهم إلا لما رأى في عصره ولا يستفتح غير الباب الذي فُتح له . ألى أن كان البارودي وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كل العلم الذي حوّل الشعر من بعد .فيالها عجيبة من الحكمة وهي دليل على أن أعمال الناس ليست إلا خضوعاً لقوانين نافذة على الناس . وأكبّ البارودي على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القرآءة ثم المعاناة والمزاولة ، وكانت فيه سليقة فخرجت مخرج مثلها في شعرآء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية،وجآءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بإلهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوقي وغيرهما .فكل ما في الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ فتبعثه هذه الروح على التمييز وصحة الاقتدآء فإذا هو على ميزة وبصيرة ،وإذا هو على الطريق التي تنتهي به إلى ما في قوة نفسه ما دام فيه ذكآء وطبع . وبهذا ابتدأ شوقي وحافظ من موضع واحد وانتهي كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معاً غير طريقة البارودي .

تحول شوقي بهذا الشعر لا إلى طريقة البارودي فإنه لا يطيقها ولا انتهيا

في أسبابه وخاصة في أول عهده . وكأن لغة البارودي فيها من لقبه أي فيها البارود .... ولكن تحوّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال الليثي وأبي النصر وغيرهما، فترك الأحياء وانطلق وراء الموتى في دواوينهم التي كان من سعادته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد ، كالمتنبي وأبي تمام والبحتري والمعري ، ثم أهل الرقة أصحاب الطريقة الغرامية كابن الأحنف والبهاء زهير والشاب الظريف والتلعفري والحاجري ، ثم مشاهير المتأخرين كابن النحاس والأمير منجك والشبراوي . وقد حاول شوقي في أول أمره أن يجمع بين هذا كله فظهر في شعره تقليده وعمله في محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد مع السهولة والرقة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحب الصحيح .

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون أكبر همي إلا البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه وكيف ألم وكيف لحظ وكيف كان المعنى منبهة له ، وهل أبدع أم قلد، وهل هو شعر بالمعنى شعوراً فخالط نفسه وجاء منها ،أم نقله نقلاً لجاء من الكتب . وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ويدقق النظرة في أسرار الأشياء ويحسن أن يستشف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ويتصل بها ويستصحب الناس من وحيها ، أم فكره استرسالٌ وترجيمٌ في الخيال وأخذٌ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجملة هل هو ذاتية تمر بها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون لها مع الحياة في نفسها حياةٌ من نفسه ،أم هو تبعيةٌ

كالسمسار بين طرفين يكون بينهما وليس منهما ولا من أحدهما ، في هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر، ولا يؤديك إلى هذا التاريخ إلا ذلك المذهب إليه إن أطقته، أما تاريخ الشاعر نفسه فما أسهله إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره وليس في تاريخه ما كان إلا نقله كما كان .

وإذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره ، ففيه تلك الموهبة التي أسميها حاسة الجو إذ يتلمح بها النوابغ معاني ما وراء المنظور ، ويستنزلون بها من كل معنى معنى غيره . أنظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ ٢٢ سنة على ما أظن وهي من شعره السائر :

خدعوها بقولهم حسناء ... والغواني يغرهن الثناء
ما تراها تناست اسمي لما ... كثرت في غرامها الأسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم ... تك بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء

دع غلطته في قوله (تميل عني) فإن صوابها تمل إذ هي جواب إن الشرطية[1] ولكن تأمل كيف استخرج معانيه ، وأنا كنت دائماً وما أزال معجباً بالبيتين الثاني والرابع لا إكباراً لمعناهما فهما لا شيء عندي ، ولكن إعجاباً بموهبة شوقي في التوليد فإنه أخذ البيت الثاني من قول أبي تمام :

---

(١) من القواعد النحوية المقررة أن فعل الشرط إن كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع ، فعدّ الرفع هنا من الغلط غلط .

أثبت فؤآدها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام

فمرّ المعنى في ذهن شوقي كما يمر الهوآء في روضة وجاء نسيماً يترقرق بعدما كان كالريح السافية بترابها، لأن الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشرآء لا بقلب امرأة يحبها. بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريباً كأنه ليس عضواً في جسمها بل غرفة في بيتها .... وقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل في إبداعه وذوقه ورقته. والبيت الرابع من قول الشاب الظريف :

قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحب فسام الوصل فامتنعوا فرام صبراً فأعيا نيله فقضى

وهذه « فاءات » تجر إلى القبر ونعوذ بالله منها .... ومما كنت أعيبه على شوقي ضعفه في فنون الأدب، فإن المويلحي الكاتب الشهير انتقد في جريدته مصباح الشرق أبيات (خدعوها) عند ظهور الشوقيات في سنة ١٨٩٩ فارتاع شوقي وتحمل عليه ليمسك عن النقد، مع أن كلام المويلحي لا يسقط ذبابة من ارتفاع نصف متر ... ومن مصيبة الأدب عندنا بل من أكبر أسرار ضعفه أن شعرآءنا لا طاقة لهم بالنقد، وأنهم يفرون منه فراراً ويعملون على تفاديه، وأنهم لا يحسنون غير الشعر، فلا البارودي ولا صبري ولا حافظ ولا شوقي كان يحسن واحد منهم أن يدفع عن نفسه أو يكتب فصلاً في النقد الأدبي أو يحقق مسألة في تاريخ الأدب.

ومن معاني شوقي السائرة :

لك نصحي وما عليك جدالي ... آفة النصح أن يكون جدالا

وكرره في قصيدة أخرى فقال :

آفة النصح أن يكون جدالا ... وأذى النصح أن يكون جهارا

والبيتان من شعر صباه أيضاً وهما من قول ابن الرومي :

وفي النصح خيرٌ من نصيحٍ موادعٍ ... ولا خير فيه من نصيح مواثب

فصحح شوقي المعنى وأبدل المواثبة بالجدال وذلك هو الذي عجز عنه ابن الرومي . ومن إبداعه في قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان .

يكادون من ذعرٍ تفرُّ ديارُهم ... وتنجو الرواسي لو حواهنَّ مشعب

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى ... ويقضم بعض الأرض بعضاً ويقضب

وهذا خيال بديع في الغاية جعل هزيمتهم كأنها ليست من هول الترك، بل من هول القيامة ، وهو مع ذلك مولد من قول أبي تمام في وصف كرم ممدوحه أبي دلف .

تكاد مغانيه تهشُّ عراصها ... فتركب من شوقٍ إلى كل راكب

فقاس شاعرنا على ذلك، وإذا كادت الدار تركب إلى الراكب إليها من فرحها فهي تكاد تفرُّ من المنهزم من ذعرها ولكن شوقي بنى فأحكم وسما على أبي تمام بالزيادة التي جاء بها في البيت الثاني .

ومن أحسن شعره في الغزل :

حوت الجمال فلو ذهبت تزيدها ... في الوهم حسناً ما استطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حسن لواستزادت من الحسـ ن إليها لما أصابت مزيدا

غير أن شوقي قال لو ذهبت تزيدهـا في الوهم ، والشاعر قال لو استزادت هي ، فلو خلا بيت شوقي من كلمة (في الوهم) لما كان شيئاً ، ولكن هذه الكلمة حققت فيه المعنى الذي تقوم عليه كل فلسفة الجمال ، فإن جمال الحبيب ليس شيئاً إلا المعاني التي هي في وهم محبه ، فالزيادة تكون من الوهم وهو بطبيعته لا ينتهي ، فإذا لم تبق فيه زيادة في الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا هذا المعنى في صور كثيرة في كتبنا رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد فانظره فيها .

ومما يتمم ذلك البيت قول شوقي في قصيدة النفس :

يا دميةً لا يستزاد جمالها زيديه حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسي موقعاً وله من إعجابي محل ، فهذه الزيادة التي فيه كزيادة العمر لو أمكنت ، وهي في موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل ، وكما يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل . وقد علمت مأخذ الشطر الأول أما الثاني فهو من قول ابن الرومي :

يا حسنَ الوجه لقد شِنته فاضمم إلى حسنك إحسانا

وفي القصيدة التي رثى بها ثروت باشا وهي من أحسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر :

وقد يموت كثير لا تحسهمو كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

وشوقي يعارض بهذه القصيدة أبا خالد بن محمد المهلبي في داليته التي رثى بها المتوكل ، وكان المهلبي حاضراً قتله هو والبحتري ، فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا إنها من أجود ما قيل في معناها ، وبيت شوقي مأخوذ من قول المهلبي :

إنا فقدناك حتى لا اصطبار لنا ... ومات قبلك أقوامٌ فما فقدوا

أي لم يحسّ موتهم أحد ، ولكن البيت غير مستقيم لأن الذي يموت فلا يفقد هو الخالد الذي كأنه لم يمت ، فاستخرج شوقي المعنى الصحيح وجعل العدم الذي هو آخر الوجود في الناس أول الوجود ووسطه وآخره في هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وجدوا .

* * *

وإلى ما علمتَ من قوة هذه الشاعرية ودقتها فيما تتأتى له ومجيئها بالمعاني النادرة مستخرجةً استخراج الذهب مصقولة صقل الجوهر معدَّلة بالفكر موزونةً بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء وغرةً كغرة الأحداث ، حتى لتحسب أن طفولة شوقي كثيراً ما تنبعث في شعره لاعبةً هازلة ، أو كأن للرجل شخصيتين كما يقول الأطباء فهما تتعاوران شعره كمالاً ونقصاً وعلوًّا ونزولاً ، أو قل هي العربية واليونانية في ناحية من نفسه ، والتركية والشركسية في ناحية أخرى . لتلك الابتكار والبلاغة والمنطق ، ولهذه التهويل والمبالغة والخلط ، وشوقي

هو بهما جميعا تفتنه القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوة ، وتخدعه الضعيفة فيعجب بها إعجاب الرقة . كما أعجب ببيته الذي قاله في الحنين إلى الوطن من قصيدته الأندلسية الشهيرة :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة ولم يفطن أحد إلى فساده وسخافة معناه، فإن الخلد لا يكون خلداً إلا بعد فناء الفاني من الإنسان وطبائعه الأرضية، وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية . فكأن شوقي يقول : لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أمم ولا حنين إلى شيء من ذلك فإني على ذلك أحن إلى الوطن الذي لا وجود له في نفسي ولا في نفسه .... وهذا كله لغو .... والمعنى بعد من قول ابن الرومي :

وحبب أوطان الرجال إليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الصبى فيها فحنوا لذلكا

ومنازعة النفس هي الحنين ، ومعنى ابن الرومي وإن كان صحيحاً غير أنه لا يصلح لفلسفة الوطنية في زمننا

وإن في شوقي عيبين يذهبان بكثير من حسناته : أحدهما المبالغات التركية الفارسية مما تنزعه إليه تركيته ولا مبالغة في الدنيا تقاربها كقول بعض شعرائهم إن النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة ... وهو إغراق سخيف لا يأتي بخيال عجيب كما يتوهمون، بل يأتي بهذيان

عجيب . وإذا كان الصدق يأنف من الكذب فإن الكذب نفسه يأنف من هذا الإغراق . ومن هذه التركية في شوقي إضافات وهمية هي من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار ، قطعة فيه ودليل عليه وآخر لأوله ولا محل لها في ذوق البلاغة العربية كقوله :

(عيسى الشعور) إذا مشى   رد الشعوب إلى الحياة

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليه :

ولو زلت غيب (عمرو الأمور)   وأخلى المنابر سحبانها

ويدخل في جنايات هذه التركية على شعره تكراره الأسماء المقدسة والأعلام التاريخية كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع في نظمه ولا تجده أكثر ما تجده إلا ثقيلاً مملولاً ولهذه الألفاظ عندنا فلسفة لا محل لها الآن ، فهي أحياناً تكون السحر كله والبلاغة كلها على شرط أن يكون القلب هو الذي وضعها في موضعها ، وأن لا يضعها إلا على هيئة قلبية ، فيكون كأنه وضع نفسه في الشعر ليخفق خفقانه الحي في بضعة ألفاظ ، وهذا ما لم يحسنه شوقي .
والعيب الثاني أن ألفاظ شاعرنا لا يتبت أكثرها على النقد لضعفه في الصناعة البيانية ، ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه ، واعتباره التهويل شعراً والمبالغة بلاغة وإن فسدت بهما البلاغـة والشعر . أنظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير :

قالوا الحماية زالت قلت لا عجب   قد كان باطلها فيكم هو العجبا

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزماً يقطع الذنبا

قلنا: فإذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقيةٌ ما: ذنب أو يد أو رجل فإن هذه البقية في لغة السياسة التي تنقد الألفاظ وحروفها ونقط حروفها .... لن تكون ذنباً ولا يداً ولا رجلاً بل هي (رأس الحماية) بعينه .... على أن شوقي إنما عكس قول الشاعر :

لا تقطعنْ ذنب الأفعى وتتركها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

وهذا كلام على سياقه من العقل، فما غناء قطع ذنب الأفعى إذا بقي رأسها ، و إنما الأفعى كلها هي هذا الرأس .

ولقد ظهر لي من درس ديوانه أمر عجبت له ، فإني رأيته يأخذ من أبي تمام والبحتري والمعري وابن الرومي وغيرهم فربما ساواهم وربما زاد عليهم ، حتى إذا جاء إلى المتنبي وقع في البحر وأدركه الغرق ، لأنه نشأ على رهبةٍ منه كما تشير إليه عبارته في مقدمة ديوانه الأول . وقد وصف خيـل الترك في قصيدة أنقرة بقوله :

والصبر فيها وفي فرسانها خلقٌ توارثوه أباً في الروع بعد أب

كماةٌ لدتم على أعرافها وُلدت في ساحة الحرب لا في باحة الرحب

وشعره هذا كأنه يرتعد أمام قول المتنبي :

أقبلتها غُرر الجياد كأنما أيدي بني عمران في جبهاتها

الثابتين فروسةً كجلودها في ظهرها والطعن في لَبَّاتها

فكأنها نُتجت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

فانظر أين صناعة من صناعة ؟ وأين شعرٌ من شعر ؟ .

وقال في (صدى الحرب) يصف مدافع الدردنيل :

قذائف تخشى مهجة الشمس كلما علت مصعدات أنها لا تصوّب
إذا هبَّ حاميها على السفن انثنت وغانمها الناجي فكيف المخيب ؟

وهذا الاستفهام (فكيف المخيب) استفهام مضحك، لأنه إذا كان الناجي غانماً فالمخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة . والكلمة الشعرية في هذا كله هي قوله (وغانمها الناجي) وهي كالهاربة تتوارى خوفاً من بيت أبي الطيب :

أغرُّ أعداؤه إذا سلموا بالهرب استكبروا الذي فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك . على أني أشهد أن في قصيدة (صدى الحرب) أبياتاً هي من أسمى الشعر ، وكأن شوقي رحمه الله كان ينظم هذه القصيدة من إيمانه ومن دمه ومن كل مطامع دنياه وآخرته ، يبتغي بها الشهرة الخالدة في الناس والمنزلة السامية عند الخديوي ونباهة الشأن عند الخليفة والثواب عند الله تعالى . ولو هو في أثناء عملها أسقط نصفها أو أكثر لجاءت فريدة في الشعر العربي ،غير أن الحرص كان يغترّه وكان طول عمره مفتوناً بشعره فجاء في هذا الشعر بالطمّ والرمّ كما يقولون . وله كثير من الكلام الرذل الساقط بضعفه وتهافته ، ولولا تلك التركية الفارسية وضعفه البيانيّ لما رضي أن يكون ذلك في شعره . وليت شعري كيف غاب عن مثله أن التهويل والإغراق

والإحالة مما يهجن الشعر ويذهب بأثره في النفس ويحيله إلى صناعة هي شر من الصناعة البديعية ، لأن هذه تكون في الألفاظ والألفاظ تحتمل العبث البديعي ، ويخرج بها الأمر إلى أن تكون ضرباً من الرياضة كمعاناة بعض المسائل في الجبر والهندسة تركيباً وحلاً ، ولكن المعاني لا تحتمل ذلك ، إذ هي تفكير لا يلتوي إلاّ فسد ، والمعاني التي يأتي بها الشاعر يجب أن تكون فيها مزية بخاصتها من الجمال والبيان ، وأن تكون أخيلتها هي الحقائق التي أول مواضعها فوق حقائق البشر

إن الخيال الشعري يزيغ بالحقيقة في منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجيء بها ممسوخة مشوهة ، ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامة في تأثيرها ، وتلك من معجزاته إذ كانت فيه قوة فوق القوة عملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى .

ولعلماء الأدب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها . قالوا أعذب الشعر أكذبه يعنون أن قوام الشعر المبالغة والخيال ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك ، وما وراءه إلاّ الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها . وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذبٌ على الحواس الإنسانية ، وأن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعريٌ في الحقيقة إذ تنقل الشيء على غير ما هو بنفسه ليكون شيئاً في نفوسنا فيؤثر فيها أثره جمالاً وقبحاً وما بينهما . وما هي خمرة الشعر مثلاً ؟ هي رضاب الحبيبة ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى .. لرأى مستنقعاً

صغيراً .... ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف مما يجهر به لرأيت ذلك الرضاب يعج عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تخفى بنفسها، ولكن أخفاها التدبير الإلهي بأن جعل رتبتها في الوجود وراء النظر الإنساني رحمةً من الله بالناس . فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسرّ الحياة ، ولهذا المعنى كان الشعراء النوابغ في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع .

ومن سخيف الإغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل ، وهي أبيات يظن هو أنه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الإغراب :

فلو ان أوطاناً تصوّر هيكلاً   دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يحمل في الجوارح ميت   حملوك في الأسماع والأجفان
أو كان للذكر الحكيم بقية   لم تأت بعدُ رثيت في القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات .... وتصور أنت ميتاً يحمل في الجوارح فيترمم فيها ويبلى .... وما زال الشاعر في أبياته يخرج من طامة إلى طامــة حتى قال رثيت في القرآن . ولو سئلت أنا إعراب (لو) في هذه الأبيات لقلت إنها حرف نقص وتلفيق وعجز .... وكيف يسوغ في الفرض أن تكون للقرآن بقية ولم تنزل والله تعالى يقول فيه (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) والأمر أمر دين قد تم وكتاب مقدس ختم ونبوّة انقضت ، والشاعر ماض في غفلته لم

ينتبه لشيء ولم يدر أنه يفرض فرضاً يهدم الإسلام كله ، بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية . وشوقي في الحقيقة كامل كناقص ، وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصاً هذا النقص كله ويكمل .

وفي الشوقيات صفحات تكاد تغرّد تغريداً ، وفيها صفحات أخرى تنقّ نقيق الضفادع . وفي هذا الديوان عيوب لا نريد أن نقصها فإن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه إذا ذهبنا نأتي بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها . ولكن من عيوبه في التكرار أن له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية وهو هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بل هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولت مضوا آثارها قدما

بل هو هذا :

كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

بل هو هذا البيت :

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب

وقد تكرر (فيما قرأته من ديوانه) ثلاث عشرة مرة فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذي جعل الشاعر يرقعه ثم يرقعه حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرقع ... والبيت الأول من العين النادر ولكنه أفسده في الباقي سوء ملكة الحرص في شوقي ، أو ضعف الحس البياني ،

أو ابتذاله الشعر في غير موضعه، أو وهن فكرته الفلسفية من جوانب كثيرة . وهذه الأربعة هي الأبواب التي يقتحم منها النقد على شعر صاحبنا ، ولو هو كان قد حصنها بأضدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية إلى اليوم، ولكان عسى أن ينقل الشعر إلى طور جديد في التاريخ . ولكن الفوضى وقعت في شوقي من أول أمره ، فأرسل إلى أوربا لدرس الحقوق وكان الوجه أن يرسل لدرس الآداب والفلسفة ، وغامر في سياسة الأرض وكان الحق أن يشتغل بسياسة السماء ، وتهالك في مادة الدنيا وكان الصواب أن يتهالك في معانيها

إن الفوضى ذاهبة بنا مذاهبها في الأدب والشعر . فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليه أن يمثلها وحده، فهو يخرج على النظارة في ثياب الملك فيلقي كلاماً ملكياً، ثم ينفتل فيجيء في ثوب القائد فيلقي كلاماً حربياً ، ثم ينقلب فيعود في هيأة التاجر فيلقي كلاماً سوقياً ، ثم يروغ فيرجع في مباذل الخادم ، ثم . . . ثم . . ثم يتوارى فيظهر في جلدة بربري . . . وهذه الفوضى التي أهملتها الحكومة وأهملها الأمراء والكبراء هي حقيقة مؤلمة ، ولكن هي الحقيقة .

* * *

وشوقي على كل هذا هو شوقي أول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراء ، وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات ، وهو صاحب الآيات البديعة في الوصف ، وهذه الناحية هي

أقوى نواحيه . ولقد ألهمتني قرآءة البارع من شعره في أغراضه وفنونه المختلفة أن الله تعالى ينعم على الآداب الجليلة بأفراد ممتازين في جمال أرواحهم وقوتها تجد الآداب لذتها فيهم وسموّها بهم ، كأن الأمر قياسٌ على ما يقع من عشق الناس لبعض المعاني فيكون في المعاني ما يعشق بعض الناس . ومتى بلغ عشق المعنى لإنسان مبلغ الاختصاص والوجد ظهر الفن أبدع ما يرى ، كأن المعنى الأدبيّ يتجمل ويتحبب ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكمَ الحب .

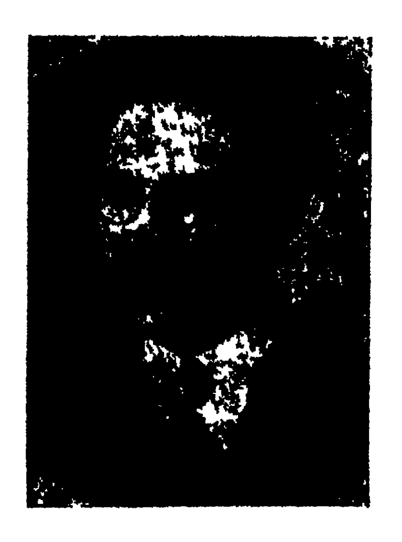
فيا مصر لقد مات شاعرك الذي كان يحاول أن يخرج بالجيل الحاضر إلى الزمن الذي لم يأتِ بعد . فإذا جاء هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه العالية وذكرتِ مجد شعرك الماضي فليقل أساتذتك يومئذ : كان هذا الماضي شاعراً اسمهُ شوقي .

مصر : مصطفى صادق الرافعي



الفلسفة في شعر شوقي

حرصت الفلسفة في مختلف أدوارها ونواحيها على ذلك المعنى السامي الذي أسماه شوقي (عبقرية الطبيعة) وأراد به الجمال . وقد تغلغل هذا المعنى في شعره منذ تغنى به إلى أن نزل بشاعرنا القضاء المحتوم .



الدكتور منصور فهمي

فمنذ القديم عنيت الفلسفة بجمال الأفكار ونسقها ، وعنيت بجمال العمل وخيريته ، وعنيت بتذوق الجمال في الوجود الظاهر ، وعنيت بدقائق الحركة النفسية ورشاقة النفس في تجمعها وتركزها وامتدادها وانبساطها لتتصل بعالمي الباطن والظاهر ، ولتشرف تارة على روعة الغيب وتارة أخرى على جمال النواميس .

ومنذ القديم حرصت الفلسفة على أن تلم بأشتات العلم ، وأن تتلمس مختلف المعارف لتردّ ذلك المجموع إلى أصول تحصر وكليات تمتلك .

وقد يكون في ذلك الحرص دليل على أن الأفهام تتطلع إلى تخليص معاني الوحدة المضيئة من غيوم الكثرة المتلبدة ·

ولقد كان شوقي حريصاً على أن يجمع في شعره الحكيم الكليات السامية التي كانت تخلص له من جزئيات العلم ، وتحقيقات التاريخ ، وعبر الحياة الاجتماعية ، ودقائق أحوال النفس · فكان يقول : « إن الشعر ابن أبوين — التاريخ والطبيعة » وكان يقول :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

وعلى أساس النزعة الفلسفية من التوجه إلى الكليات ، وعلى هذا النحو من تحديده الشعر ، بث شوقي في تشبيهه ووصفه ، واجتماعياته ، وزهادته ، وتدينه ، وتأثره ، كل الأصول التي تتكشف عن الجمال في روعته ، والحكمة في سلطانها ، والفلسفة في روحها ، — والشواهد على ذلك كثيرة ·

* * *

ومنذ القديم راضت الفلسفة أهلها على عادات من التواضع العلمي له أساليبه ، حتى إن الجزم والقطع أكره إلى أكثرهم من التردد والحيرة ، وبخاصة إذا استطالت أذهانهم إلى أعقد المسائل : كالنفس ، والموت ، والحياة ، والحقيقة ، والحكم على قيم الأمور ·

وقد يبدو ذلك التواضع العلمي ويلوح ذلك التحير العقلي في شعر شوقي عن هذه المسائل ، فيقدر مشاق البحث ويعلن العجز عن الوصول

إلى إدراك تلك الأسرار . ويظهر ذلك في مخاطبته للنفس إذ يقول :

ضمي قناعك يا سعادُ أو ارفعي   هـذي المحاسن ما خلقن لبرقع
الضاحيات الضاحكات ودونها   ستر الجلال وبعدُ شأوِ المطلع

***

ذهب (ابن سينا) لم يفز بك ساعة   وتولت الحكماء لم تتمتع
هـذا مقام كل عزٍ دونه   شمس النهار بمثله لم تطمع
ما بال (أحمد) عيَّ عنك بيانه   بل ما (لعيسى) لم يقل أو يدَّع

وإذا مست عبقريته مسألة الموت تحتضن الحيرة شعره وتوضعه روعة ووداعة وتسلياً فيقول :

في الموت ما أعيا وفي أسبابه   كلُّ أمرئٍ رهن بطي كتابه

وكذلك يقول :

يا صاحب العصر الخالي ألا خبرٌ   عن عالم الموت يرويه الألباء ؟
أما الحياة فأمرٌ قد وصفت لنا   فهل لما بعدُ تمثيل وإدناء ؟
بن أماتك قل لي : كيف جمجمة   غبراء في ظلمات الأرض جوفاء ؟

وعند ما يتحدث عن سر الحياة فيما نقرأ له من نثر أو شعر تتحدث معه الحيرة الفلسفية في قلق وصفاء فيقول في الحياة : « قل لمن أطال التفكير ، وبالغ في النكير ، وكدَّ باله ، ومدَّ بلباله ، واحترق احتراق الذبالة :

خل اهتمامك ناحيهْ   وخذ الحياة كما هيهْ ! »

كذلك يقول : « الحق أن افتئات الفلسفة على ضنائن الله سفه .

وأن علم الحياة عند الذي يهبها ويستردها ، والذي يقصرها ويمدها ، والذي يخلقها ويستجدها ، والذي كل حي سواه يموت ، وكل شيء ما خلاه يفوت » .

ويقول عندما يفكر في كنه الحقيقة : « أتينا العناصر من عنصرها ، ووردنا الجواهر إلى جوهرها . اطّرحنا فاسترحنا ، وسلّمنا فسلمنا ، وآمنا فأمنا . وما الفرق بيننا وبينك إلاّ أنك قد عجزت فقلت : سر من الأسرار ، وعجزنا نحن فقلنا : الله وراء كل ستار ! »

وإذا نظر شوقي إلى مسافة تقدير القيم وهي من أهم مسائل الفلسفة الحديثة يبدو تحيره فيما تواضع الناس على رفع قيمته حتى إن عواطفه وتفكيره قد تشككه أحيانًا في قيمة العلم ومظاهره فيقول :

فأفٍّ على العلم الذي تدّعونه إذا كان في علم النفوس رداها

ويقول : « لو طُلب إلى الناس أن يحذفوا اللهو وفضول القول من كلامهم لكاد السكوت في مجالسهم يحل محل الكلام ! ولو طلب إليهم أن ينفوا مكاتبهم من تافه الكتب وعقيمها ، وألاّ يدخروا فيها إلا القيم العبقري من الأسفار ، لما بقي لهم من كل ألف رَقٍّ إلا رق »

على أن لأهل الفلسفة أكثر من أسلوب في استعراض مسائل الكون والحياة وفهمها : فمنهم من يستخدم عقله الخالص في شدته وعنفوانه لينظر إلى الأمور من جهة الواقع المستقل عن العقل ووجوده . ومنهم من يستخدم قوى نفسه جميعًا بما تشمله نفسه من حدة الحساسية

ودقة التفكير ولطف الوجدان لينظر إلى الأمور نظرة تنطبع عليها مسحته النفسية ويربط بين إدراك الأمور وبين حدة حساسيته ولطف وجدانه . وقد يبدو للناظر أن هذا الصنف من النظر موضع للتناقض ، ولكن لو أنصف الناظر لرأى أن للعقل الخالص الجبار أسلوبه الخاص الصالح ، وللنفس الحساسة أسلوبها المميز الكريم : فمنطق العقل الخالص يتحاشى التناقض ومظاهره ، وأما منطق النفس والعاطفة فيسير مترنحاً طروباً ويبدو مضطرباً ، ولكنه بالرغم من مظاهر الاضطراب فنصيبه التوفيق والصواب . وفلاسفة هذا الأسلوب الثاني إنما يدركون الحياة وآثارها النفسية في صورها المتغيرة بتغير شؤونها وثقافاتها وحضاراتها .

وكان شوقي كهؤلاء الفلاسفة يحس بجمال الوجود والحياة المنبث في نواحيَ متقابلة ، فيخيل للرائي أن ثَمّ تناقضاً حيث لا تناقض .

فقد تسمعه يترنم بنغمة المسالم المستسلم الذي يدع الأمور لتصاريف الزمان فيقول :

فدع كلَّ طاغية للزمان ... فإن الزمان يقيم الصعرْ

وقد نسمعه في نغمة المستأسد فيقول :

يا طير والأمثال تضـ ... ـرَبُ للبيب الأمثلِ

دنياك من عاداتها ... ألاّ تكون لأعزل

جُعلت لحرٍّ يبتلى ... في ذي الحياة ويَبتلي

يُرمى ويَرمي في جها ... د العيش غير مغفل
مستجمع كالليث إن ... يُجهل عليه يَجهل

وقد نجد شوقي لا يترفق بمن ينكرون قديمهم فيقول :

لا تحذُ حذوَ عصابةٍ مفتونة ... يجدون كل قديم شيءٌ منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عمّرا !

ثم يقول من ناحية أخرى ليحضّ بشتى الأساليب على السبق إلى التجديد :

قل للشباب زمانكم متحركٌ ... هل تأخذون القسط من دورانه

ويقول :

مصرٌ تجدّد مجدها ... بنسائها المتجددات
النافرات من الجمو ... دِ كأنه شبح الممات

وشوقي يجهر بلذائذ الحياة ونعيمها فيقول :

روّحوا القلبَ بلذّات الصبا ... فكفى الشيب مجالاً للكدر
فصبا الخلدِ كثيرٌ دائم ... وصبا الدنيا عزيزٌ مختصر

وينشد للزهادة والصدّ عن الدنيا فيقول :

ليت شعري إلى مَ تقتتل النا ... سُ على ذي الدنيةِ الفتانه
عالم قُلَّبٌ وأحلام خلقٍ ... يتبارى غباوةً وفطانه

ويقول على قبر نابليون :

يا كثير الصيّد للصِيد العلا ... قم تأمل كيف صادتك المنون

ثم ترى الدنيا كما غادرتها منزل الغدر وماء الخادعين

وشوقي يمجد المال ويعلي شأنه فيقول :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل وإقلالِ
هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا رأياً لرأيٍ ومثقالاً لمثقالِ

ثم يعارض ذلك بقوله :

ولم أرَ مثل جمع المال داءً ولا مثل البخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها كما تزن الطعامَ أو الشرابا

وقد يترنم الشاعر الكبير بجمال القوة فيقول :

ولكن على الجيش تبنى البلادُ وبالعلمِ تشتدّ أركانها

وقد يغرد للسلام فيقول :

(جبريلُ) أنت هدى السما ء وأنت برهانُ العنايه
أبسط جناحيك اللذيـ ن هما الطهارة والهدايه
وزد (الهلال) من الكرا مةِ و (الصليبَ) من الرعايه
فهما لربك رايـة والحرب للشيطان رايه

* * *

يتبين جلياً مما قدمنا أن نفس شوقي الشاعر كانت تتوثب إلى كل ما في الوجود من متنوّع المعاني ، وكان يستفزها معنى الجمال حيث كان وفي أيها ، ومهما تعددت لديها سبله فقرارها عنـد الجمال ومرجعها إليه .

ومثل الشاعر في ذلك مثل الفيلسوف الذي ينفسح له أفق الفروض والآراء فيتسع صدره لمختلف المذاهب وهو يشخص دائماً إلى الحقيقة، وكلاهما يحيره نسق الجمال ونسق الحق ، وكلاهما يرنو للوجود من أنبل ناحيتيه أو من ناحية واحدة ، من ناحية ذلك النسق الواسع الأبدي الأزلي ، من ناحية الله .

إذن كان شوقي يشجي من كل نغمة : يشجي إذا هو أنشد للزهد، ويشجي إذا أنشد للنعومة . يشجي إذا هو تغنى للحرب، وإذا هو تغنى للسلام . يشجي إذا هو حيا الغابر ، ويشجي إذا هو حيا الحاضر .

على أننا إذا ذكرنا موجزين عدة نواحٍ من شعر شوقي يبدو فيها معنى الجمال ونزعاته الفلسفية، فمن الحق أن نشير إشارة خاصة إلى شعره الذي تبدو فيه معاني الذكريات ، تلك المعاني التي تسمى عند الفلاسفة بالزمن النفسي . ولعلي لا أسرف إذا قلت إن مايتجلى منها في شعر شوقي إنما هو صفوة من الشعر الإنساني يهتز له القلب لأنه يفصح عن أخطر ما ما يضمر الزمان ، وعن أصفى ما يمكث من التاريخ :

قم ناجِ جلق وانشد رسم من بانوا ... مشت على الرسم أحداثٌ وأزمانُ
هذا الأديم كتاب لا كفاء له ... رثُّ الصحائف باقٍ منه عنوان

* * *

مررتُ بالمسجد المحزون أسأله : ... هل في المصلى أو المحراب مروان ؟
تغير المسجدُ المحزونُ واختلفت ... على المنابر أحرارٌ وعبدان

فلا الأذان أذانٌ في منارته إذا تعالى ، ولا الآذان آذان

في ذمة الخلد أنت أيها المتغني بالجمال ! وفي ذمة الله يا شاعر الطبيعة والوصف والوجد والذكريات ! نذكرك وليت لنا مواهبك في إحياء الذكرى . نذكرك ذكر من قدرك ، وأعجب بك وتذوق ودك الجميل وكان خليقاً بأن يقابل ذلك الود بتحية صادقة . نذكرك ونحن نوقن أن ما تركت من الذخائر الأدبية الخالدة ستظل متاعاً عزيزاً وأنساً للأجيال ومفخرة من مفاخر الشرق العربي ، فعلى روحك السلام !

مصر : منصور فهمي



أمير الشعراء

احمد شوقي

٢

قصائد الشعرآء فيه

أ



شوقي وابناه علي وحسين

وهم في قصر الحمرآء في الأندلس (اسبانيا)

ما لشوقي من نظير

روّع الشرقَ القضآء   وبني الشرق القدر
حينما غابت ذُكآء   عن بنيها والقمر
وهوى البدر المنير

نضب الشعرُ وغاض الأدبُ   بعد شوقي ودهى الضادَ الجمودْ
وتوارى عن ذويه الحسب   مذ توارت عنهمو تلك الجهود
ومضى الجد وجدّ اللعب   ويعز الجد ما كان الوجود
فاستبدت بالنبوغ النوَب   وبنوه لم يكن فيهم مَرود
وهمو جند أمير الشعرآء

إن شوقي كان للشعر حمي   في بني مصرَ وفي كل بلدْ
وقف الله عليه الحكما   كلما كانت له في الشعر يد
جدّ في السبق فكان العلما   خافقًا فيه ومن جدّ وجد
غيره لم نُلفه إن نظما   مثله ما مثله اليوم أحـد
أوحد الناس أمير الشعرآء

ألبس الشعر لبوسا   من نسيج العبقريه
بعد ما عاش بؤوسا   وبيد اليأس قويـه
عيشتي بعد الأمير

وإذا ما جدّ في حلبته ... فله في حبه أوفى نصيب
خص بالإبداع من نشأته ... فيه والإبداع من شأن الأريب
فسما فاعتز في منبته ... وكذا يعتز في مصر الأديب
هل أبو الطيب في حكمته ... مثله ؟ كلا ولا الطائي حبيب

رجل الشعر أمير الشعرآء

قسماً بالله لولا شعره ... ما دوى في الشرق صوت الأدب
إنه مذ طار فيه ذكرُه ... طار تحت الشمس ذكر الحسب
أترى لو لم يغرد طيره ... غرد ابن الغرب بابن العرب
آه لو يفدى فدته مصره ... إن في ذلك نيل الأرب

أولا يفدى أمير الشعرآء

إن شوقي في البيان ... وحده بيت القصيد
لم يكن دون ابن هاني ... ينظم الدر النضيد

لا ولا دون جرير

وضع القصة في الشعر ولم ... يضع القصة في الشعر لبيد
إنها ثورة فكر وقلم ... خلقا في الشرق للنشء العتيد
ثورة سارت بذكراها الأمم ... من ربى مصر إلى أرض الجليد
تلك لم يخلق لها منذ القدم ... أحد يكبره الرأي السديد

غير من كان أمير الشعرآء

جدد الشعر وفي تجديده ... عاد للشاعر أسلوب الحكيم

إن للتجديد في تقصيده   روعةً لم تكُ في الشعر القديم
وكفاه الجدُّ في تجويده   ولكم جوَّد في الدر النظيم
ذاك ما يدعو إلى تخليده   في بني المشرق من كل عظيم

خلد الله أمير الشعراء

لم يجدد غيرُ شوقي   من أساطين البيان
أحرز السبق بحق   في ميادين الرهان

وبه السبق جدير

درج الناس على أشعاره   من مصبِّ النيل حتى الدجلتين
وجرى النشءُ على آثاره   في ذرى لبنان حتى الغوطتين
ودُعاة الضاد من أنصاره   في ربوع القدس حتى الحرمين
فليجدّ الشرق في إكباره   وبنو الشرق ومن في المشرقين

شاعر الشرق أمير الشعراء

نفثات السحر في تبيانه   معجزات فاقرأوها النفثات
إنما الديوان في إتقانه   خيرُ ما تقرأ فيه المعجزات
نظم الإعجاز في تبيانه   خصها الله بوحي الخطرات
ليس بالطيب في إيمانه   أحدٌ يجحد تلك الطيبات

أو يماري في أمير الشعراء

ذلك الملهم خيرا   حسبها أوحي إليه

لم يكن يضمر شرًّا   رحمة الله عليه

إنه عف الضمير

ليس للبلبل في مصر فننْ   في رياض الأنس من بعد الفقيد
قلب الدهر له ظهر المجنّ   يوم نال البين من ذاك العميد
فإذا غرد في غير شجن   كان في تغريده غير مجيد
أكذا البلبل يرديه الحزن   وله كان بشوقي ما يريد

ليته دام أمير الشعرآء

رزئ الشرقُ به - لا مصره   وحدها - مذ غاله ريب المنون
فتولى عن بنيه أمره   ولأمر الشرق في الخلق شؤون
يا لخطب الشرق يهوي بدره   بينما ترقبه كل العيون
غدر البين وشرٌّ غدره   ببنيه والميامين البنون

مذ شدا فيهم أمير الشعرآء

ما مصاب الشرق إلا   يوم ولى فيه بدره
ليته ما كان ولى   وله في الكون أمره

إنما الخطب خطير

ذاك شوقي، شاعر الحب الصميم   منذ أوحى الله بالشعر إليه
إنه في شعره جدٌّ حكيم   إنما الحكمة مرمى أصغريه
أنا ما ألفيت من درٍّ نظيم   غير ما تنظمه كلتا يديه

وبما أوتيه من ذوق سليم   كان وحي الشعر موقوفاً عليه

مهبط الوحي أمير الشعراء

عرف الإلهام والوحيُ له   جهدَه والدين والذكر الحكيم

والهدى أكبرَ فيه نبله   ومن النبل به الخلق الكريم

والنهى لم يُطرِ إلا سبله   سبل شوقي كل ما فيها قويم

أسبغ الله عليه فضله   في جنان الخلد في دار النعيم

موئل الفضل أمير الشعراء

مصره والنبل نبله   ما شدت إلا بذكره

ليس تحت الشمس مثله   يخدم الضاد بشعره

ما لشوقي من نظير

حسان فلسطين

يافا :   أبو الإقبال اليعقوبي

طائر الوادي



أحمد الكاشف

أأنت مجيبي إنْ دعوتك باكيا ... وهل لدموعي أن تردَّ العواديا

مرضتَ ولم تشغل طبيباً وعوَّداً ... ولم يوكَ السُّمار والأهل شاكيا

وشئت بجهد الشيخ مقدرة الفتى ... تعجلُ موعوداً وترجع ماضيا

وتجمع في ساعاتك العمرَ كله ... لتختم تاريخاً من المجـد عاليا

وقد نازعتك العلةُ اليدَ والخطى ... ولو عشت عاماً نازعتك القوافيا

مضى زمنٌ لم أنتقل فيه مرة ... إليك وبي من لاعج الشوق ما بيا

وكم جاءك العذال يتهمونني ... وعندك أني لا عليَّ ولا ليا

فلما انطوى ما كان دونك حائلاً ... وقربت الأقدار تلك المراميا

مضيت فلم آنس بعتبك ساعة ... ولم أتزود من رضاك ثوانيا

ولم ينأ عني الركب بالراحل الذي ... تقدم حتى كان ركبك تاليا

فلا أنت فيه سامع ما أقوله ... ولا أنت دارٍ بالذي في فؤاديا

أفي كل يوم يأخذ البين من يدي عزيزاً ويطوي من رفاقيَ غاليا
وكيف التأسي الآن عمن فقدته وقد نال مني الموت ما كان باقيا
وقد يجد الأحياء عندي مكانهم ولست عن الموتى بمن عاش ساليا
فيا طائر الوادي ويا شاعر الحمى ذهبت فأوحشت الربى والمغانيا
وولت لياليك الحسانُ ومن لنا ومن لسوانا بالمعيد اللياليا
وجزت المدى المأمول من كل طيب من العيش واستقبلت عقباك راضيا
وقد زهدت في الملك نفسك واكتفت بما كنت من أوطارها أمس قاضيا
أتمتلئُ الدنيا بما أنت قائل ويصبح في الدنيا مكانك خاليا
وخلفك من مجد التراث قصائدٌ يزول تراثُ الناس وهي كما هيا
بعثت بها في العالمين مدائناً روائحَ في حسن النجوم غواديا
وقد جئت بالآيات فيها حدائقاً كما جئت بالأمثال فيها أغانيا
وما كان هذا الشعر توحيه صادقاً إلى الخلق إلا الروح تجريه صافيا
رعى الملك المحبوب قدرك عنده وعزى رجال الشعر فيك مواسيا
وصانت لك العهد الحكومة كابراً وأدى إليك الشعب أجرك وافيا
وهل كرمت تكريمك الفخم فاتحاً بلادك أو أعطت مقامك غازيا
توالت عليها الرسل من كل أمة وقد حملوا منها الأسى والتعازيا
وفوداً من الشرق الممثِّل فيهم حواضرَه في حزنها والبواديا
يطوفون أفواجاً بقبرك خشعاً وكم دخلوا قصراً عليك وناديا
مطيلين من ذكراك حتى تكاد من وفائهمُ ذكراك تحييك ثانيا

وكادوا بنجواهم يرونك بينهم | وإن كنت عنهم غائباً متواريا
ويرتد هذا المأتم اليوم موسماً | لمصر وترتد المراثي تهانيا
ومن كان يرجو أن يرى بعد موته | حياة فهذا فوق ما كنت راجيا
تعال تصف الدار التي أنت صائر | إليها وما أصبحت فيها ملاقيا
وهب كل سمح من صحابك بعض ما | تناولته حياً وأدركت ثاويا
أرى شعراء العصر بعدك كلهم | سواء ولست المستخار المحابيا
لكل فتى وجدانه غير حاسب | على قلبه يوماً أميراً وواليا
فلا يرسل الأشعار يطلب خلفها | جزاء ولا فيها يساوم شاريا
وقد عاد في الشرق الشقي بشعره | سعيداً به في العالمين مباهيا
أريتني الأجيال في الأرض كلها | ضروباً وما فارقت في الريف داريا
وأشهدتني مجرى الحياة ولم تزل | تريني وإن مت المدى والنواحيا
وأي مفيد لم يكن منك آخذاً | وأي مجيد لم يكن لك حاكيا
وفنك فني واسمك اسمي ومن أتى | بآلك مصراً أمس جاء بآليا
أعزتني القربى إليك وضاعفت | إمارتك الكبرى علي اعتزازيا
وإني وإن أدركت للشعر دولة | لغير ملاق مغنياً عنك كافيا

مصر (القرشية): أحمد الكاشف

———

ذات القوافي والبحور



يا فتاة العرب :

شاعرُ العرب قضى

فالبسي ثوب الحداد

وابرُزي بين الملا

واندبيــه حاسره

زحزحي هذا النقابَ

لنرى وجه الحزينِ

أعرضي عن خفرٍ عوّدتِه

فعيونُ القوم غرقى في الدموعِ

إسعاف النشاشيبي

شيعي دمعك هذا قانئاً بنحيبٍ ونشيجٍ وعويل

وابذلي الدمع رخيصاً إن من تبكين غالِ

واحشدي كل بنات العربِ واندبيه ناشحاتٍ سافراتِ

وذري الترب يبيساً يرتوي من عبراتِ

أذكريه أندبيه أبّنيــه براثٍ مشجياتٍ خالداتِ

بلبلُ الكرمة ولّى أين غاب البلبل ؟

غادر الطير ثكالى في حنينٍ وأنينٍ وشجى

زهر (الكرمة) يبكي بدموع ظاهرات في الصباح
فني (الكرمة) آس لااهتزاز لا ارتياح لا طرب
بهجة زالت وجاءت وحشة وعرا (الكرمة) حزن لا يريم

يا فتاة العرب :

مدرة العرب قضى فالبسي ثوب الحداد
من يكف الخصم إما يجتري ومع الخصم ظهير ونصير
من لشغب قد بدا من مشغب يرتجي شراً لأحياء العرب
من يبيد البطل في الناس مشى ويبين الحق يهدي الحائرين
إين شهباً جحج قد درأت لدد الخصم عنيفاً نخنع
أين صوال على الظلم ضحى قدع الظلم شباه فانقدع
من لغرب عاسف مغتصب لص حق العرب في الصبح المبين
يا حليفاً والعا ما إن له أبد الآباد عهد أو يمين
جيت كذاباً وجينا عرباً ومشى اللؤم مع الخيم الكريم
خاس هذا الغرب بالعهد ولم يتثبت من دنس الغدر الذميم
داعر . فسق وشر كله دعر جسم مخلوقاً يهيم
أيها الظالم أرهق سادراً سيري الظالم عقبى الظالمين
قد هدانا (أحمد) منهاجها سنلبي (أحمد) في كل حين
علم الأقوام قول بين خطة الإعتاق من رق مهين

عبقريّ الشعر ولّى فالبسي ثوب الحداد
طرفة الدهر التي ضنّ بها ألف حول ثم جاد
(أحمد) عاد وعاد (البحتري) ورأى القوم (حبيباً) يبدع
لا شكسبير ولا دنتي ولا غوتي قد فضلوه
هذه آثارهم ظاهرة هذه آياته بينة
عاشق الغرب اتئد لا تفتتن بغريب قد طغت فتنته
أنصف القوم ولكن لا تضع حق ذي حق سنت حجته
مبدع في كل قول قاله في نشيد وقصيد ورواية

نوّر القرآن قولاً فعلا وسما صاحبه في القائلين
إنما القرآن هدي الناطقين إنما القرآن نور العالمين
غث قول لم يهذبه «الكتاب»

عبقريات تجلت للورى يا لها من فاتنات ساحرات
فاتت الحسن ولاحت عجبا هل رأيت الحور في دار النعيم
هل رأيت الحور في جنة عدن
ابنة الدهر ثباتاً وخلودا ونشيد الدهر حزناً وحبورا
كم من أهرام رست ثم عفت وكلام عبقري لن يبيد

رقية سحر نعيم ولظى جنة العرب جحيم الغاصبين
إنه الإعجاز قسم الأحدين إنه الإبداع حظ المبدعين

رب أحقاب تقضت ما رأت   عبقرياً في شؤون أو فنون
آه من دهر خبيث ناقد   باخل بالعبقريين ضنين
ويكأن الدهر يخشى النابغين   فقليلاً في الدجى ما يسفرون
وبكأن الدهر يخشى الخالدين   فهو لا يبدئهم في كل حين

إنما الدهر خصيم العبقري

غادة الضاد رزاها رازئ   وهي في سلطانها
بزها أوحى بنيها نجدة   وفتى فتيانها
ما رأى الرائي كشوقي فارساً   جال في ميدانها
خافه الصنديد لما أن مشى   في سنى قرآنها
أبسل الأقوام في يوم علا   وحمى شجعانها

أبو علي قد ثوى   يا بنات العرب
مفخر العرب قضى   يا بنات العرب
فتاة العرب واجمة   فتاة العرب ذاهلة
فتاة العرب والهة   فتاة العرب باكية

فتاها (مفخر العرب)

يا بنات العرب أين المنجدات   بدموع في الضحى منحدرات
يا بنات العرب أين النادبات   في المناحات تثير الحرقات

يابنات العرب أين المسعدات ... في الرزايا النائحات الثاكلات
من لنا قد صبحتنا الكارثات ... (والدواهي في الورى مختلفات)
هل لنا إلا (اللواتي) مسعفات ... من لنا في الحزن إلا (فاطمات)
آويات للهيف راثيــات ... آسيات للجراح الداميات
أبو علي قــد ثوى ... يا بنات العرب
ياشموساً في الليالي الداجيات ... فبـكاء ونحيباً وعويلا

القدس : ... إسعاف النشاشيبي

امير الشعر

مصيبة أمةٍ ، وأنا المصاب   شهدت لقد مضى الأدب اللباب
أيفزع من صليل السيف قومٌ   بغير نفوسهم فتك الضراب ؟
سلوا البطل الصريع بأي جرحٍ   رمى كبدي ، ففي فمه الجواب
وبين جوانحي حرّانُ هافٍ   تمور على جوانبه الثياب
دعوا ذكر الفجيعة واستفيقوا   أنا المفجوع لو وضح الصواب
ومن جهل الوغى اشتبهت عليه   ذئابُ القفر والأسد الغضاب
أقام مع الخوالف ما يبالي   أطاح السيف أم هلك القراب
(تراث العرب) عاث الدهر فيه   (وملك الضاد) عاجله التبّاب
تهول النائبات ولا كملك   يهال على حضارته التراب

* * *

أناةً أيها الحادي فإنا   وجدنا منك ما تجد الركاب
غليل جوانحٍ وجوى قلوبٍ   تسيل بها المسالك والشعّاب
نرجي أن نعوج ولا مَعاجٌ   ونطمع أن نؤوب ولا مَآب
وما تبقى القلوب ولا المآقي   إذا ذهب الأحبة والصحاب

* * *

عُباب العبقرية جنّ حتى   تداركه من الموت العباب

ترشف موجه قدرٌ مهول　　كأن اليمّ في فمه لُعاب
تدافعت الخضارم تتقيـه　　وأجفل من مخافته السحاب
تموت على جوانبه الضواري　　وتهلك في غواربه الذئاب
ترى الأجيال تسقط فيه غرقى　　كأن شخوصها القصوى ذباب

* * *

ألا ليت المنون تجاوزتـه　　إماماً ما تجاوزه النصاب
بفيه من البيان العذب وِردٌ　　تطيب نِطافه والعيشُ صاب
وفي يده من الريحان عودٌ　　كأن مِداده الذهب المذاب

* * *

(أمير الشعر) هل لي منك صوت　　يريح النفس ام طوي الكتاب
رأيتك والمنيـة ملء عيني　　وفي لحظات عينيك اضطراب
رجعت وكل غادية نذيرٌ　　يضج وكل رائحة غراب
أرى الدنيا مقابرَ والمنايا　　على أمم البيان لهـا انصباب
لقيتك شيقاً وأرى شفائي　　غداةَ يُتاح لي منك اقتراب
إذا لم يغترب لأخيك ودٌّ　　فليس بضائرٍ منـه اغتراب
شباب الفن كنت له جمالاً　　فزال جماله ومضى الشباب
رأيت القول يكره منه بعضٌ　　وبعضٌ يستحبّ ويستطاب
وقولك كله لا عيب فيـه　　وهل في الوحي من شيءٍ يعاب
برعت فكنت ملء الدهر خلداً　　وكل براعـة لخلد باب

ولم أرَ محسناً لم يألُ جهداً | فأخطأه الجزاء أو الثواب
شربت العيش كأساً بعد كأس | فلم تدم الكؤوس ولا الشراب
شراب الموت ماذا ذقت منه | وكيف يكون إن رفع الحجاب
نعمت به فصفه لنا وحدث | أتصفو الكأس أم يحلو الحباب
عهدتك أبلغ الشعراء وصفاً | وأصدقهم إذا كره الكذاب

* * *

ستذكرك السواجع في رباها | وتذكرك الأماليد الرطاب
وتهتف باسمك الدنيا فتبقى | ومثلك ليس يدركه الذهاب
لكلٍ من بيانك مستزادٌ | ومنتجعٌ جوانبه رحاب
فمعتركٌ بـه عينٌ وجيدٌ | ومعتركٌ به ظفرٌ وناب
وتبصرةٌ الحكيم إذا تناهى | وأسلمه التلمس والطلاب
وما أمر الشعوب بمستقيمٍ | إذا لم يستقم خلقٌ وداب

* * *

حللت (الكرمة الكبرى) فحيت | ورحبت المنازلُ والقباب
إذا غرّدت ماج بها رفيفٌ | وصفق حولك الصحب الطراب
تضوع في مغاني الخلد طيباً | وحي بها الألى نعموا وطابوا
صفاء العيش في الدنيا مشوبٌ | وما في الخلد من صفو يشاب

* * *

أتابع إخوتي وبقيت وحدي | أسائل أيةٌ ذهبوا فغابوا

همو نفضوا الهموم عليّ حتى تظاهرت الفوادح والصعاب
وهم وضعوا الأمانة فاستراحوا وراحت تميل بي وبها العياب
سأحفظها على نعرات قوم هم المدّام لو كشف النقاب
لنا في قومنا الأدب المصفى وللقوم النفاية والجباب
قوام الشعر أفئدة حداد مثقفة وألسنة عذاب

* * *

أبى أن يترك الأحياء رامٍ يصيب العالمين ولا يصاب
قذوف بالمنازل ما يبالي تناهي الوجد أم بلغ العذاب
نجيب النازحين إذا دعينا وندعو الأقربين فلا نجاب
قضاء الله فيك (أبا علي) وللدنيا بأهليها انقلاب

* * *

أما ورفاقنا النائين عنا لقد بعثوا الديار بمن أنابوا
لئن وفدت غياط (دمشق)عجلى لقد خفت (بلبنان) الهضاب
هم الأهلون أحداثاً ودنيا وفي الأحداث والدنيا انتساب
نسر إذا همو فرحوا ونبكي إذا ما كان همٌّ واكتئاب
علينا الشكر مطرداً يؤدى أداء الدين ضاق به الحساب

دمنهور : أحمد محرم

من حافظ الى شوقي



أمين ناصر الدين

أشدتَ بذكري يوم قلتَ رثائيا
فيالي َ مرثياً ويالكَ راثيا

وكنت عظيماً إذ وددت لو انطوى
عليك الثرى قبلي فأرثيك آسيا[1]

ولكن أبى عدل الردى أن يفوتني
من الحظّ ما قد فاتني في حياتيا

نشدتُ المنى حياً فعزّ منالها
ومتُّ فأولاني رثاك الأمانيا

ورفّهَ عن جسمي فلم يُعيه الثرى
وأسعدني حتى نسيت شقائيا

ولو ردّ تأبينٌ على الجسم روحه
إذاً لرأوني عند نعشك جاثيا

وأخلدني ما قلتَ فيَّ فكلما
تولى زمانٌ بتُّ أرقب آتيا

تخذتَ يداً عندي بما قد رثيتني
وما أنا ممن يجحدون الأياديا

---

(١) إشارة إلى قول شوقي في رثاء حافظ :

قد كنت أوثرُ أن تقولَ رثائي
يا منُصفَ الموتى من الأحياء

ووددتُ لو أني فداكَ من الردى
والكاذبون المرجفون فدائي

فناجتك روحي بالرثاء كئيبةً ولو ملكت دمعاً لأجرته قانيا
لئن فرّقتنا نبوةٌ في حياتنا لقد أصبحت بعد الممات تآخيا [1]
وأحسنُ ما في فاجع الموتِ كونه لما خطّ في طرس الضغينة ماحيا

* * *

نعتك لهذا الناس مصرُ وإنما نعت علم الفضل الذي كان راسيا
نعتك كما تنعى السمواتُ بدرها إذا ما رأته ليلة التمّ هاويا
نعت شاعر الوحي الذي عطلت له وأصبح فيها مهبط الوحي خاليا
نعت أدباً في الأرض أسرى من الضيا إذا صدع الصبحُ المبين الدياجيا
نعت شعر جيلٍ واضحَ النهج رائقاً تنضدَ في سمط البيان لآليا
رصيناً نقيّ المستشفّ مسلسلاً كما سال فوقَ الفضةِ الماء صافيا
يهزّ الألى يتلونه فكأنّ في تفاعيله للكهرباء مجاريا
رأيتك تزجيه أفانينَ غضةً وترسله حيناً قناً ومواضيا
وطوراً كما لاح الوميضُ وتارةً صواعقَ يصرعنَ الظلوم عواتيا
وروحك في أعجازه وصدوره تجدّدُ فيه كلّ يوم معانيا
وكنت متى يتلُ الملائك آيهم تُعدْها على سمع الزمان قوافيا
شواردَ يهبطن المواطن من علٍ روائحَ في آفاقها وغواديا
قوارعَ للأسماع ينفثن حكمةً أوامر للألباب طرّاً نواهيا
نواطق بالفصحى سواكب للنهى ضواحك أحياناً وحيناً بواكيا

(١) إشارة إلى ما كان يقع أحياناً بين شوقي وحافظ من التجافي

دواني من فهم الأديب فإن يرم ... محاكاة مبناها يجدها قواصيا
جوامعَ للفظِ الذي راق سبكه ... حوافل بالمعنى البليغ حواليا
أمالت أفانينَ الأراكِ فنونها ... وأسكنت السحر العيون السواجيا
إذا ما الغواني استقبلت رونق الضحى ... حسبن الضحى مما وصفت الغوانيا

* * *

أشوقيُّ هذا النيل بعدك قد جرى ... لينعاك بحراً بالبلاغة طاميا
وهذي رياضُ النيل لا عطفَ بانها ... يميس ولا الشادي يساجل شاديا
وهذي ربوع القطر كدن من الأسى ... عليك يحاكين الطلول البواليا
وتلك سماه تذرف الدمع أنجماً ... ألست ترى نهر المجرّة طاغيا
وهذا شآميٌّ تفيض شؤونه ... وذاك عراقيٌّ يعزي يمانيا
كسوت عذارى الشعر وشياً شققنه ... لمنعاك حزناً فانثنين عواريا
إذا ما وردن النيل ينقعن غُلةً ... تذكرن شوقياً فعدنَ صواديا

***

وفيتَ لإسماعيل ثم لنسله ... فكنت مثالاً للمروءة عاليا
وأحببت مصرَ مخلصاً لا مصانعاً ... وغِرت عليها صادقاً لا مداجيا
وعلمت ذا جهلٍ ونبهت غافلاً ... وقومت مُنآداً وأرشدت غاويا
ونوّهت في العصمِ الروائع باسمها ... فما لبثت أن سنّمتك المعاليا
وعدّتك قطباً تمّ حياً وأعلنت ... بفضلك وهي اليوم تبكيك ثاويا

ولم أرَ فيها بانيًا ما هدمته ... ولا هادمًا ما كنتَ في الشعرِ بانيا
وكانت برودُ (الضاد) قد زال وشيها ... فطرّزت بالإبداعِ منها الحواشيا
تحدّاكَ بالتهجين قومٌ وهل لهم ... سبيل إلى أن يجعلوا الصبح داجيا
وأن يخفضوا الجوزاء عن مستقرّها ... من الأفق أو أن يجعلوا العضب نابيا

* * *

يكاد ضريحٌ وسدوك ترابه ... يضيءُ فيمسي للذي ضلّ هاديا
وإن زاره الغادي وقد طلّة الندى ... لدى الفجر خال الفجر بعدك باكيا
أطاف به صيّابةُ القوم خشعًا ... يحيون منه هيكل الشعر ساميا

* * *

ستجمعنا في الخلدِ أنضرُ روضةٍ ... تدفقَ فيها الكوثر العذب جاريا
«وقد يجمعُ الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا»
ومثلك بالذكرى يعيش لقومه ... فأيسر ما تدنو إذا كنت نائيا

عن روح حافظ
أمين ناصر الدين

كفرمتى — لبنان :



القمر يغيب

عجيبٌ أن يغيبك الترابُ ودونك أيها القمر السحاب
فليت الحامليك دروا يقيناً بمن ذهبوا هناك وكيف آبوا
سروا يتخبطون وأنت نورٌ وقد تاهوا وأنت لهم شهاب
تدافعت الصدورُ على سريرٍ تقبله المناكبُ والرقاب
وحلّق في السمآء فما درينا أنعشٌ حين حلق أم عُقاب
مصائبنا إذا عدّدت شتى وأعظم ما دهى هذا المصاب
فما اضطربت بلاد أبيك إلا وفي أرجائنا وقع اضطراب
لسرّك أن تكون لنا قلوبٌ بهن يجيش هذا الإنقلاب

***

بشعرك وهو معجزةٌ ووحيٌ ومعجزةُ الرسول هي الكتاب
لقد خضعت لإمرتك القوافي فكان جزآءَ طاعتها الثواب
رأيت الناشزين قد استكانوا فسامحهم فقد ندموا وتابوا
لمن خلفت تاجك وهو نورٌ يضيءُ وكلٌّ إكليل تراب
أنعصبه على أحدٍ جزافاً ونأمن أن يثور الإعتصاب
سنحفظه لجيلٍ سوف يأتي ونظفره متى ظفر الشباب

أراكَ سكنتَ يا بحرَ القوافي ... فأين هديرُ موجِكَ والعبابُ
نظمتَ فكلُّ رائعةٍ سيوفٌ ... وقلتَ وكلُّ قافيةٍ حِرابُ
إذا حضر الألوفُ ولستَ فيهم ... فلا عددٌ هناكَ ولا نصابُ
أأحمدُ شبّهوكَ بشكسبيرٍ ... ولو عكسوا لقلتُ إذاً أصابوا
فأنتَ وإن أتيتَ لنا أخيراً ... لشعرِكَ فيه آياتٌ عجابُ

* * *

أعائبةٌ كفرتَ فأيُّ معنىً ... يُذَمُّ وأيُّ قافيةٍ تعابُ
أبو الشعراءِ أنتَ أبا عليٍّ ... وأنتَ السيفُ خبّأهُ القرابُ
وأنتَ تراثُ أجيالٍ تولّت ... وأنتَ أجلُّ ميراثٍ يصابُ
سألتُ الشعرَ ماتَ فقيلَ كلّا ... وقلتُ لهم يعيشُ فما أجابوا
إذن فالشعرُ بعدَ أبيهِ حيٌّ ... يشرّفنا إليه الانتسابُ

* * *

حسبتُ الموتَ لا يأتيهِ وهناً ... ولكن ضاعَ في القدرِ الحسابُ
رأى في نفسهِ سرّاً عجيباً ... تليقُ به الكواكبُ لا الهضابُ
فمدَّ إلى أميرِ الشعرِ كفّاً ... لترفعَه كما ارتفعَ السحابُ
أيا كفّاً غصبتِ الشرفَ مجداً ... أثيلاً كيفَ جازَ الاغتصابُ

* * *

نظمنا الشعرَ فيكَ فمن ثناءٍ ... يسرُّ ومن رثاءٍ لا يشابُ
فأكبادٌ مروّعةٌ حِرارٌ ... وألسنةٌ معطّرةٌ رطابُ

أقمناها مآتمَ صارخاتٍ يطول بها عليك الإنتحاب
كأنك والمحافلُ حاشدات وقفت وأنت شاعرها المهاب
إذا نظموا فروحك في القوافي وإن خطبوا فمعناك الخطاب

* * *

إذا اشتركت بمأتمك الغواني فإن شريكة الرجل الكعاب
طلعن على نعيك حاسراتٍ وما اختلف الشعور ولا الحجاب
فواحدةٌ هناك بلا نقابٍ وأخرى صان طلعتها النقاب
لطمن الورد وهو هنا خدودٌ مضرّجةٌ يموج بها الشباب
ومزقن الغلائل عن فتيقٍ تنمّ على نوافحه الثياب
وكفكفن الدموع فكم فتاة على وجناتها ذهبٌ مذاب
وأصبحت المجالس صامتاتٍ فلا عودٌ يجسّ ولا ربَاب

* * *

رأيت الشوق هزّ أبا عليّ وقد ضاقت به الفسح الرحاب
تمثل حافظًا قمر النوادي فأشرق ثم عاجله الغياب
فأدركه كضوء الشمس حيًا وحياه كما التمع السراب
وناجى فجر طلعتـه بثغرٍ يفيض على ابتسامته العتاب
وقبّله وفي عينيه دمعٌ وفي أعماق مهجته التهاب
فحسبهما عناقٌ مستمرٌ وحسبهما حديثٌ مستطاب

***

تُرى يأتي لكرمته ابنُ هاني | فيُعصر من روائعه الشراب
أبعد البلبل الصيداح فيها | يصيح على جوانبها الغراب
نعم قد غاب صاحبها مشيحاً | عن الدنيا كمن ذهبوا وغابوا
مضى لا يستقرّ على مهادٍ | فقل كيف استقلّ به الركاب
فصبراً أمـةَ الشعراء حتى | يكون إلى زعامتك المآب

بغداد : باقر الشبيبي

———

في ربى الخلد


بشارة الخوري

قِفْ في رُبى الخُلْد واهتف باسم شاعرِهِ
فسِدْرَةُ المنتهى أدنى منابرِهِ

وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت
أشعة الوحي شعراً من منائره

إلهة الشعر قامت عن ميامنه
وربة النثر قامت عن مياسره

والحور رقصت شذوراً من غدائرها
وأرسلتها بديلاً من ستائره

أتراب مريم تلهو في خمائله
ورهط جبريل يحبو في مقاصره

والملهمون بنو (هومير) ماتركوا
لما أهلّ لهم سجعاً لطائره

* * *

قال الملائك: من هذا؟ فقيل لهم:
هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظره

هذا الذي نظم الأرواح فانتظمت
عقداً من الحب سلك من خواطره

هذا الذي رفع الأهرام من أدب
وكان في تاجها أغلى جواهره

هذا الذي لمس الآلام فابتسمت
جراحها ثم ذابت في محاجره

كم في ثغور العذارى من بوارقه وفي جفون اليتامى من مواطره

* * *

سل جنة الخلد كم ودت أزاهرها لو استحالت عبيراً في مجامره
وصادح الطير لو سالت حناجرها مع الصباح نشيداً في مزاهره
والزهر لو كنّ أزراراً مفضضةً على الذيول الضوافي من مآزره

* * *

شوقي ! .. سلوا الأفق هل ثارت عجاجته لما ثوى المتنبي في حفائره
شوقي ! .. سلوا البحر هل جنت عواصفه لما كبا بابن سينا جد عاثره
شوقي ! .. سلوا الليل هل كانت كواكبه لما قضى غير شوقي في نواظره
في مأتم الشعر والأقلام مطرقةٌ فإن أرادته غصت في محابره

* * *

ما بلدةٌ سعدت بالنهر يغمرها بكلّ أزهرَ حالي العود ناضره
بالبلبل المتغني في ملاعبه والسنبل المتثني في غدائره
بالحقل ترعى به القطعان هانئةً والنحل يُرضع من ثديي أزاهره
يستقبل الفجرَ أهلوها بغرنه ويغرقون الليالي في سرائره
ناموا على مُرر الأعراس وانتبهوا على صباحٍ بكيٍّ الطرف غائره
على مأتمٍ من طيرٍ ومن شجرٍ خرساء كالقبر غرقى في دياجره
يا للرزية ! ... غالَ النهرَ غائله وغار في لهواتٍ من هواجره
فلا الصباح ضحوكٌ في شواطئه ولا المساء لعوبٌ في جزائره

وأسلم الزهرُ أجياداً منضرةً … للشوكِ جفت على دامي أظافره
والناسُ في غمرةٍ عمياء لا وترٌ … لناشـديه ولا نجمٌ لسامره
ما الخطبُ بالنهر مجري الروح في بلدٍ … فردٍ رقيق حواشي الذكرِ دائره
كالخطبِ يذوي له كونٌ بجملته … إذا أصاب الردى شعباً بشاعره

***

ما للملاعب في لبنانَ مقفرةً … وللمناهل عُطلاً من حرائره
وللمآذن في الفيحاء كاسفةً … كخاشع السر في داجي مقابره
وللأصائل والأسحار أثخنهـا … عاتٍ من الريح إرهاقاً بحـافره
وللجداول أناتٌ مجرحـةٌ … كأنها حملٌ في كف ناحره
وللندى في الثرى جهشٌ ووسوسة … كأنها همساتٌ في ضمائره
أودى القريض فللأحزان ما لبست … على سرير الدراري من عباقره

***

تغرب الحسن والإحسانُ فالتمسا … وجهاً من الارض هشاشاً لزائره
لا يستوي المجدُ إلا في مفارقه … ولا يصفق إلا في ضفائره
ما غادرا بلداً إلاّ إلى بلدٍ … والحرُ يلهب من خديّ مسافره
حتى أطلاّ على مصرٍ فراعهما … مازخرفَ النيل من إبداع ساحره
فألقيا بعصا الترحال واعتصما … بضفتيه وهاما في حواضره
فأطعم الجودُ من كفي قساوره … وأشرب الحسنُ من عيني جآذره

***

يامصرُ ما انفتحت عينٌ على حسنٍ إلا وأطلعت ألفاً من نظائره
ولا تفتقت الأفكار عن أدبٍ إلا وأنبتِّ روضاً من بواكره
لبنانُ يا مصرُ مصرٌ في مآتمه كما علمتِ ومصر في بشائره
هل كان قلبك إلاّ في جوانحه أو كان دمعك إلاّ في محاجره
أو كان منبت مصرٍ غير منبته أو كان شاعرُ مصرٍ غير شاعره

***

شوقي أتذكر إذ (عاليه) موعدُنا نمنا وما نام دهرٌ عن مقادره
وإذ طلعت علينا أصفراً وجلاً كالنجم خلفَ رقيق من ستائره
ونحن حولك عُكافٌ على صنمٍ في الجاهلية ماضي البطش قاهره
وأنت تحت يد الآسي ورأفته وبين كل ضعيف القلب خائره
ولا بتسامتك الصفراء رجفتها في مثلها من كليل الطرف حائره
سألتنيةِ رثاءً... خذه من كبدي لا يؤخذُ الشيء إلا من مصادره

***

قيثارةَ النيلِ كم غنيت قافيةً في مسمع الدهر مسراها وخاطره
لو عاد فرعون كانت من ذخائره أو ختم الخلدُ كانت في خناصره
لكنّ ربك لم يؤثر بها أحداً سوى (فؤادٍ) عماد الملك ناصره
إرثٌ لفاروق صان الله مهجته وطائرٌ كم حكى عن سعد طائره

(الأخطل الصغير)
بشارة الخوري

بيروت :

الفجيعة

فقدت مصر فهي ثكلى المآقي ... كوكبا في سمائها ذا ائتلاق
كوكبا كان يرسل الشعر نورا ... ثم يرمي به على الآفاق
خر من جوه الرفيع صريعا ... لا السني يحميه ولا الشعر واق
أيها الكوكب انطفأت بليل ... بغتة بعد ذلك الإشراق
أيها الليل هل وراءك صبح ... مؤذن بعد ريثه بانفلاق

***

فجعت مصر بابنها البر (شوقي) ... فهي ثكلى كثيرة التشهاق
صب يشوي على العراق شواظا ... رزء مصر ومصر أخت العراق
كان روض وكان زهر وصداح ... فما منها اليوم شيء باق
أيها الروض إنك اليوم أوراق ... تهاوى سفعا على أوراق

***

يوم صاح النعي قلت له نبأ ... فما هذا منك غير اختلاق
ثم لما أدل أطرقت حتى ... مل شمس النهار من إطراقي
فلقد كنا شاعرين على ما ... بيننا من تفاوت الأذواق

***

أيها الموت ما لنا منك بد ... كلنا هالك وأنت الباقي

أيها الموت أنت آخر سهمٍ   من سهامٍ لها الحياةُ تلاقي
أيها الموت قد خطفتَ تِباعاً   واحداً بعد واحدٍ من رفاقي
ذهبوا مكرَهين من غير عودٍ   وقريبٌ بالذاهبين لحاقي
أنت كفُّ القضاء تضرب من شا   ء وسيف القضاء في الأعناق
غلتَ بالأمس حافظاً وبشوقي ال   يوم أنشبت الظفر للإلحاق
إحتججنا لما عصفت بشوقي   أنا والشعرُ والهوى باتفاق

***

بعد شوقي يا لهف نفسي عليه   أخفق الشعر أيما إخفاق
لا ترى اليوم منه إلا رماداً   بعد نارٍ من الشعور حراق
سرت عنا فمن تركت على الأخ   لاق عيناً يا شاعر الأخلاق
كان هذا الذي به كنت تشدو   بعضَ دقات قلبك الخفاق
تلك أنفاس منك تصعد حرّى   وأنينٌ يأتي من الأعماق
كل ما قلته لآلئُ إلا   أنها لا تباع في الأسواق
وسيبقى على الزمان جديداً   أدبٌ صنته من الإخلاق

***

أنت ما إن فارقتنا لمعاد   نتسلى به [illegible]
أنت ما كنت بالحمام خايقاً   فيوافيك [illegible]
أيها الراقد الكريم بقبرٍ   [illegible] في قبرك [illegible]
إن في أنفس المحبيك منا   زفراتٍ [illegible]

وعليك القلوب ذابت أسى ثم جرت أدمعًا من الآماق
كنت ترتاب في؟ فاسمع أنيني اليوم حزنًا عليك واسمع شهاقي

***

بأبي ذلك الوجه قد بات يذوى تحت ما للثرى من الأطباق
ليس لي ما أهدي إليك سخيًا غير شعري ودمعيَ المهراق
إنما أنت للخلود بما أبـ قيت للناس من قريضٍ راق
أنت فانٍ وخالدٌ في زمانٍ أنت جسمٌ يبلى وذكرٌ باق
أنت من مصر مثل دمعة ثكلى بين أهداب العين والحملاق
كنت إما ألقيت في مصر شعرًا رنّ يرغو صداه في الآفاق
نسبك المعنى البكر في خير لفظ فبه يحلو لي وخيرِ سياق
لم نبلغ من الرسالة شيئًا غير إلمام قلبك الخفاق

***

كل حيٍّ فإنما هو يومًا سيلاقي من الردى ما يلاقي
كل داءٍ فإنه لاصطياد الـ روح منا ضرب من الأهواق

...

قد أبى الجسم أن تفارقه الرو ح فقالت لا تخشينّ فراقي
أنا يا جسم لا أطوف على غيـ رك فيا إذا فككت وثاقي
ثم حمّ الفراق فافترقا بعـ د وداعٍ برحٍ وبعد عناق
ثم راما تلاقيًا وإذا المو ت فراقٌ ما بعده من تلاق

رب قبر به صدى لحياةٍ ليس يروى من وابلٍ غيداق

* * *

ولقد كنت في قريضك ترجو ما لحقٍّ أهين من إحقاق

نبض الشعر منك فيها إليه مصر كانت تحتاج من إشفاق

ولعمري قد كنت أول من يد مغ فيها سياسة الإرهاق

فلقد كنت ذا يراعٍ ذليقٍ هو أمضى من السيوف الرقاق

بك كانت إمارة الشعر تزهو مذ تقلدتها بالاستحقاق

رب خيل ركضن في حلبة السب ق فخلين الدرب للسباق

لا تعب ألفاظي إذا هي رثت بعد أن كانت غضة الأوراق

رب حسناء سامها الدهر فقراً فبدت في ثوبٍ لها أخلاق

ساورتني بك الرزية حتى ضاق عما أقول فيك نطاقي

وإذا قصر القريض فدمعي لك يغني عنه لدى الإهراق

لم يكن ما نظمته من رثاء لك أصفى من دمعي الرقراق

* * *

نم بعيداً في جوف قبرك عمن يتصدى إليك بالإقلاق

وانس أيامك التي كنت فيها تتملى الحياة في كأس ساق

إنس ما قد خلفته من قصورٍ شاهقاتٍ توفي ومن أعلاق

إنما هذا القبر آخر بيت لك يا مالك القصور الطباق

* * *

إن أناتي في المشيب سهامٌ | لم يكن عن قصدٍ لها إطلاقي
فهي أثناء سيرها قد تلاقي | غرضاً نازحاً وقد لا تلاقي
حسرة لي على الليالي المواضي | وتخشٍ من الليالي البواقي
لا يذم الحياةَ إلا فريقٌ | مالهم من لذاتها من خَلاق
قد رضعنا من الأفاويق أيا | مًا فكانت لذيذةً في المذاق
وأخذنا من الرفاهة حظًّا | وشربنا المنى بكأسٍ دِهاق
الشباب الشباب فهو لعمري | كل ما في الحياة من أذواق
لا أظن الأرواح تقبل أسراً | بعد حريةٍ لها وانطلاق
غير أن الدنيا وإن قل منها ا | وصل دنيا كثيرة العشاق

بغداد : جميل صدقي الزهاوي

المراثي العشر

يا مصر فيك الشعرُ مات أميرُهُ … وانقضَّ يصرخ تاجه وسريرُهُ
في الصدر منه لا عجٌ صعب على … غير الدموع لشاعرٍ تصويره
لا يستخفّ بما يعالج من أسى … إلا الذي قد مات منه ضميره
يا مصر حزنك سوف يبقى لاذعاً … حتى يجيُ إليك منك نظيره
قد كنت يا (شوقي) لمصرٍ كوكباً … يهدي بنيها للسلامة نوره
وإذا تباطأ عن طلاب حقوقه … شعبٌ فإنك أنت كنت تثيره
وإذا تكبل لم يعزّ عليك في … وقتٍ بما لك من سنى تحريره
مالي أراك قد انطفأت لغير ما … سببٍ بليلٍ مطبقٍ ديجوره
وإذا أراد الله أمراً لم يكن … في وسع عبدٍ عاجزٍ تأخيره
والمرء حين يروم نقضَ قضائه … لا عقله كافٍ ولا تدبيره

***

للناس من شعرٍ تركتَ جمالُ … تشدو به من بعدك الأجيالُ
سيقام تمثالٌ لشخصك رائعٌ … فيكون شعراً ذلك التمثال
بالأمس كنت لعارفيك حقيقةً … ملموسةً واليوم أنت خيال
ولأنت مبقٍ في زوالك عندهم … لك ذكرياتٍ ما لهنّ زوال
لو كانت الأوقات ذات ضمائرٍ … لبكى الغدوُّ عليك والآصال

بقيت من الآداب أو شالٌ لنا فوددت أن لا تذهب الأوشال
إن الحياة كمشكلاتٍ كلها أما المنون فوحده الحلاّل
بعد المنية وهي غير بعيدةٍ لا مشكلٌ يبقى ولا إشكال
لا ويل للميت الذي انفسحت له من كل قلبٍ روضةٌ ومجال
الويلُ كل الويل للحي الذي في نفسه قد ماتت الآمال

* * *

كثر الأُلى قد أبّنوك دفينا والباكياتُ عليك والباكونا
ما كنت تسمع يوم دفنك في الثرى إلا نشيجاً خانقاً وأنينا
أكبرْ بيومك إنه يومٌ به قد فجر الحزن العميق عيونا
يا راحلين لغير عودٍ إننا لا نستطيع فراقكم فخذونا
يا واردي حوضِ المنية قبلنا ما أعذبَ الحوضَ الذي تردونا
سيروا خفافاً إن أردتم أوقفوا إنا على آثاركم آتونا
يا بيتَ آمالي انهدمتَ وإنما قد كنت آمل أن تكون رصينا
ما كنت أعرف قدر شعرك قبلما وفرت في تجديده التحسينا
لاك في روايات نظمت فصولها درجاتُ فضلٍ هنّ عِلّيونا
قد كنت تقتحم السحاب مغامراً حيناً وتجنح للسلامة حينا

* * *

في قلب مصرَ وبالجزيرة بأسُ كادت به تتفطر الأنفاسُ
أهوى من الشعراء رأسٌ شامخٌ والرأسُ فيه الفكرُ والإحساس

لا ويلَ من موتٍ بعضوٍ قد طحا ... بل إنه في أن يموت الراس
في كل شبرٍ قد توارى فاضلٌ ... يا ويح مصرٍ كلها أرماس
ركب الأمير يجدّ صهوة نعشه ... ودنا الرحيلُ ورنّت الأجراس
ومشى يشيع نعشه متلهفاً ... من كل حزبٍ أمةٌ أجناس
في موكبٍ ضخمٍ قد اشتركت معاً ... فيه الملائكُ خشّعاً والناس
وضعوا أمير الشعر في دِيماسه ... فحثا عليه يضمه الديماس
لهفي عليه موسّداً في حفرةٍ ... معزولةٍ ما إن لها حرّاس
وعلى الذكاء فقد خبت نيرانه ... أما الرماد فإنه أكداس

***

الزهرُ أكبرَ مصرعَ الصدّاحِ ... فبكت عليه شقائقٌ وأقاحِ
في الروض للأحزان أصبح مشهداً ... ما كان قبلاً منه للأفراح
كم أصغت الأزهار فيه للحنه ... في ليلةٍ بيضاءَ ذات وشاح
طافت بكرمته الجميلة برهةً ... شعراءُ عن وجدٍ بهم مِلحاح
كانت علاقتهم به في ظلها ... كعلاقة الأجساد بالأرواح
أطلعت صبحاً من قريضك مسفراً ... والصبح أعرفه من الأوضاح
قد كنت أول شاعرٍ بثّ الهدى ... للناس فيما جاء من ألواح
أما يراعك فهو معزوٌّ له ... ما تمّ للآداب من إصلاح
يا كوكباً قد كان يمحو نورُه ... صدأ الدجى أحسنْ به من ماحِ
لقد انطفأت وما هنالك موجبٌ ... إلا نفاد الزيت في المصباح

* * *

من كل زهرٍ قد جمعت قليلا　　وجعلت منه لقبره إكليلا
أجملته في باقةٍ خلابةٍ　　من بعد ما فصلته تفصيلا
فتظن أبيضها أشعةَ كوكبٍ　　وتخال أحمرها دماً مطلولا
كنا سيوفاً للقراع ثلاثةً　　نحمي فكنتَ الثالث المفلولا
يا نفسُ أوري من أساك ذبالةً　　فأخاف ليلك أن يكون طويلا
حملوه من قصرٍ له فخمٍ إلى　　ملحودةٍ ما أعظمَ المحمولا
ولقد شيعت خلف الظعائن نسوةٌ　　يملأن أجوازَ الفضاء عويلا
يا دافن السيف المذرَّب إنني　　لأراك عما جئته مسؤولا
ماذا ليوم الرَّوع عنه اعتضته　　لما غمدت الصارمَ المصقولا
لا والذي أعطى القليل شجاعةً　　ما كنت خوَّاراً ولا إجفيلا

* * *

ما الروض بعد البلبل المترنمِ　　للناظرين إليه بالمتبسمِ
فكأنما نسرينه وشقيقه　　وخزامه وبهاره في مأتم
إن الحياة وغىً وليس بظافرٍ　　في خوضها غيرُ الكميِّ المُعْلم
إني لقد طاشت سهامي كلها　　(فرميت قوسي من يديَّ وأسهمي)
الموت ينظرني ويبسم كاشراً　　عن نابه كالمارد المتهكم
وإذا نظرت إلى القبور وجدتها　　كفلول جيشٍ في العرآء مخيم
واسأل ذويها لو أجابوا سائلاً　　واجعل مدادك يا يراعي من دمي
ساهم أهم في سلوةٍ من عيشهم　　أم إنهم في ضجرةِ المتبرم

أسعد بأرواحٍ نجونَ من الردى فطلعنَ في عرض السماء كأنجم
عُلمت نواميس الحياة جميعها أما الحياة فإنها لم تعلم

* * *

قد سرتَ بين نواظر ودموعِ تجتاز يَنبوعاً إلى ينبوع
كانت أحايين الفراق شديدةً وأشدُّ منها ساعةُ التوديع
والشعب خلف النعش يمشي صامتاً في رعشةٍ تنتابه وخشوع
فيدٌ على عينٍ له ذرّافةٍ ويدٌ على قلبٍ له مُصدوع
أما الكلام فكان همساً كله لا شيءَ فيهم كان بالمسموع
من كان منهم قد تأخر خطوةً سبقته أدمعه إلى التشييع
سيظلّ قلبي في الجوانح مزعجي حتى تسيل مع الركاب دموعي
رجع الأُلى قد شيعوه كلهم إلا دموع الثاكل المفجوع
لم أدرِ ساعة لي نعاه نعيه ماذا أصاب القلب تحت ضلوعي
القلب يأمر ياعيوني بالبكا من بعد كل عشيةٍ فأطيعي

* * *

أبكي بليلٍ حُفّ بالظلماتِ مستعبراً والليلُ للعبرات
أبكي إذا استذكرت شعرك مجهشاً بعد الهدوء ووقفة الحركات
أبكي حياتك آسفاً لذهابها قبلي وأبكي من بقاء حياتي
قد سار قبلك حافظٌ فتبعته وبقيت وحدي اليوم للنكبات
يا صاحبيَّ قفا قليلاً إنني عمّا قليل فانظراني آت

إن متُّ تحزن في العراق أحبتي حيناً وتفرح في العراق عُداتي
وأودّ إن راموا انتقادي ميتاً أن لا يكون من العُداة قضاتي
لم يبقَ من جيلٍ تقضى عهده إلا بقـايا أعظمٍ نخرات
يا قبرَ شوقي إنني من أدمعي مُهدٍ إليك قصائداً عطرات
من ذا يسدّ على الرياض أنيقةً عند الصباح منافذَ النسمات

* * *

خرّت لعزة شعرك الشعراء فكأنهم أرضٌ وأنت سماء
ما كنتَ إلا كوكباً متوقداً قد خرّ منحدراً له ضوضاء
كنا نرى ما كان ضوؤك فاعلاً فلننتظر ما تفعـل الظلماء
من بعد درٍّ كنت تنظم عقده برزت تريد لتلمع الحصباء
لفظٌ جميلٌ فيه معنىً رائعٌ هو في المعاني وحده العذراء
اليوم باقٍ للقريض بحوضه ماءٌ وأخشى أن يجفّ الماء
ولقد خفيت على ظهورك مدةً عن أعيني « ومن الظهور خفاء »
جللٌ مصابك إنه اهتزت له أعلام مصرَ وماجت الدأماء
عجلت في الترحال يا شوقي وقد بقيت هنالك لم تقل أشياء
قالوا سينبغ عبقريٌّ مثله قلنـا بلى لو أنجب الآباء

بغداد : جميل صدقي الزهاوي

شاعر الخلود



حليم دموس

ماأطلعت مثل (شوقي) أمة العرب
شمس من الشرق فوق السبعة الشهب
من جبهة الفلك الوهاج شع هدى
مازال من قطب يمشي إلى قطب
ضاحي السبيل على (سيناء) سدته
مرصع العرش في تاج من الذهب
هي العروش على الأسياف قائمة
وعرش (شوقي) على الأقلام والكتب

رفت على هامة (الجوزاء) رايته ... في موكب كشعاع الفجر ملتهب
كرسيه السحب مثل الشهب نيرة ... والوحي يخفق بين الشهب والسحب
سل البلاغة كم ألقت مقالدها ... والعبقرية في محرابه الأشب
رواة أبياته في كل حاضرة ... وجند آياته في كل مغترب
فاضت على ضفة (الوادي) جداوله ... فيا لنيل حيال (النيل) منسكب
قالت قوافيه للأهرام هامسة : ... كم بيننا في خلود الذكر من نسب
شعر تنزل عن وحي وعاطفة ... من سدرة المنتهى من أرفع القبب

بنى فمكن حتى صان دولته — جرى فبز حتى فاز بالقصب
مشى معَ (المتنبي) في روائعه — ونال عن (شكسبير) راية الغلب
أعاد خيمة (ليلى) فهي خافقةٌ — بقلب(قيس الهوى)مشدودة الطنب
وهزّ قلب (كلو بطرا) وصاحبها — كأنّ عهدهما عن مصر لم يغب
عصرٌ لشوقي تساوى في أوائله — وفي أواخره ما جآء من عجب
قال : (انتهيتُ) وأنّى ينتهي وله — ملكٌ عريضٌ وجاهٌ واسعُ الحسب
فتحٌ مبينٌ وأيامٌ محجلةٌ — والفتح بالكتب مثل الفتح بالقضب

* * *

لله يومك والأشجانُ في صعد — لما نعيت وعينُ الشرق في صبب
ناحت عليك(أبولو) . فهي ذارفةٌ — على ترابك دمع ابنٍ لفقد أب
وصوحت(كرمة الإلهام) إذ نضبت — أغصانها الخضر من سلسالك السكب
أرى (الخليل)وهول الخطب روّعه — ترويع صبٍّ على إلفيهِ منتحب
تلفتت نحوه الفصحى معزّيةً — هيهات أن يتعزى قلب مكتئب
كانوا ثلاثة أطيارٍ على فننٍ — نضر الأزاهر حول المرتع الخصب
فسدّد الدهرُ سهماً من كنانتـه — على (الكنانة) أصمى مهجة العرب

* * *

أبا عليٍّ !.. سقاك الغيث عن بلدٍ — طيبته بشذاً من ذلك الأدب
بنتُ البقاع شجاها موتُ نابغةٍ — رنت قصائده في السهل والهضب
كسوتها بردةً كالأرز زاهيةً — لا تستبيح حواشيها يدُ النوب
سقياً لعهدك والأيام باسمةٌ — والقوم حولك مثل الجحفل اللجب

والدهر يكتب والأجيال منصتة ... والناس في مرح والنهر في صخب
واهاً لها ذكريات كيف أنشرها ... وقد طواها قضاء الله بالحجب
أتيت عن (جارة الوادي) وبي ظمأ ... ولو إلى نهلة من وردك العذب
سقيتها من كؤوس الخلد مترعة ... هيهات تفرغ في الوادي على الحقب
أغنية رجّع الشادي شواردها ... شوقية الروح والأنفاس والطرب

* * *

يا شاعر الخلد ! .. والدنيا تشيعه ... أنشد قصيدتك الكبرى على الصحب
أذكر لنا ما وراء القبر من عبر ... وابعث ضياء المدى من ظلمة الترب
أسامع أنت خلف الغيب أنتنا ... أم أنت في ركب من نودي ولم يجب
أسالم ثم من واش ومنتقد ... أعالم ما ستلقى الضاد من نصب
وهل رأيت الألى خلدت ذكرهم ... من مالك فاتح أو سيد أرب
وهل شهدت (نديّ الشعر) محتشداً ... وهل جلست إلى أترابك النجب
نسقي وتسقى على ظلّ وحاشية ... من خمرة الشعر لا من خمرة العنب
قل ما تشاء وصف واشرح حقائقها ... واكشف لنا عن خفايا الشك والريب

* * *

حنت إليك عذارى الخلد واستبقت ... عرائس المجد في أثوابها القشب
والتاج لاح على فوديك مؤتلقاً ... كالشمس في موكب الأنوار واللهب
كأن (صبرى) وحادي الوجد لج به ... فهب يسعى إلى لقياك عن كثب
يصيح بالملأ الأعلى ألا استمعوا ... ما قاله حافظ في خالد الخطب :
إن الإمارة لم تسلس أعنتها ... في الشرق إلا لذاك الشاعر العربي

بيروت : ... حليم دموس

خلود شوقي



خليل مردم بك

أنا لست أدري كيف أرثي واحدا
أمسى برغم الموت حياً خالدا

أبقى من الأهرام في آثاره
وأجل مأثرة وأبلغ شاهدا

دب الفناء له فعاد بخيبة
خزيان ينظر مستشيطاً حاقدا

ما نال منه ولو علاه سكونه
فالبحر بحرٌ زاخراً أو راكدا

شوقي وهل أرثيه يوم خلوده … فالسيف يبغي شاهراً لا غامدا

دعني أشدْ بالعبقرية إنها … كالشمس إن غربت أرتك فراقدا

العبقرية نفحة قدسية … تحيي الرميم وتستثير الخامدا

أو شعلة لمعت فجلت غيهباً … وهدت أخا جور وردت حائدا

تتمخض الأجيال أعصاراً بها … حتى يتيح الغيب منها وافدا

كالبحر يندر أن يجود بدره … وتراه بالأصداف يقذف جائدا

فإذا أراد الله نهضة أمة … أهدى إليها العبقرية قائدا

شوقي وأنت رسالة علويــة　　　مرت عَلَى سمع الزمان نشائدا

روح من الله الـكريم ورحـمـةٌ　　　أحيا بها ميتاً وأيقظ هاجدا

رُضت القريض على اختلاف فنونه　　　في كل وادٍ همت كنت الراشدا

أما القديم ففزت منه بروعةٍ　　　وجلوت من آي الجديد مشاهدا

فرفعت للفصحى بمصرٍ دولةً　　　كانت تطالع فيك نجماً صاعدا

توجت مصر وشدت عرش فخارها　　　وعقدت في جيد الشآم قلائدا

للعرب والإسلام في آلامهم　　　كنت اللسان مترجماً والساعدا

أضحى بيانك جامعاً أهواءهم　　　ومن الخمول إلى النباهة رائدا

ما أقلق الإسلامَ خطبٌ فادح　　　إلا نهضت مواسياً أو ذائدا

ودعوت للخلق الـكريم وشرما　　　أودى بنا قد كان خلقاً فاسدا

ما زال فينا من يـكيد لقومه　　　كم ذا نطيق مداجياً أو كائدا

* * *

كم موقف لك في دمشق وأهلها　　　قد هزَّ يقظانا ونبــه راقدا

غنيتها لحناً يفيض صبابة　　　فتمايلت فيها الغصون تواجدا

وشركتها في بؤسها ونعيمها　　　يامن رأى ولداً يشاطر والدا

في الجامع الأموي قمت مكبراً　　　وذكرت مجد بني أمية ساجدا

خلفت في الزهراء دمعك جارياً　　　وتركت في الفيحاء قلبك واجدا

واسيتَ جلق في عظيم مصابها　　　ونضحت عنها بالبيان مجاهدا

صعَّدت أنفاساً وجدت بأدمعٍ　　　في يوم شنق نكد قصائدا

أشجاك أن تمسي الجنان بها لظى　　وتبيت دارات النعيم مراقدا
جعلوا منيفات القصور ومن بها　　للنار في غلس الظلام حصائدا
عاثت بها سود الوجوه مخالم　　بين الطلول عقاربًا وأساودا
وأشد من هـذا الزبانية الألى　　كادوا لماء يلقون عيشًا راغدا
من كل عبـدٍ للطغاة وحزبهم　　ونراه شيطانًا علينا ماردا
كم متعةٍ في عيشهـا لو أنهم　　ما كدروه مصادرًا وموارداً
هيهات لا تنسى صنيعك إنها　　جعلت بلابلها لسانًا حامدا

* * *

والآن دع جفني يبح بشؤونه　　فالدمع أثقله كمينًا جامدا
وذر الحزين يبث بعض شكاته　　فالصدر يحرج بالهموم حواشدا
لكن أخاف عليك تبريح الأسى　　يوري على جنبيك جمرًا واقدا
فاربط على قلبٍ وطأً من لوعة　　واشدد على كبدٍ وصابر جاهدا
يا ناشدًا بالأمس نومًا شاردا　　هلا نشدت اليوم صبرًا نافدا
خطبان قلب العرب قاسى منهما　　جرحًا يسيل دمًا وسهمًا قاصدا
ما جف دمعهم لمصرع حافظ　　حتى استهل بيوم شوقي واردا
لم أنس مؤتمر النساء[1] وقد نعى　　شوقي فظل من التفجع مائدا
ريع العقائل والأوانس أعولت　　ونثرن من عبراتهن فرائـدا

---

(١) اتفق أن أول برقية وردت إلى دمشق بنعي شوقي قرئت في المؤتمر النسائي الذي كان معقودًا في دمشق إذ ذاك .

أوجعن لي قلبي وهجن مدامعي وتركن جفني للفجيعة ساهدا

* * *

سرّ الحياة يدقّ عن فهم الورى حار اللبيب به فأطرق سامدا

لولا رياض الشعر في صحرائها كانت حياتك محنةً وشدائدا

تدنو بأسباب الحياة إلى الردى أنّى اتجهت رأيت منه راصدا

والمرءُ في دنياه طيرٌ ما نجا من صائدٍ إلا ليلقى صائدا

دع عنك تمحيص الحقيقة إنها تدع الفتى في كل شيء زاهدا

وانصت إلى وحي الخيال فإنه لولاه كان العيش معنى باردا

وإذا بكيت على امرىءٍ فابك الذي ملك البيان طريفه والتالدا

دمشق : خليل مردم بك



النيل الخالد

عجباً ! أتوحشني وأنت إزائي ... وضياءُ وجهك مالئٌ سودائي ؟
لكن جرى قدرٌ وإن أبت المنى ... بنوى أحبتنا لغير لقاء
جرحوا صميمَ القلب حين تحملوا ... الله في جرحٍ عزيز شفاء
الطيب المحمود من عمري مضى ... والمفتدى بالروح من خلصائي
لا بل هما مني جناحا طائر ... رُميا ولم يكُ نافعي إخطائي
الصاحبان الأكرمان تولّيا ... فعلامَ بعد الصاحبين بقائي ؟
لم يتركا برداهما غير الاسى ... لأخيهما ما دام في الأحياء
وحياليَ الخلطاء إلا أنني ... متغربٌ بالعهد في خلطائي
أيراد لي من فضل ما مجدا به ... إرثٌ ؟ إذن جهل الزمان وفائي
إن نحيَ بالذكرى فلا تبديل في ... صفةٍ ولا تغيير في الأسماء
يا صاحبيَّ غدوت منذ نأيتما ... أجدُ الحياة ثقيلةَ الأعباء
لا ليل عافيةٍ هجعت به ولا ... يوم نشطت به من الإعياء
أنا واحد في الجازعين عليكما ... وكأنما ذاك البلاء بلائي
فإذا بدا لكما قصوري فاعذرا ... أو شفعا لي مسلفاتِ ولائي

* * *

مهلاً أمير الشعر غير مدافَع ... ومعزٌّ دولته بغير مراء
كم أمة كانت على قدر الهوى ... ترجوك ما شاءت لطول بقاء

متمسكناً من نفسها إيمانها ... إن لم تكن ممن حيوا لفناء
فإذا المنايا لم تزل حربَ المنى ... وإذا الرزيئة فوق كل عزاء
في مصر بل في الشرق منها لوعة ... سدت على السلوان كل فضاء
أترى مويجات الأثير كأنها ... حسرى بما تزجي من الأنباء ؟
بعث الشرار بها ثقالاً لو بدا ... ما حملت لبدت نطاف دماء
جزع الكنانة كاد لا يعدو أسى ... أمّ القرى ومناحةَ الفيحاء
وبحضرموت على تنائي دارها ... شكوى كشكوى تونس الخضراء
بالأمس كان هواك يجمع شملها ... في فرقة النزعات والأهواء
واليوم فتّ رداك في أعضادها ... ما أجلب البأساء للبأساء

* * *

أفدحْ بما يلقاه آلك إن يكن ... حزن الأباعد جلّ عن تأساء
حرموا أباً برّاً نموا وترعرعوا ... من جاهه في أسمح الأفياء
وكفقدهم فقد الغرانيق العلى ... علم الهدى للفتية النجباء
وكرزئهم رزئ الرجال مرجباً ... عفّ اللسان مهذب الإيماء
يتناولون من الصحائف وحيه ... فتكون كل صحيفة كلواء
ماعشتَ فيهم ظلت بلبلَ أيكهم ... في الأمن والرئبالَ في اللأواء
لك جوّك الرحب الذي تخلو به ... متفرداً والناسُ في أجواء
عذلوك في ذاك التعزل ضلةً ... إن التعزل شيمة النزهاء
ما كان شغلك لو دروا إلا بهم ... لكن كرهت مشاغل السفهاء
ولعل أعطفهم عليهم من دنا ... بالنفع منهم وهو عنهم ناء

أنزلت نفسك عند نفسك منزلاً يأبى عليها الخسفَ كل إباء
فرعيت نعمتك التي أثّلتها ورعيت فيها جانب الفقراء
تقني حياءك عالمًا عن خبرةٍ أن الخصاصة آفة الأدباء
وترى الزكاة لدى الثراء مبرةً منه به ووسيلةً لذكاء
كم من يدٍ أسديتها وكسوتها متأنقًا لطفَ اليد البيضاء

* * *

عصر تقضى كنت ملءَ عيونه في أربعين بما أفدت مِلاء
يجلو نبوغك كل يوم آيةً عذراء من آياته الغراء
كالشمس ما آبت أتت بمجدَّدٍ متنوعٍ من زينةٍ وضياء
هبةٌ بها ضنَّ الزمان فلم تُتحْ إلا لأفذاذٍ من النبغاء
يأتون في الفترات بُعدَ بينها لتهيؤ الأسباب في الأثناء
كالأنبياء ومن تأثر إثرهم من علية العلماء والحكماء
رفعتك بالذكرى إلى أعلى الذرى في الخلد بين أولئك العظماء
من مسعدي في وصفها أو مصعدي درجاتِ تلك العزة القعساء
ومطوّعٍ لي من بياني ما عصى فأقول فيك كما تحب رثائي
لي فيك من غرر المديح شواردٌ أدّت حقوق علاك كل أداء
ووفت قوافيها بما أملى على قلبي خلوصُ تجلتي وإخائي
ماذا دهاني اليوم حتى لا أرى إلا مكان تفجعي وبكائي؟

* * *

(شوقيُ) لا تبعد وإن تكُ نيةٌ ستطول وحشتها على الرقباء

تالله شمسك لن تغيب وإنها	لتنير في الاصباح والامسآء
هي في الخواطر والسرائر تنجلي	أبداً وتغمرهن باللألآء
والذخر أغلى الذخر ما خلفته	من فاخر الآثار للأبنآء
هو حاجة الأوطان ما دالت بها	دولٌ من السرآء والضرآء
سيعاد ثم يعاد ما طال المدى	ويظل خيرَ مآثر الآبآء
يكفي بيانك أن بلغت موفقاً	فيه أعزَّ مبالغ القدماء
بوأت مصرَ به مكاناً نافست	فيه مكان دمشق والزورآء
ورددت موقفها الأخير مقدَّماً	في المجد بين مواقف النظرآء
لك في قريضك خطةٌ آثرتها	عزَّت على الفصحآء والبلغاء
من أي بحرٍ درُّه متصيدٌ	وسناه من تنزيل أيِّ سمآء
ظهرت شمائل مصرَ فيه بما بها	من رقةٍ ونعومةٍ ونقآء
توخيمها في لحنه متسامعٌ	ونعيمها في وشيه متراء
شعرٌ سرى مسرى النسيم بلطفه	وصفا بروعته صفآء المآء
تردُ العيونُ عيونَه مشتفةً	ويصيب فيه السمع ريَّ ظمآء
ويكاد يُلمس فيه مشهود الروى	ويُحس همس الظن في الحوبآء
في الجو يؤنس من يحلق طائر	والدوّ يؤنس راكب الوجنآء
عجباً لما صرّفت فيه فنونه	من فطنةٍ خلابةٍ وذكآء
فلكل لفظٍ رونقٌ متجددٌ	ولكل قافيةٍ جديدُ رُوآء
يجلي الجمال به كأبدع ما انجلت	صورٌ حسانٌ في حسان مرآء

ولربما راع الحقيقة رسمها فيه فما اعتصمت من الخُيَلاء

* * *

حياكَ ربكَ في الذين سموا إلى أملٍ فأبلوا فيه خير بلاء

من مُلْهَمٍ أدى أمانة وحيه بعزيمةٍ غلابةٍ ومَضاء

متجشم بالصبر دون أدائها ما سِيمَ من عنتٍ وفرط عناء

للعبقرية قوةٌ علويةٌ في نجوةٍ من نفسه عصماء

كم أخرجت لأولي البصائر حكمةً مما ألمّ بـه من الأرزاء

حتى إذا اشتعل المشيب برأسه ما زاد جذوتها سوى إذكاء

فالداء ينحل جسمه ونشاطها يخفي بروعتـه نشاط الداء

جسم يقوّضه السّقام وهمها متعلق بالخلـق والإنشاء

عجباً لعاميه اللذين قضاهما في الكد قبل الضجعة النكراء

عاما نزاعٍ لم تهادِن فيهما نُذُرُ الردى وشواغل البُرَحاء

حفلا بما لم يتسع عمرٌ له من باهر الإبداع والإبداء

فتح يلي فتحاً وصرحٌ باذخٌ في إثره صرحٌ وطيدُ بناء

هذا إلى فطنٍ يقصر دونها مجهودُ طائفةٍ من الفطناء

من تحفةٍ منظومةٍ لفكاهةٍ أو طرفةٍ منظومـةٍ لغناء

أو سيرةٍ سيقت مساق روايةٍ لمواقف التمثيل والإلقاء

تجري وقائعها فتجلو للنهى منها مغازيَ كنّ طيّ خفاء

فإذا الحياة عهيدها وعتيدها مزجٌ كمزج الماء والصهباء

تطفو حقائقها على أوهامها وتسوغ خالصة من الأقذاء

يامن صحبت العمر أشهد مانحاً | في الشعر من متباين الأنحاء
إني ليحضرني بصادق حاله | ماضيك فيه كأنه تلقائي
من بدئه وحجاك يفتح فتحه | للحقبة الأدبية الزهراء
حتى الختام ومن مفاخر مجده | ما لم يتح لسواك في الشعراء
فأرى مثالاً رائعاً في صورة | للنيل تملأ منه عين الرائي
النيل يجري في عقيق دافق | من حيث ينبع في الربى الشماء
يسقي سهول الريف بعد حزونه | ويديل عمراناً من الإقواء
ما يعترضه من الحواجز يعده | ويعد إلى الإحياء والإرواء
حتى إذا رد الفيافي جنة | فيما علا ودنا من الأرجاء
أوفى على السد الأخير ودونه | قرب المصير إلى محيط عفاء
فطغى وشارف من خلاف زاخراً | كالبحر ذي الإزباد والإرغاء
ثم ارتمى بفيوضه من حالق | في المهبط الصادي من الجرعاء
فتحدرت وكأن منهمراتها | خصل من الأنوار والأنداء
مسموعة الإيقاع في أقصى مدى | جذلى بما تهدي من الآلاء
إن أخطأت قطراً مواقع غيثها | أحظته باللمحات والأصداء
لله در قريحة كانت لها | هذي النهاية من سنى وسناء
رفعتك من علياء فانية إلى | ما ليس بالفاني من العلياء

مصر : | خليل مطران

في ظلال كرمة ابن هاني

يا كرمةً ذَوِيَت فيها أمانينا لا الظل ضافٍ ولا الأفنان تندينا
يا نائح الكرمة الولهى ظلائلها سقت غصونك أجفان الشجيينا
كانت لياليك بيضاً في دُجنّتها يرفُّ فيها الهوى ريّان مجنونا
ما ضاع عمرك إلا في مضاحكه ولا تمليت إلا الخفض واللينا
لاهٍ عن الدهر مشغول بناعمةٍ من الشبيبة في أفياء لاهينا
يا عيشة في حمى اللذات فيأها سكر الهوى والغواني والخليينا
ملأت جانبها لعباً وتسلية خيرُ الليالي التي باتت تسلينا
وما الحياة إذا طالت مسافتها وأنت تدرجها ولهان مشجونا
فما أبالي وعين الموت ساهرة أعشت عشرين أم عشت الثمانينا

***

قم ناج كرمته واسأل منابتها أما على مصرَ غِرّ يدٌ يغنينا
قد كنت بلبلها في عزّ نهضتها وفيتها الحق في رأس الموفينا
جعلت تمثالها شعراً تميس به أبقى على الدهر من آثار (آمونا)
وحي من الله لم يهبط على ملاٍ من ألف عام ولم ينزل مثاوينا
دم الجهاد على عطفيه منسجمٌ يريك في ثورة النيل الميادينا
يخلد النهضة الميمون طالعها في ظل قوم على الجلى ميامينا

غنيتَ بالنيل في شجوٍ يباكرنا ... على الكنانة أو عيدٍ يغادينا
صغت القوافي له في كل نازلة ... محبوكة الوشي من وشي اليمانينا
لما نفوك عن الأهرام رقّ لما ... وافٍ يناجي ذرى الأهرام محزونا
فما سلوتَ ظلال النيل في بلدٍ ... أرخى ظلالته يسرى أمانينا

***

يا ناظمَ الشرق في شعرٍ يُطاف به ... على حمى الشرق روحاً أو رياحينا
قد كنتَ تعزية الإسلام في ألم ... يشتدّ حيناً وتطويه الأُسا حينا
كم نوحةٍ لك في خطبٍ أُصيب به ... يخفّ في نغمها جرحُ المصابينا
مازلتَ تدفع عنه كل عاديةٍ ... حتى تمزّق لا دنيا ولا دينا
مستعبد في ربوعٍ كان سيدَها ... ومستضام بأيدي الأجنبيينا
في كل ناحيةٍ عسفٌ يهدمها ... نكاد نطفح بالشكوى نواحينا
أين الخلافة في الإسلام مشرقةً ... تلقي على هامة الدنيا التحاسينا
مشت لها الأرض وانقادت لطاعتها ... فما ترى فوقها إلا مذاعينا
يا صرخةً في شتات الترك صادقةً ... نكاد تُسمع في الترب السلاطينا
بكيتهم في مصابٍ هدّ جانبهم ... على (أدرنة) يضنيهم ويضنينا
تلك المناكر ما زالت فظاعتها ... ملءُ الخواطر والأنظار تدمينا
وصفت آثارها في أُخت أندلس ... وصفاً يهجن أهل الغرب تهجينا
بينا نراهم على سلمٍ ملائكةً ... تلقى الرجال على حرب شياطينا
أضحت حضارتهم غشاً ومكذبةً ... فملَّ الذئاب وغُول النبيينا

ما زلت أحسن ظنّاً بالذي زعموا   حتى أساتُ بدعواهم أظانينا
هذي الظواهر لم تصدق بواطنها   أمست على الدهر سرّاً في عوادينا

* * *

يا ويح قلبك لم تهدأ جوانبه   عن عبد شمس ولم تهدأ جوانينا
أملت عليك بقاياهم بأندلس   مخلدات القوافي في أمالينا
بنوا وهدّمت الأيام بنيتهم   وكم بناةٍ لهدمٍ ما يبنونا
ملكٌ شتيتٌ وتيجانٌ مبعثرةٌ   لم يبقَ من عزها إلا تأذينا
شفتك منهم قصورٌ فنها عجبٌ   يكدنَ بعد انحدار الملك يهوينا
كانت لنا في خوالي الدهر تهنئةً   فأصبحت في بواقيه تعازينا
لمستَ فيها عظاتِ الدهر دارجةً   على بقايا رسومٍ من أمانينا
مشت عليها الليالي في شدائدها   فبدّلت عزها الوضاح تهوينا
فلا القصور قصورٌ إن نزلت بها   ولا الملوك إذا ناديت واعونا
حلمٌ مرحنا به حيناً وتمنيةٌ   ظلت على زحمة الأحقاب تشجينا
يا وقفة في ظلال الطلح تسألها   نشجى لواديك أم نأسى لوادينا[1]
ناجيتَ نائحها نجوى هززت بها   تلك الرياحينَ حتى كدن يبكينا
فأين في الطلح تيجانٌ تظلله   وأين فيه سلاطينٌ يحامونا
بعثت فينا هوى الماضي وروعته   والنفس تهتزّ من روعات ماضينا

---

(١) إشارة إلى قصيدته الأندلسية رحمه الله :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا   نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

تـكاد تلمس جنبيه أناملنـا   إذا وصفتَ فتدنيه وتدنينا
على نشيدك من تخليده صوَرٌ   زهت حضارتنا فيها أفانينا
في كل ناطقةٍ فنٌّ يفرحنا   وكل هامسةٍ سحرٌ يبكينـا
صحائفٌ خلدوا فيها مناقبهم   فهل ترى بعدها إلا عناوينـا
كنا معانيَ في الأحقاب لامعةً   مضت وما بقيت إلا أسامينا

* * *

يادمعة لك في الفيحاء هيجها   ملكٌ لمروان مغصوبٌ يناجينا
غنيت بالملك والتيجان هاويةً   حتى لمسنا مهاويها بأيدينـا
فأين مسجدك المحزون تسأله   هل قام مروان في حشد المصلينا[1]
وأين من عبد شمسٍ سادةٌ درجوا   عالين كالشمس لا عابًا ولا هونا
هجتَ العروبة في أفياء غوطتنا   حتى حنونا عليها عبشمينا
بعثتها في الحمى من بعد هدأتها   حينًا من الدهر نطويه ويطوينا
نامت خواطرنا عنها فأيقظها   سحر القوافي فجاشت في أغانينا
من بعد ما ذهبت عنا خيالتها   حنت إلينا خيالات تناغينـا
ذكرى أمية لم تبرح حواضرنا   لما بكيتَ ولم توحش بوادينا
ناجيتَ جلق في وحيٍ تردده   على اعتلاج الأذى فيها مغانينا
على بيانك وشيٌ من خمائلنا   وفي قوافيك طيبٌ من روابينا

---

(١) إشارة إلى قصيدته في دمشق التي يقول فيها :

مررت بالمسجد المحزون أسأله   [illegible] مروان

لم تنس نكبتها والله حارسها | لما صبغنا ثراها من أضاحينا
هبت تحيتك الريا تموج بها | صبا الأصائل في ريان نادينا[1]
فضج كل أبي من شكائمنا | وثار كل كريم من تغاضينا
غمزتها غمزة هزت جوانبها | فانصاع في غفية الأجفان غافينا
قصائد بدم الأحرار مائجة | من وحي جلق نعليها وتعلينا
مغموسة في نجيع من حصائدنا | مصبوغة بصباغ من مواضينا
فيها من الثورة الحمراء أمثلة | تمثلت في مجاليها معالينا
تلكم أمية كرمنا منازلها | فلن تورانا عليها مستذلينا

* * *

يا بنت فرعون والأشجان مائجة | هلا صبرت وبعض الصبر يسلينا
لو كان يشفي رثاء في ملمتنا | صغنا الجوانح شعراً في مراثينا
يكفي النبي خلود في قلائده | هذا الرثاء الذي أعيا قوافينا
فنم على الدهر شوقي في هواجسنا | موزف الظل لا نامت ليالينا
العبقريات في الدنيا مخلدة | ومن يسد سبيل العبقريينا
ما كان خطبك إلا أمة درجت | وقد يعادل شعر أمة فينا
هذي أمية لم تهدأ وساوسنا | على دمشق ولم تنشف مآقينا

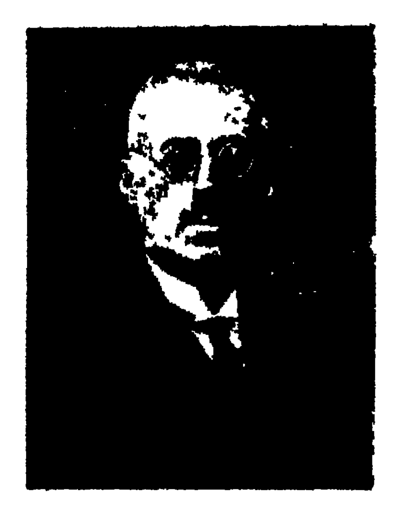
دمشق : شفيق جبري

---

(١) إشارة إلى قصيدته التي حيا فيها دمشق :

سلام من صبا بردى أرق | ودمع لا يكفكف يا دمشق

امير البيان يرثي امير الشعراء



الأمير شكيب أرسلان

قد أعجز الشعراءَ طولَ حياته
واليوم يعجزهم بندب مماته

هيهات يوجدُ في البرية منهم
كفوٌ ليرثيه بمثل لغاته

كان الأمير لجيشهم مستنةً
فرسانهم في الظل من راياته

ما عاب أهلَ العبقرية أنهم
قد قصروا في الحب عن غاياته

هذا أميرُ الشعر غيرَ مدافَعٍ
في الشرق أجمع منذ فتق لهاته

لو كان وحيٌ بعد وحي محمد
لانشق ذاك الوحي عن آياته

السحر في نفثاته والزهر في
نفحاته والدهرُ بعضُ رواته

رقّت لنغمته القلوبُ فكيفما
غنى بها رقصت على نبراته

تغدو المعاني وهي شُمس مقادةٍ
فيقودُها قود الغلام لشاته

وإذا أراد الصخرة الصماء من
أغراضه رقت نظير حصاته

ما رام شارد حكمةٍ في نظمه
إلا أصاب صميمها بحصاته

جلّى الإلهُ له الأمورَ كأنما | يلقي عليها الشمس في نظرانه
فكسا الطبيعةَ من نسيج بيانه | حللاً خلت من غير طرز دوانه
فترى الطبيعةَ قبل نظرته لها | غيرَ الطبيعة وهي في مرآته
والحسنُ يشرق في العيون بذاته | وهنا يضيءُ بذاته وصفاته
من كل بيتٍ في رفيع عماده | تتقاصرُ الأقدامُ عن عتباته
كالدرّ في لمعانه والبدر في | قسماته والصبح في نسماته
ولقد رويتُ الشعر عن آحاده | وضربتُ بالسباق في حلباته
وقضيتُ فيه صبوتي وصبابتي | وقطفتُ منه خيرَ نوّاراته
وأثرت في البيداء بزلَ فحوله | وأطرتُ في الآفاق شهبَ بزاته
فرأيتُ شوقي لم يَدَعْ في عصره | قرنًا يهزُّ قناته لقناته
الفردُ في أمداحه ونواحه | والفذُّ في أمثاله وعظاته
وإذا تعرّض للغرام فهل درت | لغةُ الغرام نظيرَ شوقياته
ما في الهيام كوجده وحنينه | أو في النسيب كظبيه ومهاته
وإذا تحدث بالربيع وروضه | أنساك بالتحبير وشيَ نباته
أو بات يعبثُ بالشراب أضاف من | كاساته حببًا على كاساته
أو خاض في ذكر العذيب تشابهت | أعطافُ مستمعيه مع باناته
أو سلّ في وصف الوقائع صارمًا | خلتَ العدى سالتْ على شفراته
قد بذّ آلهةَ القريض بأسرهم | ومحا عبادةَ لاته ومناته
ولكم مررتُ بحاسدين لفضله | رغم القِلى يروون من أبياته

لا ندّ بعدله وكم من مجلس أشعار شوقي النّدّ في سمراته
يتمثل العصرُ الحديثُ بشعره حقّ التمثل من جميع جهاته
ولرُبّ بيتٍ يستقل بجملةٍ تُغني عن التاريخ في صفحاته
لم يفتتن من عصره بمساوئ كلا ولم يَغمطه من حسناته
قد لازم الإنصاف في أحكامه لا فرقَ بين صحابه وعداته

***

وإذا سألتَ عن الجهاد فإنه منذ الحداثة كان في سَرَواته
كالسيف في أوضائه ومَضائه والليث في وَثَباته وثباته
ما حلّ بالإسلام حيفُ مصيبة إلا وكان بها لسانَ شكاته
يحمي حقائقه ويوضح سبله ويقيل طول الوقت من عثراته
يلقي على غمرات كل ملمةٍ قولاً يزيل أجاجها بفراته
ويظلّ يرسلها قصائدَ شرّداً غرراً تشقّ الفجرَ عن ليلاته
كانت قصائدُه هي الصوت الذي سرّى عن الإسلام ثقلَ سباته
بعثتْ به روحَ الحياة كأنها هي صور إسرافيل في زعقاته
قد كان أدرى الناس بالداء الذي قد حطّ هذا الشرقَ عن صهواته
داء هو الأخلاق في اضمحلالها فلذا ترى الأخلاق رأس وصاته
وفى عن الشرق القديم نضاله من يوم نشأته ليوم وفاته
قد ذاد عنه بقلبه وبلبه شأن الأبي يذود عن تركاته
ماضٍ يحذّره استلاب تراثه منه ويجهَدُ لأخذ تراته

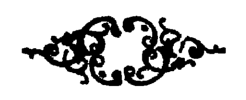
أعلى منارَ الشرق في أوصافه ... وأجاد وصفَ الغرب في آفاته
أوحى إلى الشرقيّ بالطرق التي ... يمشي النُّجاءُ بها لأجل نجاته
أملى مكافحة الذئاب عوادياً ... بالواد مغتصبين حقّ رُعاته
الجائسين ببره وببحره ... والجائشين بنجده ووطاته
والسالبين لزرعه ولضرعه ... والآكلين لثمره بنواته
أشعارُه تحيي وتحيي أمة ... تجدُ الحياة الحقّ في كلماته

* * *

يا راحلاً ملأ الزمان بدائعاً ... من قبل أن نزل القضا بسكانه
أتركت بعدك شاعراً ترضى بأن ... ترعى جيادُ الفكر في تلعاته
يبكي بك الإسلامُ خيرَ جنوده ... أبداً ويرثي الشرقُ ربَّ حماته
وكأن وادي النيل من أحزانه ... يُلقي على الشطين من زفراته
ونوادبُ العربية الفصحى لها ... ندبٌ عليك يذيب في رناته
أنظر إلى الإخوان كيف تركتهم ... من كل مضطجع على جمراته
أنظر لحال أخٍ فداك بروحه ... لو كان يُحيي الميتَ عزمُ فداته
قد كنتَ طول العمر قرّة عينه ... والآن تُجري السخن من عبراته
مضتِ السنون الأربعون ونحن في ... هذا الإخاء نعزّ من قهواته
أرعاك عن بُعد وترعاني على ... عهدٍ نهزّ الرطب من عذباته
قد كنتُ أطمع أن تُرى لي راثياً ... يا من غدوتُ اليوم بين رثاته
كنا نخافُ رداك قبلَ وقوعه ... فلنا الأمان اليومَ من دهشاته

تبّاً لعيش قد يكون مساؤه نوحاً وكان سروره بغداته
والمرء إن ينظر لما يبلى به لا فرق بين بقائه وفواته
فالميت وهو يذوب في حشراته كالحيّ وهو يذوب في حسراته
نرجو لك الدارَ التي عُمارها هم كلٌّ من صنع الجميل لذاته
يضفي عليك الله من آلائه والله لا تحصى ضروبُ هِباته
قد كنت في الدنيا هزاراً صادحاً يُشجي ويُسلي الناس في نغماته
فاليومَ كن بجلال ربك ساجعاً والطائرَ المحكيَّ في جنانه

جنيف : شكيب أرسلان



شوقي



علي الجارم

هل نعيتم للبحتري بيانه
أو بكيتم لمعبدٍ ألحانه
أورأيتم روض القريض هشيماً
بعد ما قصف الردى ريحانه
فزعت طيره فخوٌ من يبكيـ
ـنَ ذبولَ الخميلة الفينانه
كنّ في ظلها يغنين للشر
ق ويُنهضنَ للعلا شبانه

كنّ في ظلها يحيين مجداً   صاعداً ضلت النجومُ مكانه
كنّ في ظلها يناغينَ آما   لاً ويبعثن همةً وهنانه
أيها الطير ضن ماءُ القوافي   فبذلنا دموعنا المتانه
مات يا طير صادحٌ تسجد الطيـ   ـرُ إذا رجع الصدى تحنانه
نبراتٌ تخالها صوت داو   دَ بلفظٍ تخاله تبيانه
علمتْ الابتسامَ زنبقةُ الوا   دي وأوحت لغصنه ميلانه
مات شوقي و كان أنفذَ سهمٍ   صائب الرمي من سهام الكنانه

ابكِ للشمس في السماء أخاها وابكِ للدهر قلبه ولسانه
وابكه للنجوم كم سامرته مالثاتٍ بوحيها آذانه
وابكِ للروض واصفاً يخجل الرو ض إذا هزّ باليراع بنانه
وابكه للخيال صفواً نقيـاً إنه كان في الورى ترجمانه

* * *

ملأ الشرق موت من ملأ الشر قَ حياةً وقوةً وزكانه
كم يتيمٍ من المعاني غريبٍ مسحت كفه عليه فصانه
وشموسٍ رنا إليـه فألقى رأسه خاضعاً وأعطى عنانه
ونفورٍ أزرى بصياده الطب وأعيا قسيَّه وسنانه
نظرةٌ تلتقي به ينهب الوا دي وأخرى تراه يطوي رعانه
تسبق السهم عينه فتراه يتلوّى تلويَ الخيزرانه
ثم يخفى فلا تراه عيونٌ ثم يبدو فلا تشكُّ عيانه
أجهد الفارس الملحّ وأفنى نبله حوله وأضنى حصانه
وهو يعدو لا الرأس مال من الأ ين ولا قلبه شكا خفقانه
مدّ شوقي إليه نظرة سحرٍ عوّقت دون شوطه جريانه
فأتى مشيةَ المقيد يسعى بين هولٍ وذلةٍ واستكانه

* * *

غزلٌ كالشباب ينضح آما لاً ويهتزّ في حلى فتانه
تسمع الحب في نواحيه همساً يتناجى ويشتكي أشجانه

وتحس الهوى يرف حنانا شرك الحب أن تحس حنانه
وإذا جال واصفاً راعك الحسـ ـن وأكبرت فنه وافتنانه
صور زينتها بيان سري مزج الله وحده ألوانه
لو (رفائيل) رآها غاله البهـ ـر وألقى ألواحه ودهانه
عالم بالنفوس ما غاص ميل في خفايا النفوس حتى أبانه
أودع الدهر مسمعيه عن الكو ن حديثاً فلم يطق كتمانه
ذاك سر الإله يختص من شا ء بآثار فضله سبحانه
ورثاء لو كان يسمعه الميـ ـت لأحيا بسحره جثمانه
عرف الموت والحياة جميعاً ورأى بعد حيرة برهانه
والروايات أدهشت كل لب ثم أربت فأدهشت شيطانه
يغمض العين في اضطراب إذا احس طروق الإلهام أو غشيانه
ثم يملي كأنه من كتاب قارىء في سهولة ومرانه
جوهري ود الكواعب لو يشـ ـرين يوماً بحسنهن جمانه
زان مصراً بلؤلؤ يبهر العيـ ـن وأولى تاريخها عقيانه

* * *

كان صباً بمصر كم هام شوقاً بربها وبثها أحزانه
دفن اللهو والصبا في ثراها وطوى من شبابه عنفوانه
هي بستانه فغرد فيه وحبا كل قلبه بستانه
يحرس الفن في ظلال نواحيـ ـه ويرمي عن دوحه غربانه

بعشق النيل والخمائل تهتزُّ بشطيه خضرةً ولَدانه
يعشق النيل والجزيرة تغريـ ـه وقد لفّ حولها أردانه
يعشق الجسر والسفائن تهفو حوله كالحمائم الظمآنه
ويحب السواد من عين شمسٍ مالئاً من رُوائه أجفانه
كل شيءٍ بمصر يبهر عينيـ ـه جمالاً ويستثير جَنانه
كلما هزّه إلى الشعر شوقٌ جذب الحبُّ نحوها وجدانه
فشدا باسمها كما تصدح الطيـ ـر وقد شمّر الدجى طيلسانه
وجلا مجدها القديم جديداً بعد ما هدّم البلى أركانه
في خشوع يشيد باسم (فؤاد) مثلما ردد المصلي أذانه
ملك مدّ للفنون يميناً علمت كل محسنٍ إحسانه
نظرة منه زادت الشعر زهواً وأعادت لعهده ريعانه
نحن في ظل تاجه في زمانٍ ودّ (هارون) أن يكون زمانه

* * *

أول السابقين شوقي إذا جا ل ذوو السبق يبتغون رهانه
شعره حكمةٌ وصدق خيالٍ وجمالٌ وروعةٌ ورصانه
ومعانٍ شوقيةٌ في سياق بحتريٍ ورقةٌ في متانه

* * *

يا مجير الفصحى وقد عقها الدهـ ـر وأغرى بقومها حدثانه
نزلت من ذراك روضاً مريعاً هدّل النور وجنى أغصانه

عادها رونق الشباب وكانت رمقاً بين كبرة وزمانه
وحمتها يداك من شر باغ في زمان طغت عليه الرطانه
ذكرتها رنات صوتك قوماً سلفوا من هوازن وكنانه

***

رفعت مصر راية الشعر في الشر ق وأولت أميره صولجانه
ومشى الدهر في الوفود إلى البيعة يحتث نحوه ركبانه
ورأينا مجداً يشاد لمصر يعجز الوهم أن ينال قنانه
وسمعنا بكل أفق رنيناً رددته القصائد الرنانه
هكذا كل من يريد خلوداً يجعل الكون كله ميدانه
هكذا فليسر إلى المجد من شاء ويرفع بذكره أوطانه

***

خلق كالندى وقد نقط الزهر فحلى وشي الرياض وزانه
وصباً يملأ الزمان ابتساماً وحجاً يملأ الزمان رزانه
وسماح يلقى الصريخ بوجه تحسد الشمس في الضحى لمعانه
شيم في تواضع وحياء في وقار وفطنة في لقانه
وحديث حلو له روعة الشعر فلو كان ذا قواف لكانه
ويقين بالله ما مسه الضعف ولا طائف من الشك شانه
هو في الشمس والكواكب نور وهو في الأرض والجبال ركانه
ملك الدين قلبه وهواه وجلا الشعر ساطعاً إيمانه

يمدح المصطفى فتلمح حبا عاصفاً آخذاً عليه كيانه
وتراه يذود عن آله الغر وفاءً لحبهم وصيانه
حسبه أن يجيء في موقف الحشـ ـر فيلقاه مالئاً ميزانه

***

طوفت حوله الملائكة الطهـ ـر ومست بطيبها أكفانه
إن معنى الحياة فيه من المو ت معانٍ لو يفهم المرء شانه
يهدم المرء كل يوم ويبني ثم يهوي فلا ترى بنيانه
نحن حب في قبضة الدهر يلقيـ ـه ويجنيه مدركاً إبانه
إن هذي الحياة بحر وكل بالغ بعد سبحه شطآنه
قد قضى الله أن نكون فكنا وقضينا وما قضينا لبانه

***

أيها الراحل الكريم لقد كنـ ـت سواد العيون أو إنسانه
نم قريراً في جنة الخلد وانعم برضا الله واغتنم غفرانه
والتمس نفحة الرسول وطارح في أفانين مدحه حسانه
كيف يوفي الشعر الذي ملك الشعـ ـر وألقى لغيره أوزانه
ورثاء البيان جهد مقل للذي خلد الزمان بيانه

مصر : علي الجارم

مصباح البيان

مالوا بمصباح البيان صباحا ... ومشوا به في الذاهبين رَواحا

ومضوا به إلا شعاعاً لم يزل ... في الأرض مؤتلق السنى وضّاحا

تهفو النجوم إلى سناه وتغتدي ... نشوى كأن من الأشعة راحا

وعلى جوانب أرضها وسمائها ... شفقٌ تقلّدُه السماء وشاحا

هذا شعاعُ العبقرية لم يزل ... يُولي الحياة طلاقةً وسماحا

قدَر الخلودَ له وبارك أفقه ... ربٌّ أراد به هدًى وصلاحا

أجرى البيانَ على لسان نبيه ... غدَقاً من السحر المبين قَراحا

وحبا به الشعراء من ألحانه ... فشدَوا بألسنةِ الطيور فِصاحا

لما مشى في الأرض فجر صخرها ... ماءً ونضرها رُبىً وبِطاحا

وأنار في شرف السماء نجومها ... فتلونَ من آياته الألواحا

فكأنما الدنيا ضحى وكأنما ... في كل داجيةٍ نرى مصباحا

***

قل لابن هانئ لا ذوت لك كرمةٌ ... فقد الربيعُ مزارها الصدّاحا

قد كنتُ في أمسٍ نزيلَ رحابها ... فنزلت أشرف ما أُبلّغُ ساحا

ألقى وأسمع عبقرياً مُلهماً ... طلقَ المحيا ماجداً مِسماحا

يُولي النفوس بشاشةً وينيلها ... أدباً ويسقيها الوداد صراحا

أنست زمانًا بالبيان وأهله حتى تبدّل أُنسها أتراحا
وقفت بي الدنيا على جنباتها فرأيت حزنًا واستمعت نواحا
وشهدت ظلّ الموت فوق ظلالها يغشى الربى ويجلل الأدواحا
وجمت وكانت بالطيور شواديًا تستقبل الامساء والاصباحا
وذوت أزاهرُها ونفّر طيرها ينزو ويقطر أدمعًا وجراحا
يبكي من الصدَر الورود لجدولٍ كم عبّ من دفاقه وامتاحا
لما نعيتَ لها تزايل حسنها وصغا الربيع بوجهه وأشاحا
سيّانِ بعدك يابن هانئٍ دهرها يسري نسيماً أم يهبّ رياحا
قم وابك للشعر النبوغَ وقل له أمضى زمان النابغين وراحا
واهتف بصومعة البيان فقد خلا عهدُ الرسالة بالقريض وطاحا
ولّى بسرّ العبقرية شاعرٌ اللهُ هيأه لنا وأتاحا
لم تسعد الفصحى بمثل يراعه يومًا ولا لقي الخيال جناحا
شعرٌ حوى الدنيا ونسق حسنها صورًا ومثلها مُنى وطِماحا
يستلهم الأكوانَ وحيَ جمالها حتى لَينطق وحيها إفصاحا
ويزيح عن ماضي العصور ستارها فترى بها الغادين والرُّوّاحا
هو مثل هذا الطير في صدحاته والزهر لطفًا والعبير نفاحا
وأراه كالبحر الخضمّ عُبابه يعيي مداه الخائضَ السباحا
ويظنه الملاّح طوعَ شراعه فيردّ عن غمراته الملاّحا
يهدي إذا هدأ الثرى أصدافه وإذا تمرّد درّه اللمّاحا

وأراه حين يرقّ خاطرَ نسمةٍ ... وإذا قسا فالعاصفَ المجتاحا
شعرٌ يشفّ عن الحياة وداعةً ... ويؤجّ منها ثورةً وكفاحا
ويبين من غضب النفوس وصفوها ... مثل الحياة كآبةً ومراحا
ويفيض من نبع القلوب فآنةً ... ماءً وآناً جاحماً لفّاحا
والشعر مرآة الحياة ولم يزل ... يجلو الرؤى ويصوّر الأشباحا
والشعر من أدب النفوس ولن ترى ... من دونه هدياً ولا إصلاحا
ولقد تذوّقت الحياة فلم أجد ... كالشعر رِيّاً للنفوس وراحا

***

قل للكنانة عن رمائك أقصري ... فلقد فقدت الراميَ النضاحا
صياد أسراب الجمال إذا رنا ... جاءته ما عرفت لديه جماحا
يدني القصيّ من الشوارد لفظه ... ويروض منها النافرَ الممراحا
من كل معنى بالروائع حافلٍ ... يُجلى كما تجلى الشموس صباحا
وقصيدة كالروض باكره الحيا ... فاهتزّ ريحاناً ورفّ أقاحا
من للطبيعة يستزيد جمالها ... غرراً كآيات الكتاب وِضاحا
ذهب الذي غنى خمائلَ روضها ... حتى مددن إلى النسيم الراحا
المرقصُ الزاهرت فوق غصونها ... والمستخفّ عبيرها الفوّاحا
والمسعد الأيكات منه بملْهَمٍ ... كانت به الجناتُ قبلُ شِحاحا
أوحى له المرحَ الوجودُ فصاغه ... شدواً وعلّمه النواحَ فناحا
لما جلا سرَّ الحياة لقلبه ... أفضى بأسرار القلوب وباحا

سبحان من أهدى الخيال يراعه　　وهدى له الإبداع والإسجاحا
فتسمعوه فلم يزل من شعره　　شادٍ يهزُّ بسحره الأرواحا

* * *

يا نازحاً عنا نزلت بعالمٍ　　تلقى الأحبةَ فيه والنزّاحا
فاحلل بجنات الخلود ورَوِّ من　　عين النعيم فؤادك الملتاحا
واملأ من الزهر المنوّر والجنى　　كفيك واطرح عبئك الفدّاحا
سترى الرسول على معطر روحها　　يهدي إليك ببابها المفتاحا
يسعى بحسان إليك وأنتما　　وضحان من فجر النبوة لاحا
يختال في بردية من بردةٍ　　حاك القريضُ خيوطها أمداحا
يستاف من ميلاده شوقيةً　　الله كان لمسكها النفاحا
فاشرح هواك له وبثّ لواعجاً　　كانت لمنّ دموعك الشراحا
أبلغ إلى (صبري) التحية والهوى　　عنا وحيّ جبينه الوضاحا
وامسح دموعك عن أسرّة حافظ　　فلقد لقيت بقربه الأفراحا
وتساقَ أقداح المسرة معها　　فلكم ملأتَ بدمعك الأقداحا
واذكر على الأرض الشقية رفقة　　بانوا عليك يقلبون الراحا
في عالمٍ ما زال في غُلَوائه　　ومُنى على رثّ الحطام تلاحى
أشرق بوجهك في غياهب ليله　　يخلع دجاه إذا جبينك لاحا
وأضئ على شطّ الحياة منارةً　　واطلع بكل دجيةٍ مصباحا
ونم الغداةَ وحسب روحك أن ترى　　من نور مجدك هذه الأوضاحا

مصر :　　علي محمود طه

الشاعر العلم



الشيخ فؤاد الخطيب

خلا المجالُ وأودى الشاعرُ العلمُ
لا الوحيُ باقٍ ولا الآياتُ والحِكمُ

وأمست الصحف كالأكفان من جزعٍ
مطويةً لُفَّ فيها بعده القلمُ

وخيّم الصمتُ إلا أنهُ نطقت
بالحزن تخنقها الأنفاس تزدحم

أحافظٌ ثم شوقي بغتةً ومعاً
يا ويح للدهر كيف الدهر ينتقم

كلاهما كان لي خدناً وكان له
في دولة الشعر تاجُ الشعر والعلم

طلقَ اليراع بعيدَ الغور مطلعاً
على الضمائر في الألباب يحتكم

فنيّ فأطرب أرضَ النيل فادّكرت
عهد الصفاء وكاد العهد ينصرم

وهاج منها الأُباة الصيد فانجردت
للخصم تحت شفار البيض تقتحم

* * *

وإن تغزل مرّت للهوى صورٌ
في الشعر محكمةُ الأطراف ترتسم

فحدث القلبُ فيه القلبَ مفتتناً
ومال فيه فمٌ يلوي عليه فم

وأبصر العاشق المهجور دمعته بين السطور وقد سالت بها الكلم

***

وفيه تلمح ما في النفس من ألمٍ وكيف يسفر عن ألوانه الألم
وتلمس الأملَ المفقود خافقةً له الضلوعُ وقد همت به الهمم
هو العزآء هو النجوى لطالبها هو المُقيل لمن زلّت به القدم

***

ومنه يعبق ما في الروض من أرجٍ وما يبثك في أنفاسه النسم
ومنه يشرق وجه البدر مؤتلقاً ومنه يبرق ثغر الفجر يبتسم
ومنه بين حواشي الزهر نمنمةٌ ومنه تحت لسان البلبل النغم

***

لهفي على (الضاد) كيف اندكّ جانبها صعقاً ومدّ بها الناعون صوتهم
فأين (أحمد شوقي) أين من لجأت إليه بعد كتاب الله تعتصم
بنى فشيد للأخلاق مملكة عزت ومنه لها الأركان والدعم
« وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت » هو الذي قال فلتسمع له الأمم
طوى المراحل سباقاً فما انتقصت منه الكهولة من جهدٍ ولا الهرم
شعرٌ عليه الشباب الغضُّ وارفةٌ منه الظلالُ نميرُ الورد منسجم
والراح أجود ما كانت معتقةً ومن مزايا الأصيل العتق والكرم

***

كم عبرةٍ عن بني الأردن أحملها إليك يا مصر والأردن يلتطم

أرضٍ وإن صغرت حجماً فقد عظمت ولا يفوت صغيرَ الجوهرِ العظم

***

أبا عليٍّ ملأتَ الشرق من غُرَرٍ لا الوَدْقُ أسدى الذي أسدتْ ولا الديم

نشأتَ في أمةٍ ليست بغافلةٍ عن النبوغ وعما توجب الذمم

وفتك قسطك لم تبخسك معرضةً بلهاءَ في أذنيها الوقرُ والصمم

وهزّ مصرَ إلى تكريم شاعرها شعورُها الحيُّ لم تعلق به التهم

هو الدليل على حق الحياة لها إن الشعور هو القسطاس والحكم

ولا حياة لشعبٍ لا شعورَ له وإن تحرك في طي العروق دم

وكم أديبٍ وراءَ النيلِ نضو أسى يموت حياً وتحيا دونه الرمم

***

وقد رزقتَ ملوكاً ملءُ بردتهم علمٌ ومجدٌ وفي عرنينهم شمم

خصوكَ عن كرمٍ منهم بكل يدٍ وبالعناية لا بخلٌ ولا سأم

فكنت بعضَ أياديهم وكنت لهم فخراً وعند سواهم يُعبد الصنم

***

لله در (فؤاد) كيف يجمعهم فرداً وتبدأ منه النهضة العمم

قد التقت فيه أشتاتاً مناقبهم فالفضل والنبل والإسلام والشيم

***

وكم مدحتَ رسولَ الله فاتسقت لك الشفاعةُ عهداً منه يُغتنم

رثيت من آله الأبرار مغترباً في القدس ناح عليه البيت والحرم

وإنها نعمة الدنيا وإن لها ... فألاّ تؤكد في الأخرى به النعم

***

وهل شكت أمةٌ في الشرق من نقمٍ ... إلا انتفضتَ ومست قلبك النقم

فشقَّ صوتك سمع الأرض مرتفعاً ... في الذود يدرأ عنها كل ما يَصِم

لولا انتصارك لاستخذت على مضض ... خرساءَ مفحمةً بالعجز تتسم

فأين أنت وأين المستعان به ؟ ... الله أكبر عمّ العمي والبكم

***

بكتك مصرُ وضجت لوعةً وجوى ... وأظهر الحزن ما في النفس ينكتم

وصلت ماضيها الأعلى بحاضرها ... فكان شعرك سِمطاً فيه تنتظم

خلدت فيه لها التاريخ متصلاً ... بما يقصر عن تخليده الهرم

فثَمَّ مصر وما في مصر من دولٍ ... وثَمَّ فرعون والأعوان والحشم

وقد خلعت على أعطافهم حللاً ... من البيان فلم يمسسهم العدم

هي الوِقاءُ لهم من كل غائلةٍ ... هي الحنوط الذي لم يُفنه القدم

***

وقفتُ في مصر حلفَ اليأس أسألها ... أين الأحبة والإخوان أين هم ؟

فقدتهم فرزئت الأهل من ولدٍ ... ومن أخٍ وأبٍ فالثكل ثكلهم

وكنت أزعم أن الصبر لي مددٌ ... وكنت أحسب أن الجرح يلتئم

إن لم تكن بيننا الأرحام جامعةً ... إن المودة في الدنيا هي الرحم

عمان (شرقيّ الأردن) : ... فؤاد الخطيب

رثاء شوقي

مأتم الشمس

كفكفوا الدمع وضنوا بالأنين ... واغضبوا للشمس والحق المبين
جل خطب الشمس عن ماء الجفون ... وتعالى عن نشيج النادبين
آذنوا الدهر لظى الحرب فقد ... وترت كفاه أم العالمين
توأم الدهر سطا الدهر به ... وانثنى بادى الأسى في النادمين
عق أماً وتولى بأخ ... عبقري النفس بالخلد قمين
لبس الليل حداداً وارتدى ... معطفاً من سوء عيش المعدمين
ودموع الليل ما نشهده ... من نجوم حبساً لا ينثنين
وندى الأزهار دمع حائر ... مفصح عما أجنت من شجون
ما لعاب الشمس إلا عبرة ... قد أعدتها له في الموجعين

* * *

عبثوا للدهر جهراً وانسجوا ... أنجم الليل حديد الدارعين
واشتروا رمح السماكين فقد ... عز من يعدي على الدهر الخؤون
واستثيروا الليث في نثرته ... فهو إن أصغى لكم خير معين
واستشيروا القطب كي يخبركم ... كيف حال الدهر في الحرب الطحون
واخشنوا في طلب الثأر فما ... تدرك الأوتار كف الناعمين
واحشدوا ما اسطعتم واستنجدوا ... مرسل الأفلاك والكون سكون

وقفوا واستوقفوا الشمس على قبر شوقي فهي لا تأبى الركون
وانثروا عقد الثريا في ثرى قبره يهدى وفودَ الزائرين
وضعوا الإكليل عقداً شاهداً أن شوقي في كبار الخالدين
وامخروا من نورها في لجة واركبوا من شعره أجرى سفين
ودعوه ينتبذ من أمه مرقداً يعيي البِلى فيه الدفين
واقطعوا من ضوئها أكفانه حبراً تعشي عيون الناظرين
واجعلوا اللحد حشا تامورها فحشا الأم جديرٌ بالبنين
ثم عزّوها على رأد الضحى ولقىً في كبد الغرب شفون
من رأى الشمس تعزى وابنها كاسفٌ تسطو به في الواترين
وهما ابنان عصاها واحدٌ إسمه الدهر أخو كيدٍ مكين
ثعلبٌ تذكرنا راحته كفَّ قابيلَ أخي الرأي الغبين
جدعت موساه من مارنه ولقد كان به جدٌ ضنين
مأتم بين ذُكاء وابنها جلّ عن شق جيوبٍ وأنين

الموت

يا معزي الناس في آلامهم كلنا اليوم كليمٌ وحزين
قم نصفح فِقرَ الدهر قرونْ وانثر الدهر شهوراً وسنين
تبصر الناس كما لابستهم عوّماً في لجة الدهر كرين
يبعث الشعرُ بهم صيحته ليُرَوا في السابحين الكادحين
ينسج الباقي على ما أسأرت راحةُ الماضي فطيناً وأفين

صورٌ تطوى وقولٌ يفترى وغيوبٌ لا تأرّاها العيون
وصفِ الحشرَ كما تُلْهِمُهُ يعجز الوهمَ مدى والواهمين
وانعتِ الفردوسَ وابعثها لنا صوراً تزهي نفوس المتقين
واصعد الأعراف وانظر سقراً وهي ترغو بجموع المجرمين
كيف سِيقوا فثوَوا من بعد ما كُبكبوا فيها وهم لا يَدفعون

***

كنت مجاثا عن السر الكنينْ فغدوت اليوم في السر الكنين
عبرةٌ أملت علينا عبراً كنت تُهدي مثلها للغافلين
أزلٌ يدفعنا في أبدٍ يُعجز الظنّ وأيدَ الأيدين
سفرةٌ ما آب من شقتها أروعٌ داهٍ ولا ندبٌ فطين
ما عرفنا الموت إلا نمراً مزبئراً أحمرَ الناب حرون
يَغلُ الغيلَ على رِئبـاله غيرَ مُعفٍ في مراعيها الضئين
مدمنٌ يشرب من أرواحنا ليس يُروى أو يُبيدَ الآخرين

***

ما بكاء الطير إلا ذلةٌ واعترافٌ لقصور الصائدين

الشاعر

إنما الشاعر في أمته مرسَلٌ من ربه لو يهتدون
زورقٌ من رحمةٍ في لجةٍ زخرت بالآثمين الغاشمين
تقطر الحكمة من جدرانه وسَدادُ الرأي والارزاءُ جون

فطنةٌ تلتهم الغيبَ إذا ما استشفّ الغيب جهد العَيِهين
بلغاةٍ صوّرتها قلماً قدرةُ الخلاق حرب الظالمين
ينطف السمُّ على ريقتــه وبه تؤْسى جروحُ اليائسين

***

جلَّ صنع الله ما أروعه وتعالى عن بَنانِ الصانعين
نوسع الخلق بياناً وهدى بضعةٌ عنصرها صلصال طين

***

خُلق الشعر لتعريف العلى ولتمجيد العظامِ النابغين
وقديماً مهد الشعر لمن يبتغي المجدَ سبيلَ السالكين
إن يكن عقــّ بياني قلمي ومضى في الناشزين الجامحين
فلقد كانَ ذَلولاً طيعاً دِمثَ الصهوة من غير وَضين
رب ذي شقٍّ له في طِرسه خيلاءُ الفاتحين الثَّملين
سال ذوبُ السحر في قرطاسه مستخفاً بعروش المالكين
عيّ بالخطب بياناً فهفا وتخفى عن عيون الكاتبين
يثقل القول (بيحران) الأسى كاهلَ الشعر وطوقَ الناظمين
فاعذرنْ نِضوَ خطوبٍ وأذى بيد الأسقام والبؤس رهين
وأنا الشاعر من يجهلني ماردٌ شيطانه جدّ لعين

شوقي والشعراء

يا أميرَ الشعرِ قد غادرته لعباديدَ ضعافٍ ضارعين

إمرةُ الشعر وما أضيعها ... ﺳِﻴﻤﺖ الخسفَ بأيدي الغاصبين
وعبيدُ الشعر لا أذكرهم ... أنت أدرى وهمُ عدُّ المئين
يقلقون الليلَ لا يَشغلهم ... غير تقليب شروحٍ ومتون
ينحتون الشعر كزًّا جافياً ... ويظنون المنى ما ينحتون
عجباً للمرء يُعطى مِقْوَلاً ... كيف لا يأنف أن يرضى بدون
وسَراةُ الشعر ما أندَرهم ... في قديم الدهر أو في الحاضرين
فُتِّهم في كل مضمارٍ فلو ... ألقَوْا السحر لخروا ساجدين
منحوك التاج في عصرٍ به ... شرست أيدى الأُباة الخالعين
كنتَ موسى والعصا لاقفةٌ ... ما أعدوا في ظلامٍ ساهرين
وأحلوك وقد فارقتهم ... مهجاً خفاقةً في الذاكرين
في قلوبٍ أترعت فيضَ شجى ... لجرى في كل عرقٍ ووتين
في مُدَبِّ الشك في مجرى المنى ... حيث مثوى الحب والسرُّ الكمين
أمةٌ لو ضمن الله لها ... مثل شوقي لاستعاذت بالضمين
وانبرى يرثيك في حفل البِلى ... هِبرِزيٌّ يملأ الكونَ لحون
يا سَريَّ الشعر لا ترضى به ... غير فذٍّ شامخٍ يأبى القرين
جزتَ والشعر مدى لو جازه ... غيرُ شوقي لكبا في العاثرين
كنت والعرب نميراً سَلسلاً ... وعطاشاً حوَّماً لا يرتوون
منطقٌ عند الدراري ويدٌ ... لبس ترضى البرقَ في الطِرس خدين
ويراعٌ ما نفت راحته ... غيرَ غثٍّ وحوت غيرَ سمين

خاطرٌ من لهبٍ يدعمه ‌ ‌ ‌ طبعُ جبارٍ ثوى في الوادعين
وبيانٌ نجرُه في مارجٍ ‌ ‌ ‌ تحفل الجنُّ به في الحافلين
جال ماء النبل في أعراقه ‌ ‌ ‌ وبدت فيه تحاسينُ القرون
وذكاءٌ خضع (الراد) له ‌ ‌ ‌ وحسامٌ ما رأى ساحَ القيون
خدعٌ في متعٍ شاب بها ‌ ‌ ‌ لهجةَ البادين غنجُ الحاضرين
يتراءى اللفظ فيها شفقاً ‌ ‌ ‌ والمعاني فلقَ الصبح اليقين
نمنم الوشيُ على أنماطها ‌ ‌ ‌ نكتاً كالزهر في حالي الغصون
همساتٌ في ضمير الدهر ما ‌ ‌ ‌ فتئت توقظ حشدَ النائمين

***

كوكبٌ لألأ في ضافي الدجى ‌ ‌ ‌ وفرِندٌ سُلّ حيناً ثم صين
شقّ ديجوراً وجلّى ظُلماً ‌ ‌ ‌ وانتحى بالنور أجفانَ العمين

كرمة ابن هانيء:

يا حِراءً حنّ من شوقٍ لها ‌ ‌ ‌ مهبطُ الوحي وبطحاء الحَجون
رفرف الغيبُ على أسوارها ‌ ‌ ‌ فهي وحيُ الغيب والسرّ المصون
رققت فيها جلابيبَ الدجى ‌ ‌ ‌ أوجهٌ كالزهر في ساجي الدُّجون
فيواقيتُ بها منثورةٌ ‌ ‌ ‌ زهراً أو من حديث السامرين
جالت الأوطار في ساحاتها ‌ ‌ ‌ تتهادى بين أبكارٍ وعُون
صفقَ الراحَ بها ذو حنكةٍ ‌ ‌ ‌ قتل الدهرَ مداراةَ شؤون
شعشعت فيها وطافت رشفاً ‌ ‌ ‌ من لمى الغيد كؤوس الأندرين

وسعت داراتها هادئةً كلَّ جدٍّ واستراحت للمجون
لو تراءت (لابن هاني) في الثرى هبَّ يستجدي فتاها ويدين
أو ثوى فيها (ابن بردٍ) ليلةً عاد من بعد العمى في المبصرين
ومشى يلقي إلى عاهلها صولجانَ الشعر شيخ القارضين

***

عبقرٌ للجن في أرجائها هزجُ الوُرق ومصقولُ الحنين
فشياطينُ تهاوى وُقَّعاً وعفارى تتسامى مقلعين
يعملون الليل حتى ينجلي عن صباحٍ ويُرى الرَّوح الأمين
أصبحت بعد فتاها قد عصى جَنيُها الغضُّ بَنان العاصرين
واشمأزّت وأبت حاردةً حانياتُ الدَّوح كفَّ الماصرين
أنكر الطيرُ بها أغصانه ونبت عن جنبه فيها الوُكون
خفَّ عنها فلها في إثره أحوذيُّ الشعر ممدود الرنين

أبناء الفراعين :

إيه أبناءَ الفراعين الأُلى هم جمالُ الدهر زين الغابرين
من بني الشمس بهاءً وعُلًى واختيالاً دونه كبر الذَّوين
عَبقُ المجد ثرى أجدادكم وجلالُ الخلد في جنب القطين
تركوا الجندلَ عنهم ناطقاً يخطب الأجيال حيناً بعد حين
غازلوا الدهر فتى فارتجلوا طُرف العلم ومَوشيَّ الفنون
أسكروه فتهادى طيعاً أريحيَّ النفس فيما يبتغون

سخروا أبناءه في مجدهم ... يرفعون الشم لا يستنكفون
سموا بالخلد فاستهواهمُ ... فبنوه قطعاً لا يلتقين
وَسَمُوا الدهر على صلعته ... ببنانِ العلم واللبّ الرصين
حيثما يممتَ من آثارهم ... راعك المجدُ شمالاً ويمين
طأطأ الغربُ لهم هامته ... يُكبر الإبداعَ للمبتدعين
عظةُ الأجيال تضوى عندها ... كبرياء الدهر والمستكبرين
هجنت غُمدانَ بل أزرت بما ... غادرته إرَمٌ في المالكين
ما مباني عدَنٍ في جنبها ... غيرُ أكواخٍ تواري المسنتين
غالبت غُلب الليالي ما ونت ... واستهانت (بالقرون الأربعين)
أثرٌ ما كتب الله له ... أن يُرى بعدهم في الدارسين

***

عقدَ الشعرُ بكم حَبوته ... حقباً يحمد مثوى المغدقين
ثم أهوت راحةٌ جبارةٌ ... ذهبت بالشعر والكنز الثمين
كعبةُ الشعر هوت أركانها ... فضعوا الركنَ على أسٍّ متين
حلقت بالشعر عنقاء الردى ... في مهاوي الغيب والكون الجنين
وتولت بفتى الشعر يدٌ ... تُرشف الآخِرَ كأسَ الأولين
فتوزعتم مع الناس الأسى ... وخُصصتم فخرَه في الفاخرين

***

حلت الضاد بكم فاعتصمت ... بالحمى الأمنعِ والحصن الحصين

(أزهر) يحنو وكفٌ طلقةٌ ... تصغر المالَ وبذل الباذلين
فلكم في جيدها ما بقيت ... مننٌ مائلةٌ لا يمّحين

شوقي في الشام

لست أنسى هزةً شعريةً ... لك في قوميَ والقولُ ديون
قدحت صلدَ الصفا متقداً ... وأثارتها لظى حربٍ زَبون
وانتحت (مروانَ) في غافي الثرى ... و(ابنَ هند) رجلَ الدهر الركين
شبت الثورة في مربضها ... تنتزى بدماء الثائرين
تصف الملك لمن ينشده ... وهو منهم أمَمٌ لو يعلمون
هجت فيهم نخوةً فهريةً ... طأطأت في الدهر كبر الجائرين
نلتَ من غفلتهم فانبعثت ... قطعُ الليل تجارى للمنون
ذكروا آباءهم فاستنفروا ... وتعادَوا للوغى مستنفرين
ذكروا ملكاً ومجداً وهدًى ... وسجايا صادقاتٍ لا تَمين
فتجارَوا والمنايا دفعاً ... لا يبالون المنايا طرين
وهمُ العرب إذا هيجتهم ... هجتَ منهم فاتكاً ليثَ العرين

***

خيرُ ما في الليث من أخلاقه ... أنه ذو غضبةٍ لا يستكين

***

علموا الناسَ أفانينَ العلى ... وضروبَ المجد من دنيا ودين
ملأوا الأرض صليلاً واتقوا ... قولةَ الذم ونقد الناقدين

إن نزَوا رجّت بهم أرجاؤها أو دعوا للفخر كانوا الأطولين
طرح الناسُ لهم تيجانهم بعد أيامٍ شدادٍ مرغَمين
صرفوا الأيامَ عن غاياتها وتولوا بالليالي حاكمين
قوّموا من عِوَجِ الدهر فلم يجرِ صرفٌ بسوى ما يشتهون
طرّز الدهرُ بهم بُردنَه ومضى يخطر تيّاهَ الجبين
ألفوا الفتح فلولا وُعدوا جنة الخلد أتوها فاتحين
ثم أمسوا عبراً مبثوثةً في حواشي الأرض للمعتبرين
ظلموا أنفسهم فامتُهنوا دركُ الهُون مصيرُ الظالمين
ليس للإنسان إلا ما سعى رابحاً في السعي أو في الخاسرين
والفتى وقفٌ على آثاره يتحدّرنَ به أو يعتلين

* * *

لم تمت نفسٌ حوت في شعرها أمةً بل أمماً في الناهضين
أنفت سُكنى الثرى فانتجعت في ظلال العرش ساحَ المرسلين

دمشق : محمد البزم

شاعر الدنيا

لا الأمسُ يسلبك الخلودَ ولا الغدُ — هيهات أنت على الزمان مخلد
تتجدد الدنيا وقلبك وحده — دنيا تعيد شبابها وتجدد
لك من خيالك عالَمٌ متناسقٌ — بهجٌ تُنيق خلقه وتجوِّد
أما البسيطة فهي فيه خميلةٌ — ولع الربيع بها ورُحتَ تغرِّد
وسكبتَ في الأنغام قلبك دمعةً — لا كالدموع ورحمةً تتنهد
خلع الحياةَ على البِلى فكأنه — للبعث من قبل الأوان يمهد
قيسٌ وليلى بعد طول كراهما — ثغرٌ يرفُّ ووجنةٌ تتورَّد
بعثا كعهدهما القديم فمن رأى — تلك العيون يجول فيها الإثمد

***

في كل قافيةٍ حياةٌ تُجتلى — ومُنى تضوع وزفرةٌ تتردد
صور الجزيرة ما جلوت من العلا — والحسن لا ما أولته الحسد
الحب والخِيَمُ المنيفةُ والقرى — ولبانةٌ عند الكثيب وموعد
وسكينة الصحراء إلا هازجا — مَرِحًا بعيد حداءه ويردِّد

***

يا شاعر الدنيا لقد أسكرتها — ماذا تغنيها وماذا تنشد
خفَّت بزينتها إليك مَشوقة — سكرى تداعب كأسها وتعربد

وجلت على الشعراء قبلك حسنها لكن أراك شهدت ما لم يشهدوا

نظروا إلى خير الوجود وحسنه شزراً كما نظر الضياء الأرمد

الزاهدين بها ولو كشفت لهم سرّ الحياة المشتهى لم يزهدوا

أطريت فتنتها فدع في غيه من راح يعذل حسنها ويفند

العبقرية شعلة من نارها حمراء ناضرة اللظى تتوقد

والشعر والنغم الشهي ورحمة تسع الوجود ونقمة تتوعد

يا فتنة الدنيا يذمك معشر والخير كل الخير في أن يحمدوا

ألهب نبوغك بالحياة وحبها وأنا الضمين بأنه لا يخمد

الكنز بين يديك فأنثر دره إني أراه يزيد حين يبدد

* * *

يا شاعر الدنيا نديك حافل والجمع مصغ والمواكب حشد

يتنظرون السحر من جباره هيهات دون السحر باب موصد

يشكي إليك وأنت رهن منية وتزار في عنت الخطوب وتقصد

ولقد يرجى السيف وهو مثلم ولقد يهاب الليث وهو مصفد

فاذهب كما ذهب الربيع على الربى منه يد وعلى النفوس له يد

ولك الإمارة في البيان يقرها أمس الزمان ولا يضيق بها الغد

يعلي أبو الفاروق من بنيانها ويصون عزة ملكها ويؤيد

(بدوي الجبل)

اللاذقية : محمد سليمان الأحمد

شكسبير العرب

طوى الموتُ ربَّ القوافي الغرر ... وأصبح شوقي رهينَ الحفر

وألقي ذاك الدماغ العظيم ... لثقل التراب وضغط الحجر

وجئنا نعزي به الحاضرين ... كأن لم يكن أمسِ فيمن حضر

ولم يُنتجِ السوَرَ الخالداتِ ... من الملحقات بأمِّ السور

من اللاء يهتزّ منها النديّ ... ويُطرب إيقاعُهن السمر

برغم الشعور يشلُّ البلى ... لسانك أو يعتريك الكدر

وأن يقطع الموت ذاك النشيد ... وأن يأكل الدود هذا الوتر

وأنا نعود بنفض الأكفّ ... عنك وأنت العظيم الخطر

فيا لك من عبرةٍ يستفزّ ... منها على كثرةٍ في العبر

***

زمانٌ وفيٌّ بميعاده ... فظلماً يقال ليالٍ غُدُر

كما يقرع الجرس للناشئيـ ... ـن يأتي إلى الناس منها النذُر

ولكن يريد الفتى أن يدوم ... ولو دام ساد عليها الضجر

ويأبى التنازع طول البقاء ... وتأباه بقيا نفوسٍ أُخر

وقد يُهلك الناسَ فردٌ يعيـ ... ـش حيناً فكيف إذا ما استمر

فلله من شارعٍ لم يَعُقْـ ... ـهُ حكم الضرورة أو ما ندر

سوآء صليبُ الصفا والزجا ج كسراً بكف القضا والقدر
وبالدهر في الناس مثلُ الجنون فليس يبالي بمن قد عثر
وحتمٌ على الخفر الآنسا ت والوحش حشرجةُ المحتضر
تجيءُ إلى الصدر تحت الحرير كجيئتها الصدرَ تحت الوبر
وكل الفوارق بين اللغات وبين الطباع وبين الأسر
سيوقفها للردى زائرٌ ثقيلُ الورود بغيضُ الصدر
فيا حفرة الموت إن الوجوه تساوي بها صلفٌ أو خفر

* * *

تحيرتُ في عيشة الشاعرين أتحلو خلاصتها أم تمرّ
فقد جار شوقي على نفسه وقد يقتل المرءَ جورُ الفكر
على أنه لم يعش خالداً خلودَ الجديدين لو لم يجر
تتبعت آثار شوقي وقد وقفتم على من يقصُّ الأثر
لقد فات بالسبق كل الجيا دِ في الشعر هذا الجوادُ الأغرّ
ترسل لم يرتبك خطوه عناءً ولا نال منه البهر
شكسبير أمته لم يصبه للعيّ داآءٌ ولا للحصر
كأن عيون القوافي الحسا ن من قبلُ كانت له تدّخر
وإن أصدقنّ فشوقي له عيونٌ من الشعر فيها حوَر
تعرضه من نقوش البيان وهوجِ التعابير ممشى خطر
ولو خاف مثل سواه العبور عليها لخاب ولكن عبر

تمشي لمصطلحات البديـ ـع مندسةً في البيان النخر
فأفرغها من قوافيه في قوالبَ مرصوصةٍ كالزبر
ولآءم بين أفانينها وبين أفانين ما يبتكر
فجاءت كأن لم تنلها يدٌ خلاف يد الماهر المقتدر
يذلل من شاردات القريـ ـض ما لو سواه ابتغاه لفرّ
ويستنزل الشعر صافي الرُّواء كصوب الغمامة إذ ينحدر
يميزه عن سواه الذكاء وطول الأناة وبعدُ النظر
وتبدو الرجولة في شعره منزهةً من صعىً أو صعر
وفي كبر النفس مندوحةٌ عن الكبر شأن الصغار الكبر
ولم يتخبث بفحش الكلام ولم يتصيد بماء عكر
وديوان شوقي بما فيه من صنوف البداعة روضٌ نضر
فبيتٌ يكاد به الارتيا ح واللطفُ من رقةٍ يعتصر
وبيتٌ يكاد من الاندفا ع يقدح من جانبيه الشرر
وبيتٌ كأن رفائيل قد كساه بكفيه إحدى الصور
تحس الطبيعة في طيه تكشف عن حسنها المستتر
كأنك تسمع وقعَ الندى بتصويره أو حفيفَ الشجر
وبيتٌ ترى مصر أسوانةً تناغي بها مجدها المندثر
ففي مصرعٍ يومها المبتلى وفي مصرعٍ أمسها المزدهر
وفرعون إذ ينطوي ملكه وفرعون في القبر إذ ينتشر

وديوان شوقي على الاختصا ر تاريخ أمته المختصر
ولولا المغالاة قلت انطوى بمعناه عنوانها المفتخر

***

فيا نجل مصر وفت برة بذكراك مصرُ وأنت الأبرّ
مثات الصحائف مسودةٌ مجللةٌ بمثات الصور
ظهرت بها وجناح البيان مهيضٌ وأسلوبه محتقر
بقايا من الكلم الباليات تناقلها نفرٌ عن نفر
ولفظٌ هجين ثوت تحته معانٍ لقلتها تحتكر
وحسبك من حالةٍ رثّةٍ بفرط الجمود لها يعتذر
فكنت وعلتها كالطبيـ ب ينعش جسماً عراه الخور
فأفهمتهم أن للعبقري حكماً مطاعاً إذا ما أمر
وأن القوافي عِبِدّى له يفرّق أشتاتها أو يذر
يصوغ المعاني كما يشتهي ويلعب باللفظ لعب الأكر
عكاظٌ من الشعر تحتله ويرعاه حافظ حتى ازدهر
تلوذ الوفود بساحيكما وتأتيه من كل فج زُمر
تبجل فيه مزايا الشعور على حين في غيره تحتقر
وتنسى الضغائن في ساحةٍ بها كل مكرمة تُدّكر
وأنت كصمصامةٍ منتضى وحافظ كالأبلق المشتهر
تمشي بإثرك في شعره ومات وأعقبته بالأثر

يقدر اختلافكما في النبو غ كان اختلافكما في العمر
فلا تبعدا إن شأن الزما ن أن يعقب الصفو منه الكدر

* * *

عزاء الكنانة إن القريض تأمر دهراً بها ثم فر
بنجمين كانت تباهي السما وما في السما من نجوم كثر
بشوقي وحافظ كانت متى تنازل بمعركة تنتصر
فها هي قد عريت منهما وها هي من وحشة تقشعر
فلا تحسبن أن طول البكا ء يذود الأسى أو يثار الزهر

* * *

خسرناك كنزاً إلى مثله إذا أحوجت أزمة يفتقر
وما كنت من زمن واحداً ولكن نتاج قرون عقر
مضى بالعروبة دهر ولم يلح ألمعي ومرت عصر
وإن النبوغ على ما يحيط بعيش النوابغ أمر عسر
يثير اهتماماً أديب يجد كما قيل نجم جديد ظهر
قرون مضت لم يسد العراق من المتنبي مكاناً شغر
ولم تتبدل سماء البلاد ولا حال منها الثرى والنهر
ولم يتغير عروض الخليل ولا العرب قد بدلوا بالنثر
ولكنما تنتج النابهين من الشاعرين دواع أخر
فإن فقدت لم يشع الأريـ ب إلا ليخبو كلمح البصر

بغداد : محمد مهدي الجواهري

النجم المفقود

مصرٌ وكنت لوآءها المعقودا ريعت بيومك قادةً وجنودا

لما سكنت وكنت تخفق بالمنى خفقت قلوباً بالأسى وبنودا

لم تبدُ في أفق الجهاد منكساً ولقد لقيت من الجهاد شديدا

يستلّ من شمس النهار ضياءها ويذيب من فلق الصباح عمودا

حتى طواك الموتُ ظلاً وارفاً في الخافقين على الورى ممدودا

فتعطلت منك المحافل واغتدت مصرٌ تطالع نجمها المفقودا

والشرقُ في لهفٍ على محرابه ليرى الإمام وقد أقمتَ بعيدا

يرجوك للحدث المطيف بركنه لتقومَ منه مقامك المحمودا

ما كنت تمتشق الحسام وطالما حطمت ما صاغ الحسامُ قيودا

وبعثت روحاً في الشبيبة ناهضاً ينساب برقاً خاطفاً ورعودا

وجمعتَ ما نثر الزمان بسعيه درًّا على لَبّاته منضودا

وأقمت للإسلام أبلغَ حجةٍ لم نألها نصراً ولا تأييدا

في الله ما صنعت يداك لأمةٍ فقدتك برًّا آملته وحيدا

أعطيت من عهد البنوّة موثقاً جعل الأمومة عزةً وخلودا

ولكم بعثت مع الزمان روائعاً لتهزّ عاطفةً وتعجم عودا

ما كنت منشدَها وحسبك أنها شغلُ الزمان وأهله ترديدا

إن القديم وقد ملكت قياده ... أعطاك من سحر البيان جديدا
كم شاردٍ قيدت تحت لوائه ... وتركت لبأ بعد ذاك شريدا

* * *

لما نعيتَ وكنت أصدعَ نائحٍ ... شجواً وأروعَ مادحٍ تمجيدا
فِيدَ الرثآء إلى الوجوم فما أرى ... غيرَ المدامع تستهلُّ وقودا
فاليوم نحمد للشموس وفآءها ... ولقد نظمت لها الرثآء مجيدا
وكفاك من شرف المراثي أنها ... جعلت مطالعها عليك قصيدا
ما كنتَ تؤثر قبل يومك راثياً ... إلا مواثقَ صنتها وعهودا
ولأنت أسبق من عرفت إلى مدى ... عثر الزمانُ وقد مضيت بعيدا
سابقت من عهد الصبا أيامه ... فسبقت حتى يومك المشهودا
ما زلت روحاً في الضمائر سارياً ... حتى تمثل للعيان وجودا

* * *

زعموك للأحزاب ملكاً بعدما ... أرسلت شعرك بالوفاق بريدا
ما كنت تعرف غير مصرَ وشعبها ... حزباً حملت له الوفآء وليدا
في بيت إسماعيل صاحب عرشها ... جاوزتَ أسباب الحياة سعودا
وقضيت عهداً للطفولة ناعماً ... حتى استويت كما أراد جهودا
ولقد سباك من الأريكة حسنها ... فهتفت في ساحاتها غرِّيدا
إن شئتَ أرسلتَ الدموع ضواحكاً ... أو شئت بدلت المآتمَ عيدا
لعباً بألباب الدهاة وحيلةً ... تذرُ العصيَّ من الطغاة مقودا

ليلى وقيس قد أتاك كلاهما | رغم البلى يشكو جوى وصدودا
فأقمت في ظل المسارح روضة | بعثا إليها نافراً وصيودا
ونسخت آي (البحتري) بآية | ستظل في سمع القرون نشيدا
ردت على الحمراء سالف عهدها | وعلى معاهدها الملوك الصيدا
قد زاد روعتها جلالاً أنها | وحي الحوادث قد أهجن عميدا

***

غربت عن مصر طريد دسائس | نعم الكريم مغرباً وطريدا
لم ينحوك سوى الأسنة مركباً | تطوي المدائن قائماً وحصيدا
والأرض تزخر بالغزاة فما ترى | غير الغزاة معالماً وحدودا
حتى نزلت على الديار أقامها | سيف أقام بجده التوحيدا
فوقفت تسأل عن مراكب طارق | طلعت على الغرب العتي أسودا
أنى استبد بها الزمان فلم تجد | مما أراد بها الزمان محيدا
لم تسلك (الحمراء) مصر ونيلها | ولقد تركت به بنيك ورودا
فإذا ذكرت لعبد شمس مجدهم | لم تنس مجداً طارفاً وتليدا
أبقى من الأهرام ما أسسته | لبني الكنانة باذخاً ومشيدا
ماقام بعدك في المشارق شاعر | إلا ترسم نهجك المعهودا
تملي عليك الحادثات بيانها | فتردد الدنيا صداه وعيدا

. . .

عجباً ليومك كيف خلف باكياً | ومصفقاً طرباً بود مزيدا

حفل النديّ بسامعٍ وبمنشدٍ ... يشدو بشعرك مبدئاً ومعيدا
وأتى النعيّ ضحى وأمرك لم يزل ... يصغي إليه الآمرون رشيدا
فإذا بيومك قد تبدّل شدوه ... شجواً وبعضُ نشيجه تغريدا
والناسُ بين مُشيعٍ ومُسائلٍ ... أنّى مضيت لقد مضيت حميدا
زُمّت مَطيك لم تودع غُيباً ... وعجلتَ حتى ما أثرت شهودا
شوقاً إلى الماضين شاب حديثَهم ... ألا تكون على الحديث شهيدا
فصف المنازلَ والألى نزلوا بها ... متسابقين إلى الخلود وفودا
ولأنت أفصحُ رغم صمتك مِقولاً ... ممن نعاك إلى البيان مشيدا

* * *

شوقي وما في الموت راحة حاسدٍ ... كم ساء يومك حاسداً وحقودا
شيدت للآداب وحدك دولةً ... وكفى بمثلك عدةً وعديدا
يهنيك ما أبقيت من آثارها ... فهي الخلود لمن أراد خلودا

مصر : ... محمود علي منصور

ابو الشعر



محمد مصطفى الماحي

أبا الشعر هب لي من بيانك مسعدا
ليلهمني فيك الرثاء المخلدا
أبا الشعر مهلاً كيف فارقت أمة
بنيت لها ركناً وجددت سؤددا
ألم يكف مصراً أن نودع حافظاً
وقد كان للفصحى إماماً وسيدا
سعيتَ إليه مستهاماً كأنما
ضربتَ له في جنة الخلد موعدا

فهل جئته شوقاً إليه وهل أبى ... وفاؤك إلا أن تمدّ له يدا
لقد كنت في الدنيا وفاءً مجسماً ... فأصبحت في الأخرى أبرّ وأحمدا
وأي وفاء يرقب الناس مثله ... أحب وأصفى من وفائك موردا
تذكرت إخوان الصفاء وقد رمت ... صروف الردى سهماً إليك مسددا
وأوصيت فيهم بالسلام ولو دروا ... لوافوا سراعاً يشتهون التزودا
وأقبل دانيهم وقاصيهم معاً ... يفدون بالأرواح لو كنت تفتدى

***

أحين استرحنا واطمأنت نفوسنا ... إلى المجمع المشهود أعجلك الردى
فهدّ من البنيان ركناً مشيداً ... وأطفأ نبراساً وغيب فرقدا
أحين تعالى البدر في أوج عزه ... وأصلح هذا الدهر ما كان أفسدا
نأيت على رغم وأبقيت حسرة ... تذيب وخلفت الأنين المردّدا
وليس عجيباً أن تشط بك النوى ... فما تقرب الغايات إلا لتبعدا
وصاحبت بيت الملك خمسين حجةً ... تناهت نعيماً ما أجلّ وأسعدا
حفظت بها عهد الولاء لعرشه ... وعودت فيها بسطة الكف والندى
وتوّجها عطف المليك وبره ... فأرغمت أعداء وغيظت حسدا

***

رفعت لواء الشعر والنثر عالياً ... تخرّ ملوك الشعر والنثر سجدا
وسست فنون القول فارتاض صعبه ... وزودته الحسنى فأبلغته المدى
فهل ناثر إلا بلألائك اهتدى ... وهل شاعر إلا بآياتك اقتدى
وكم لك آيات جمعت شتاتها ... ونظمتها عقداً فريداً منضدا
شهدنا بها التاريخ أنصع حجةً ... وأوضح منهاجاً وأفسح منتدى
وكم صغت ألحاناً بعثت حنينها ... معيناً على صرف الليالي ومنجدا
فسار بها من لا يسير مشمراً ... وغنى بها من لا يغني مغردا
سلوا الكرمة الفيحاء كم فاح طيبها ... وكم شهدت من جلوة الأنس مشهدا
فلم تك إلا للسماحة مهبطاً ... ولم تك إلا للفصاحة مقصدا

***

أرى النيل لولا عهده ووفاؤه … لغاض ولم ينقع لذي ظمأ صدى
تآخيتما في حب مصر فكنتما … بها منهلاً يروي الظماء ومرفدا
فأحمدَ منك النيل إعلاءَ ذكره … وأحمدت منه فيضه المتجددا
فقم واستمع صيحات قومك إذ سرى … نعيُك فيهم فاستطار وسهدا
وجللت الوادي لفقدك ظلمة … فقد كنت فيه نجمه المتوقدا
تنادَوا أحقاً زايل الغيلَ ليثه … وأصبح بطن الأرض لليث مرقدا
تمشى الأسى فيهم كهولاً وفتيةً … وصاحبهم همٌ أقام وأقعدا
بكوا علماً لم يعهد الدهر مثله … وذا كرمٍ بالحسنيات تفردا
أعاد إلى أم اللغات رُواءها … وشقّ لعافيها الطريق المعبدا
دوى صوته في الشرق والغرب عالياً … وجاوز آفاق الكواكب مصعدا
وصاح نذيرٌ ودع الشعر مصره … وأتهم في غور الفيافي وأنجدا
فيا ضيعة الأشعار بعد أميرها … غدا ملكها في الناس نهباً مبددا
ولكن صرحاً كنت باني ركنه … يروعنا أن لا يبيت مجددا
وملك بيان كنت حارس مجده … يعزُّ على العلياء أن لا يوطدا
فنم آمناً هذا تُراثك خالدٌ … على الدهر يهدينا السبيل إلى الهدى
وهذا لواء الشعر ما زال خافقاً … عزيزاً كما ترضى وإنا له الفدى

مصر : … محمد مصطفى الماحي

مصاب الشعر



معروف الرصافي

الشعر بعد مُصابهِ بكبيره … في مِصرَ جلّ مصابه بأميره

بنياه يبكي حافظاً بشهيقه … إذ قام يبكي أحمداً بزفيره

لم يقضِ بعض حداده لنصيره … حتى أحدّ أسىً لفقد مُجيره

ما إن خبت في الأُفق شعلة ناره … حتى انطوت في الجوّ لمعة نوره

بالأمس ظلّ مُرزّءاً بمبينه … واليومَ بات مفجعاً بمنيره

أخذت فرزدقه المنون وضاعفت … جُلى مصيبته بأخذ جريره

رُزآن ملتهبان قد نُضحتها … عينُ العلى من دمعها بغزيره

فالشعر بعدهما استطالَ بكاؤه … وتموّجت بالحزن كلّ بحوره

وهزاره ترك الصداحَ وليثه … أجنت أعاديه سَماعَ زئيره

***

يانيراً فجع القريض بموته … فبكته عينُ وزينه وكسيره

وخلت سماءُ الشعر بعد أفوله ... من مشرقات شموسه وبدوره
ومؤمَّراً لم تنتقض بوفاته ... في الشعر بيعته على تأميره
لك في الخلود مكانةٌ ما نالها ... فرعون في دِيماسه وحفيره
إنَّ الدفين مضمخاً بحنوطه ... دون الدفين محنطاً بشعوره
إنَّ المتوَّج فوق عرش ذكائه ... يعلو المتوَّجَ فوق عرش سريره
ما مات من تركت لنا أقلامه ... صوَراً خوالدَ من بنات ضميره
صوراً تمثل ذاته وصفاته ... حتى يقمنَ لنا مقامَ نشوره
فكأنه وهو الدفين بقبره ... حيٌّ يعيش بحزنه وسروره
وكأنه في القوم ساعة حفلهم ... متكلمٌ بنظيمه ونثيره

* * *

لأبي عليٍّ من قريحة شعره ... وحيٌ أتى من جبرئيل شعوره
كم قد رمى الغيبَ الخفيَّ فؤاده ... بذكائه فأصاب كشف ستوره
وتصوَّر المعنى الدقيق فردَّه ... كالصبح منفلقاً أوان ظهوره
يأتيك بالمعنى الجميل قد اكتسى ... من وشي سندس لفظه وحريره
فالشعر قد دُكت جبالُ فنونه ... إذ موتُ شوقي كان نفخة صوره
يا راحلاً ترك القوافي بعده ... محتاجة المحيا إلى تفكيره
لهفي على ذيالك القلم الذي ... يتطرَّب الأرواحَ لحنُ صريره
الشعر كنت أميرَه وسميرَه ... فمن المسامرُ بعد فقد سميره
حرَّرته من رِقِّ كلِّ تصنعٍ ... فبدت فنونُ الحسن في تحريره

سخوتَ من أوتاره ما لم يكن ليطيعَ غيركَ قطّ في تسخيره
ولكم شدوتَ بنغمةٍ من بمه ولكم صدحتَ بنغمةٍ من زيره
تتمايل الأبدان في إنشاده طرباً وليس يُمَلّ من تكريره

* * *

يا أهلَ مصر عزاءكم فمصابكم أمرٌ قضاه الله في تقديره
الشعر قد ثُلت بمصر عروشه بوفاة سيده وموت أميره
علمان من أعلامه كانا به يتنازعان السبق في تحبيره
لكليهما الهرمان قد خشعا أسًى والنيل مدَّ أنينه بخريره

بغداد : معروف الرصافي

أمير الشعراء

احمد شوقي

٣

اشعار له لم تنشر في ديوانه



(١) شوقي في الحفلة التكريمية التي أقامها له المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٣٤٤ هـ

(٢) الدكتور محجوب ثابت .

دول الاسلام

الخلفاء الراشدون

الخلفاءُ الراشدونَ أربعهْ ... مَرضية سنتهم متبعهْ
في الذكر لم يغفل لهم حديثُ ... وذكرُهم سيره الحديثُ
العمران وابنُ أروى وعَلي ... في الذروةِ الشماء والأوج العلي
خلائفُ الله أئمةُ الهدى ... وطأ للحقِّ بهم ومهدا
كلهمو ابنُ أمسه ويومهِ ... عمادُ داره عميدُ قومهِ
همُ النجومُ في سماء غالبِ ... ومطلع الهادي المنيرِ الغالبِ
نماهمو كما نماه فِهرُ ... فبينهم واشجةٌ وصهرُ
معادنُ الوفاء والإخاء ... صحابةُ الشدةِ والرخاء
ما منعوا اللهَ ولا نبيهْ ... قيادَ نفسٍ سَمحةٍ أبيهْ
وما الحواريونَ خلفَ عيسى ... أحثّ منهم للنجاةِ عيسا
رعاةُ شاء وتجارُ مال ... كالرسل في هذا وفي الكمال
قد كفلوا الإسلامَ في صباهُ ... فأيهم نادى دعا أباهُ
بالنفسِ والنفيس أيدوهُ ... وبالقنا والرأي شيدوهُ
وأمنوا ديكَ الهوى فصاحا ... وآمنوا بفجره منصاحا
كلهمو فيه المجيبُ الأولُ ... أعطوه غاياتِ الرضى ونوّلوا
فاسبق إذا الحقُّ دعا مستنصرا ... وكن إذا عُدّ الحماةُ الخنصرا

ما حمل النفسَ على الأشقِّ ، كقائل الصدقِ وحامي الحقِّ
حتى جبا الأرضَ إليهم من جبا وملكوا الدنيا فكانوا أعجبا
حدّثْ عن الخليفة الخميص والملكِ المخرّقِ القميص
مثل الجوادِ زانه الإضمار والشمسِ زادت حسنها الأطمارُ
لا يعقدون في الجباهِ العسجدا بل الترابَ للمليك سُجدا
وتحت أقدامهمُ التيجانُ يندبها اللؤلؤُ والمرجانُ
كسرى ببطن الأرض عطل المفرق وقيصرٌ يندب تاجَ المشرقِ

ابو بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما

سبحان من يُنعم كيف شآءَ ساس الورى من كان يرعى الشاءَ
يقود بعد إبلِ ابن عامرِ ما دبَّ في غامرها والعامرِ
سما سموَّ الثاقب السيار والخيرُ عقبى صحبة الأخيار
من أيّد الحق به تأيّدا وعاش أو مات كريمًا سيدا
وكلُّ عزٍّ في ظلال الباطلِ نسجُ عناكبٍ وخيط باطل
كم شوّه الباطلُ حين سوّدا كالنار تعلو بالدُخان أسودا
لما أهاب بالرسول الداعي وآذن الجثمانُ بالتداعي
ولّى أبا بكرٍ على الصلاةِ وتلك عُليا رتبِ الوُلاةِ
فبايع الطائعُ والأبيُّ طوبى لمن بايعه النبيُّ
وكان ما لم يكُ منه بدُّ أقضيةُ الرحمن لا تردُّ
أصابت الفتنةُ والحبائل ونُكست بعد الهدى القبائل

وثاب أقوامٌ إلى الأوثانِ　　وقام غاوٍ وتلاه ثانِ
تنبــآ فلقيا نجاحا　　واتبعت طائفةٌ (سَجاحا)
واضطرب الحبل وماجت الزُّمَرْ　　واقتحم الفتنةَ فابتلَّ عمر
يومٌ كيوم (السامريِّ) لولا　　دَفع أبي بكرٍ وعونُ المولى
غُمَّ على الحجاز فاستـرابا　　نزولَ ذاك القمرِ الترابا
جلَّى الإمامُ يوم ذلك الغممْ　　إن المهماتِ ميادينُ الهمم
أُعينَ بالتأييد والتسديد　　وفتيةٍ بُنوا من الحديد
من كل سيفٍ سلّه المختارُ　　ماضٍ فرِنْدُه الصبا بتّار
(أسامة) الأسماءِ والأفعالِ　　أجرى من الهلال للمعالي
قد نصروا الله وبرّوا الهادي　　وواصلوا الجهـادَ بالجهـاد
وأصلَوُا الشرك الحروبَ الغابره　　واستأصلوا شأفتهُ ودابره
ورفّت السلمُ على الجزيره　　صافيةً حياضهـا غزيره
وحُبب الفتحُ إلى الإمام　　لا بدّ للبنيان من تمام
فانساحت الكتائب انسياحاً　　أرسلها من يُرسلُ الرياحا
خيلٌ لَمسْن أثرَ البُراق　　بُورِك للشام وللعراق
اليمن من غُرتها للحافرِ　　ومتنُها من ظافرٍ لظافرِ
يقودها ألويةُ الجهاد　　أشهادُ بدرٍ أو بنو الأشهاد
فكانت البصرةُ أولَ الثمرْ　　ثم ترقّى في المنازل القمر
وفتحَ اللهُ على القوّاد　　مفاتحَ النهرين والسواد

وا قتحموا الشامَ فزال شُومها ... وضاق ذرعاً بهمو غشومها
وسلكوا الجبال والفروجا ... وملكوا كالشهب البروجا
ونازلوا الروم (بأجنادينا) ... فكان دنيا لهمو ودينا
يومٌ على ما شابَهُ سعيدُ ... قد تكدُرُ الأيامُ وهي عيدُ
مال عمودُ الدين فيه واعتدلْ ... والركن إن سدّ من الركن بدلْ
فما ثنى القومَ عن القتالِ ... نعيُ والٍ أو بشيرُ تالِ
فتحُ الفتوح كان حصتينِ ... تناصفا بين الخليفتينِ
حوى (العتيق) مبتدا مفاخره ... وأحرز (الفاروق) عزّ آخره

* * *

فيا أخا الضرآء والشدائدِ ... والناسُ إخوانٌ لدى الفوائدِ
وسابقَ الآل إلى التصديق ... وآويَ الغار مع الصديق
وباسطَ اليمين والشمال ... وتعرفُ الرجالُ عند المال
وقدوةَ الزهاد بعد الهادي ... وصاحبَ الهجرة والجهاد
وكاسيَ الأراملِ الحرّات ... وحالبَ الأغنام للجارات
ويا رحيماً قلبه رفيقا ... بمالهِ كم حرر الرقيقا
ومن قضى بعد غنىً فقيرا ... لم يجدوا في بيته نقيرا
ذهبتَ بالخير وأتعبت عمرْ ... ياويح من بعدَ أبي بكر أمرْ
رأيتَ فيه ما رأى الله لكا ... فكان فضل الله ثم فضلكا
عهداً كما كجمعةٍ في عيد ... في ظل يوم بهجٍ سعيدِ

اللهُ زفَّ الفتحَ فيه وهدى | إلى قنا الحق ورايات الهدى

* * *

الشمس لو كانت تُخَطُّ مضجعا | والبدر لو كان يُقلُّ المجمعا
والصدفُ التامَ على اليتائم | من فَرِدِ اللؤلؤ والتوائم
والغمدُ لو يسكنه سيفان | والجفنُ لو ينزله طيفان
واللفظُ راق واحداً ورَاعا | حول معانٍ دَقّت اخترعا
والمقلةُ الحوراءُ في النوادِ | غضت على البياض والسواد
كروضةٍ وارتكما بالقاعِ | من طينة الجنة لا البقاع
خيرُ الأنام وَردُها المصونُ | وأنتما الأوراقُ والغصونُ
صحابةُ الدنيا رفاقُ البرزخِ | واصبعٌ تحت الثرى كفرسخِ
ألا مقاماً قمتما لن يقبلا | تصرُّفَ الدهر ولا حكمَ البِلى

فتوحاته

فتوحه للحق فضلُ الباري | والجزلُ من هباته الكبار
إسكندر الخيل وإن لم يركبِ | الأرضُ في أيامه في موكبِ
أقام في مركزه (بيثربا) | وشرّق القنا به وغرّبا
نوّى وساق نُجبَ الصحابِ | بورك في البحر وفي السحابِ
بقيةٌ من (أُحدِ) و (بدرِ) | من كل غابٍ طلعت وخدرِ
محامرٌ والدهرُ مسودُّ اللِّمَمْ | وهم كأمس حُمُسٌ مُردُ الهمم
(بالقدس) جيشٌ دونه رهبانه | تحرمت بعدلهم صلبانه

وجحفلٌ تحتهمو الإيوانُ   كلهمو كسرى أنوشروانُ
وفيلق على جوانب الهرمْ   تقلدوا الحق وسربلوا الكرم
لو هبّ فرعونُ لخال موسى   بجانبيه يعرض الناموسا
تعهدوا الفتح بالاختطاط   ووصلوا الكوفة بالفسطاط
ورآهم مسهدُ الفؤادِ   موكَّلٌ العيون بالقوادِ
يبعث بالزاد ويرسل المدَدْ   ويُنفذ الكتب ويأخذ العددْ
مباركٌ على المدى مجدودُ   وللجدود كلها حدود
إذا دعا بوجهه مشيرا   نحو السماء استقبل البشيرا
حتى جلا كسرى عن المدائنِ   وآب بالإيوان والخزائنِ
وشاطرته ملكها القياصره   والقدسُ فيما بذلت وناصره
فتحٌ يري الحوادث الإباء   إذا الفتوح أصبحت هباء
أهدى على الدهر إلى الإسلام   ما بين أعلى النيل والسلام
أرضٌ أصابت من ندى السماء   خيرَ النبات وعيونَ الماء
وعالم باقٍ على عهد العربْ   وإن مضى الدهر عليهم وضربْ
ما ضيع الدينَ ولا اللسانا   ولا يدَ الفاروق والإحسانا

عمر وخالد بن الوليد رضي الله عنهما

والله ما أدري ولا تدري الزُّمرْ   ما كان بين ابن الوليد وعمرْ
سيف الإله سله النبيُّ   وهزّه وليــه الحيي
أُغمد لا كَلاًّ ولا مقصرا   في حرب كسرى وقتال قيصرا

توجعت لعزله العُقاب وحلّ بالمبرّ إ العقاب
ضغينةٌ لم تدع الإماما حتى رما في يدها الزماما
وزلّةُ الكبير أكبر الزلل وإن أُحيطت بالطلاء والعلل
خاف الإمامُ أن يكون فتنه سياسةٌ عاليةٌ وفطنته
كم هاضت الممالكَ العظاما مخافةً أن يقطعوا النظاما
وكم مرجيّ السبق مات بالكمد قد وقف الناسُ له دون الأمد
أُعيذ من مضلةِ الحقد عمرْ مثل الإمام بالمراشد ائتمرْ
لعله أبصرَ وجهَ منفعه أو خاف ضرًّا فرأى أن يدفعه
فالسيفُ لا تأمنه أن ينقلبْ كم غلب الحقّ به ثم غُلب
في طبعه الطيرةُ والشرورُ ورثّبه يوماً به مغرور
وكيف غدرُ ابن الوليد كيفا الله أوفى وأبرّ سيفا
عجبتُ ممن ملك الزمانا ودان بعد فارس الرومانا
ومن قناه كل يوم في ظفرْ وخيله من سفرٍ إلى سفرْ
تتكل الطيرُ على بنوده وينزلُ النصرُ على جنوده
تهيبَ البحرَ وخاف حربه وحرّمَ المجاهدين قربه
ظلّ الولاةُ يبسطون الراحا فلا يلبي لهمو اقتراحا
كم حسنوا النفع وقبح الضرر خوفاً على جنوده من الغرَرْ
وقال لم يأذن ولم يسلمِ لا أشتري الرومَ بنفس مسلمِ
كان الإمامُ وهو للعدل علمْ لم يُنصفِ الرومَ وللبحر ظلمْ

كم جرَّ نفعَ المسلمين الرومُ والبحر عزٌّ أبداً مَرومُ
ينهض بالملك العظيم فاتحه لأنه من الثرى مفاتحه
فيروزُ منه يبرأ النصارى ومثله إلى الجحيم صارا
لا دين للباغي وإن تدينا كفى بقتل النفس ظلماً بيِّناً

مقتل عمر رضي الله عنه

شكا إلى الخليفة ابنُ شعبه لكلفٍ يزعمهن صعبه
فلم يجده عمرٌ مظلوما ولا رأى سيدَه ملوما
وكان بالصنعة ذا إلمام وحسبه شهادةُ الإمام
إن يذكرِ الرومُ إليهم ينسب وهو من الفرس وفي الرومِ سُبي
إن انكسار الفرس شرُّ كسره صير وجدان الغلام حسره
فبات للفاروق يضمر الإحَن بما أصاب قومه من المحن
والثأر للأهل الكرام والوطن قضيةٌ قد شغلت أهلَ الفطن
لو لم تلده الأرض شرَّ صِلِّ ما اقتحم المكبِّرَ المصلي
انساب ملأى من نقيعِ سمه حديدةٌ قد لفها بكمه
أغمدها في هيكل الجلال وشامها في كرم الخلال
فرحمةُ الله عليك يا عمرْ غامرة كعدلك الذي غمرْ

عبد الله بن الزبير وأمه

وضاق عبدُ الله عن عبد الملكْ ورأيه الوضَّاء في الخطب الحلكْ
إنصرف الكرَّار والكماةُ وانحرف الأنصارُ والحماةُ

أسلمه الادنون حتى أبناهُ		وخذلت شماله يمناه
فجاء أمّه ومن كأمه		لعلها تحمل بعضَ همه
والبيت تحت قسطل الحجاجِ		وخيله أواخذُ الفجاجِ
فقال ما ترين فالأمرُ لكِ		للموت أمضي أم لعبد الملكِ
قالت بُنيَّ ولدَ العوّام		وابنَ العتيق القائمِ الصوّام
أُنظر فإن كنتَ لحقٍ ثرتا		فلا تفارق ما إليه سرتا
أو كانت الدنيا قصارى همتكْ		فبئس أنت كم دم بذمتك
إلحق بأحرارٍ مضوا قد أحسنوا		فالموتُ من ذلّ الحياة أحسن
ولا تقل هنتُ بوهن من معي		فليس ذا فعلَ الشريف الألمعي
ومت كريماً أو ذقِ الهوانا		وعبثَ الغلمان من (مروانا)
أنت إلى الحق دعوت صحبكا		فاقضِ كما قضوا عليه نحبكا
ولا تقل إن متُّ مثلوا بي		وطاف أهلُ الشام بالمصلوبِ
هيهات ما للسلخ بالشاة ألمْ		ورب جذعٍ فيه للحق علم
وعانقته فأحست درعا		قالت أضقتَ بالمنون ذرعا
مثلك في ثيابه المشمره		جاهد لا في الحلقِ المسمره
لا تمضِ فيها وأرِحِ منها الجسدْ		وامض بلا درعٍ كما يمضي الأسد
فنزع النثرةَ عنه وانطلق		في قلةٍ يلقى العديدَ في الحلق
فمات تحت المرهفات حرّا		لم يألُ خيرَ الأمهات بِرّا

رثاء مصطفى كامل باشا

المشرقانِ عليك ينتحبانِ قاصيهما في مأتمٍ والداني
يا خادمَ الإسلامِ أجرَ مجاهدٍ في الله من خلدٍ ومن رضوان
لما نُعيت إلى الحجاز مشى الأسى في الزائرين ورُوّع الحرمان
السكةُ الكبرى حيالَ رباهما منكوسةُ الأعلام والقضبان
لم تألما عند الشدائد خدمةً في الله والمختارِ والسلطان
يا ليت مكةَ والمدينةَ فازتا في المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخرُ يومَ ذاك ويسمعوا ما غاب عن (قسٍّ) وعن (سحبان)
جارَ التراب وأنت أكرمُ راحلٍ ماذا لقيتَ من الوجود الفاني
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليه كرامةً للجاني
يتساءلون أبا لسلال قضيتَ أم بالقلب أم هل متّ بالسرطان
اللهُ يشهد أن موتك بالحجا والجدِّ والإقدام والعرفان
إن كان للأخلاق ركنٌ قائمٌ في هذه الدنيا فأنت الباني
بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمالٌ لنا وأماني
وجدانك الحيُّ المقيمُ على المدى ولرب حيٍّ ميت الوجدان

***

الناسُ جارٍ في الحياة لغايةٍ ومضللٌ يجري بغير عِنان

والخلدُ في الدنيا وليس بهينٍ ... عُليا المناصب لم تُتح لجبان
فلوَ أن رسلَ الله قد جبنوا لما ... ماتوا على دينٍ ولا إيمان
المجدُ والشرفُ الرفيع صحيفةٌ ... جعلت لها الأخلاقُ كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلةٍ ... قِصرٌ يريك تقاصرَ الأقران
دقاتُ قلب المرء قائلةٌ له ... إن الحياةَ دقائقٌ وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثان
للمرء في الدنيا وجمِّ شؤونها ... ما شاء من ربحٍ ومن خسران
فهي الفضاءُ لراغبٍ متطلعٍ ... وهي المَضيق لمؤثر السلوان
الناسُ غادٍ في الشقاء ورائحٌ ... يشقى له الرحماء وهو الهاني
ومنعمٌ لم يلقَ إلا لذةً ... في طيها شجنٌ من الأشجان
فاصبر على نُعمى الحياةِ وبؤسها ... نُعمى الحياة وبؤسُها سِيان

* * *

ياطاهرَ الغدوات والروحات والـ ... خطرات والإسرار والإعلان
هل قام قبلك في المدائن فاتحاً ... غازٍ بغير مهندٍ وسِنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلومَ دعائمُ العمران
لَفّوك في علم البلاد منكساً ... جزع الهلالُ على فتى الفتيان
ما احمرّ من خجلٍ ولا من ريبةٍ ... لكنما يبكي بدمعٍ قان
يُزجون نعشك في السناء وفي السنى ... فكأنما في نعشك القمران
وكأنه نعشُ (الحسين) بكربلا ... يختال بين بُكى وبين حنان

في ذمة الله الكريم وبرّه ... ما ضمّ من عرفٍ ومن إحسان
ومشى جلالُ الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصدوق يلتقيان
شقت لمنظرك الجيوبَ عقائلٌ ... وبكتك بالدمع المتون غوان
والخلقُ حولك خاشعون كعهدهم ... إذ يُنصتون لخطبةٍ وبيان
يتساءلون بأي قلبٍ ترتقي ... بعدُ المنابرُ أم بأيّ لسان
فلوَ ان أوطاناً تُصوَّر هيكلاً ... دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يحمل في الجوانح ميتٌ ... حملوك في الأسماع والأجفان
أو صيغ من غرر الفضائل والعلى ... كفنٌ لبستَ أحاسنَ الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بقيةٌ ... لم تأتِ بعدُ رُثيتَ في القرآن
ولقد نظرتك والردى بك محدقٌ ... والداء ملءُ معالم الجثمان
يبغي ويطغى والطبيبُ مضللٌ ... قنطٌ وساعات الرحيل دوان
ونواظرُ العوّاد عنك أمالها ... دمعٌ تعالج كتمه وتعاني
تملي وتكتبُ والمشاغلُ جمةٌ ... ويداك في القرطاس ترتجفان
فهششتَ لي حتى كأنك عائدي ... وأنا الذي هدّ السقامُ كياني
ورأيتُ كيف تموت آسادُ الشرى ... وعرفت كيف مصارعُ الشجعان
ووجدتُ في ذاك الخيال عزائماً ... ما للمنون بدكهنّ يدان
وجعلتَ تسألني الرثاء فهاكهُ ... من أدمعي وسرائري وجناني
لولا مغالبةُ الشجون لخاطري ... لنظمت فيك يتيمةَ الأزمان
وأنا الذي أرثي الشموسَ إذا هوت ... فتعود سيرتها من الدوران

قد كنت تهتف في الورى بقصائدي وتجل فوق النيرات مكاني
ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني إمكاني
هون عليك فلا شمات بميت إن المنية غاية الإنسان
من للحسود بميتة بلغتها عزت على كسرى أنوشروان
عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت أم استراح الشاني
يا صب مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان
إخلع على مصر شبابك عاليا والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصرا من شبابك ترتدي مجدا تتيه به على البلدان
فلو أن بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان
علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان
أقسمت إنك في التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان

كأني بالحمام

كأني بالحمام أشاب ركني فمال وأي ركن لا يميل
وأدركني ونجم صباي عال فخر النجم وازدوج الأفول
فلا يغرر كما ولدي بعدي زها الدنيا ومنظرها الجميل

رثاء محمد بك فريد

كلُّ حيّ على المنية غادي ... تتوالى الركابُ والموت حادي

ذهب الأولون قرناً فقرنا ... لم يدم حاضرٌ ولم يبقَ بادي

هل ترى منهمو وتسمعُ عنهم ... غيرَ باقي مآثرٍ وأيادي

كرةُ الأرض كم رمت صولجانا ... وطوت من ملاعبٍ وجياد

والغبارُ الذي على صفحتيها ... دورانُ الرحى على الأجساد

كلُّ قبرٍ من جانب القفر يبدو ... علم الحق أو منار المعاد

وزمام الركاب من كل فجّ ... ومحطّ الرحال من كل وادي

تطلع الشمس حيث تطلع نضجاً ... وتنحي لمنجلٍ حصاد

تلك حمراء في السماء وهذا ... أعوجُ النصل من مراس الجلاد

ليت شعري تعمدا وأصراً ... أم أعانا جنايةَ الميلاد

كذب الأزهران ما الأمر إلا ... قدرٌ رائحٌ بما شاء غادي

* * *

يا حماماً ترنمت مسعداتٍ ... وبها فاقةٌ إلى الإسعاد

ضاق عن ثكلها البكيّ فتغنت ... ربّ ثكل سمعته من شاد

الأناةَ الأناةَ كلُّ أليفٍ ... سابقُ الإلفِ أو ملاقي انفراد

هل رجعتنّ في الحياة لفهمٍ ... إن فهم الأمور نصفُ السداد

سُقمٌ من سلامةٍ وعزاءٌ   من هناءٍ وفرقةٌ من وداد
يُجتنى شهدُها على إبَرِ النحـ   ـل ويُمشى لوِرْدها في القَتاد
وعلى نائمٍ ومسهرانَ فيها   أجلٌ لا ينام بالمرصاد
لُبدٌ صاده الردى وأظن النـ   ـسرَ من سهمه على ميعاد

* * *

ساقةَ النعش بالرئيس رويداً   موكبُ للموت موضع الإتئاد
كل أعواد منبرٍ وسريرٍ   باطلٌ غيرُ هذه الأعواد
تستريحُ المطيُّ يوماً وهذي   تنقل العالمين من عهد عاد
لا وراءَ الجياد زيدت جلالاً   منذ كانت ولا على الأجياد
أسألتم حقيبةَ الموت ماذا   تحتها من ذخيرةٍ وعتاد
إن في طيها إمامَ صفوفٍ   وحواريَّ نيةٍ واعتقاد
لو تركتم لها الزِّمام لجاءت   وحدَها بالشهيدِ دارَ الرشاد
أنظروا هل ترون في الجمع مصراً   حاسراً قد تجللت بسواد
تاجُ أحرارها غلاماً وكهلاً   راعها أن تراه في الأصفاد
وسِدوه التراب نِضوَ سفارٍ   في سبيل الحقوق نِضو سهاد
واركزوه إلى القيامة رمحاً   كان للحشد والندى والطراد
وأقِرّوه في الصفائح عَضباً   لم يَدِنْ بالقرار في الأغماد

* * *

نازحَ الدارِ أقصرَ اليوم بينٌ   وانتهت محنةٌ وكفَّت عوادي

وكفى الموتُ ما تخاف وترجو   وشفى من أصادقٍ وأعادي
من دنا أو نأى فإن المنايا   غايةُ القرب أو قصارى البعاد
سرمع العمر حيث شئت تؤوبن   وافقد العمرَ لا تؤوب من رقاد
ذلك الحقُّ لا الذي زعموه   في قديمٍ من الحديث مُعاد
وجرى لفظه على ألسن النا   س ومعناه في صدور الصِّعاد
يتحلى بـه القويُّ ولـكن   كتحلي القتال باسم الجهاد
هل ترى كالتراب أحسنَ عدلاً   وقيـاماً على حقوق العباد
نزل الأقوياءُ فيه على الضعـ   فى وحـلَّ الملوكُ بالزهّاد
صفحاتٌ نقيةٌ كقلوب الـ   رسل مغسولةٌ من الأحقاد
قم إن اسطعت من سريرك وانظر   سرَّ ذاك اللواء في الأجناد
هل تراهم وأنت موفٍ عليهم   غيرَ بنيانِ ألفةٍ واتحاد
أمةٌ هيئت وقومٌ لخـير الـ   دهر أو شره على استعداد
مصر تبكي عليك في كل خدرٍ   وتصوغ الرثاءَ في كل ناد
لو تأملتهـا لراعك منهـا   غرةُ البرِّ في سواد الحداد
منتهى ما به البلاد تُعزّى   رجلٌ مات في سبيل البلاد
أمهاتٌ لا تحمل الثكلَ إلا   للنجيب الجريِّ في الأولاد
(كفريدٍ) وأين ثاني فريدٍ   أي ثانٍ لواحد الآحاد
الرئيس الجواد فيما علمنـا   وبلونا وابن الرئيس الجواد
أكلت مالَه الحقوقُ وأبلى   جسمه عائدٌ من الهمِّ عادي

لك في ذلك الضنى رقة الرو ح وخفقُ الفؤآدِ في العوّاد
علةٌ لم تصل فرآشك حتى وطئت في القلوب والأُكباد
صادفت قرحةً يلائمها الصبـ ـرُ وتأبى عليه غيرَ الفساد
وعد الدهرُ أن يكون ضماداً لك فيها فكان شرَّ ضماد
وإذا الروح لم تنفس عن الجسـ ـمِ (فبقراط) نافخٌ في رماد

على لسان هملت

دهرٌ مصائبه عندي بلا عدد لم يجنِ أمثالها قبلي على أحد
عمٌّ يخون وأمٌّ لا وفآء لها أم ولكن بلا قلبٍ ولا كبد
جنت عليَّ همومَ العيش قاطبةً وقبلها ما جنت أمٌّ على ولد
لما مددت يدي بالشر منتقماً منها نهاني أبي عن أن أمدَّ يدي
رحماك رحماك يا ذاك الخيال ويا أماه رفقاً ويا عادي الهوى اتئد
أنا الشقي المعنى المبتلى أبداً وقفت أمسي ويومي للأسى وعدي
أمشي ورآء خيال لا يفارقني كأنه نكدي في العيش أو كمدي
وأهجر الوجد للثارات أطلبها ومثل وجدي قلوب الناس لم تجد
هويت والنفس لا تسلو ضغائنها فضعت بين الهوى والحقد بالرشد
إن ضقت يا دارنا الدنيا بنا أملاً في دارنا الخلد آمالٌ بلا عدد
صباي ودع شبابي . . رحماي حن دنياي زولي خيالَ الشقوة ابتعد

رثاء الطيارين

فتحي ونوري

أُنظر إلى الأقمار كيف تزولُ ... وإلى وجوه السعد كيف تحول
وإلى الجبال الشمّ كيف يُميلها ... عادي الردى بإشارةٍ فتميل
وإلى الفراقد كيف تنثر في الثرى ... أشلاؤهن حجارة ونصيل
وإلى الرياح تخرُّ دون قرارها ... صرعى عليهن الترابُ مهيل
وإلى النسور تقاصرت أعمارها ... والعهد في عمر النسور يطول
في كل منزلةٍ وكل ثنيةٍ ... قمرٌ من الغرّ السُّماة قتيل
يهوي القضآء بها فمامن عاصمٍ ... هيهات ليس من القضآء مُقيل
(فتح) السمآء و (نورها) سكنا الثرى ... فالأرضُ ولهى والسمآء ثكول
سِرْ في الهوآء ولُذْ بناصية السهى ... ألموتُ لا يخفى عليه سبيل
واركب جناح النسر لا يعصمك من ... نسرٍ يرفرف عنه عزرائيل
ولكل نفسٍ ساعةٌ من لم يمت ... فيها عزيزاً مات وهو ذليل
ماالميتُ من همل الأنام كهالك ... زالت به دنيا وباد قبيل
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر عمرٌ لو علمت طويل
لا تذهب الحسناتُ في إثر الفتى ... إن الزمان بنشرهن كفيل
أإلى الحياة سكنت وهي مصارع ... وإلى الأماني يسكن المسلول

لا تحفلن ببؤسها ونعيمها ... نُعمى الحياة وبؤسها تضليل
ما بين نضرتها وبين ذبولها ... عمر الورود وإنه لقليل
هذا بشيرُ الأمس أصبح ناعياً ... كالحكم جاء بضده التأويل
يجري من العبرات حول حديثه ... ما كان من فرحٍ عليه يسيل
ولرب أعراسٍ خبأنَ مآتماً ... كالرُّقط في ظل الرياض تَقيل

***

يا أيها الشهدآء لن يُنسى لكم ... فتحٌ أغرُّ على السمآء جميل
والمجد في الدنيا لأول مُبتنٍ ... ولمن يُشيد بعده فيطيل
لولا نفوسٌ زُلنَ في سبل العلى ... لم يَهدِ فيها السالكين دليل
والناس باذلُ روحه أو ماله ... أو علمه والآخرون فضول
والنصر غرته الطلائع في الوغى ... والتابعون من الخميس حُجول
كم ألف ميلٍ نحو مصر قطعتمو ... فيمَ الوقوفُ ودون مصرٍ ميل
(طوروس) تحتكما ضئيلٌ طرفه ... لما طلعتم في السحاب كليل
ترخون للريح العنان وإنها ... لكمو على طغيانها لذَلول
إثنين إثْرَ اثنين لم يخطر لكم ... أنّ المنية ثالثٌ وزميل
ومن العجائب في زمانك أن يفي ... لك في الحياة وفي الممات خليل
لو كان يُفدى هالكٌ لفداكمو ... في الجو نسرٌ بالحياة بخيل
أي الغزاة إلى الشهادة قبلكم ... عرضُ السمآء ضريحهم والطول
يغدو عليكم بالتحية أهلها ... ويرفرفُ التسبيح والتهليل

(إدريس) فوق يمينه ريحانةٌ … و (يسوع) فوق يمينه إكليل
في عالمٍ سكانه أنفاسهم … طيبٌ وهمسُ حديثهم إنجيل
إني أخاف على السمآء من الأذى … في يوم يفسد في السمآء الجيل
كانت مطهرةَ الأديمِ نقيةً … لا (آدم) فيها ولا (قابيل)
يتوجه العاني إلى رحماتها … ويرى بها برقَ الرجاء عليل
ويشير بالرأس المكلل نحوها … شيخٌ وباللحظ البريءِ بتول
واليوم للشهوات فيها والهوى … سبلٌ وللدمِ والدموعِ مسيل
أضحت ومن سفن الهوآء طوائف … فيها ومن خيل الهوآء رعيل
وأذيل هيكلها المصونُ وسرُّه … والدهرُ للسر المصون مذيل
هلعت دمشق وأقبلت في أهلها … ملهوفةً لم تدرِ كيف تقول
مشت الشجونُ بها وعمَّ غياضها … بين الجداول والعيونِ ذبول
في كل سهلٍ أنةٌ ومناحةٌ … وبكل حزنٍ رنةٌ وعويل
وكأنما نعيت أميةُ كلها … للمسجد الأموي فهو طلول
خضعت لكم فيه الصفوف وأزلفت … لكمُ الصلاة وقُرِّبَ الترتيل
من كل نعشٍ كالثريا مجده … في الأرض عالٍ والسمآء أصيل
فيه شهيدٌ بالكتاب مكفنٌ … بمدامع الروحِ الأمين غسيل
أعوادُه بين الرجال وأصله … بين السهى والمشتري محمول
يمشي الجنودُ به ولولا أنهم … أولى بذاك مشى به جبريل
حتى نزلتم بقعةً فيها الهدى … من قبلُ ثاوٍ والسماحُ نزيل

عظمت وجل ضريح (يوسف) فوقها حتى كأن الميت فيه رسول

شعري إذا جبتَ البحار ثلاثةً وحواك ظلٌّ في (فروق) ظليل

وتداولتك عصابةٌ عربيةٌ بين المآذن والقلاع نزول

وبلغت من باب الخلافة سدّةً لستورها التمسيح والتقبيل

قل للإمام محمد ولآله صبرُ العظام على العظيم جميل

تلك الخطوب وقد حملتم شطرها نآء الفرات بشطرها والنيل

إن تفقدوا الآساد أو أشبالها فالغاب من أمثالها مأهول

صبراً فأجرُ المسلمين وأجرُكم عند الإله وإنه لجزيل

يامن خلافته الرويّةُ عصمةٌ للحق أنت بأن يَحِقّ كفيل

والله يعلم أن في خلفائه عدلاً يقيم الملك حين يميل

والعدلُ يرفع للممالك حائطاً لا الجيش يرفعه ولا الأسطول

هذا مقامٌ أنت فيه محمدٌ والرفق عند محمدٍ مأمول

بالله بالإسلام بالجرح الذي ما انفكّ في جنب الهلال يسيل

إلا حللتَ عن السجين وثاقه إن الوثاق على الأسود ثقيل (١)

أيقول واشٍ أو يردد شامتٌ صنديد (برقة) موثق مكبول

هو من سيوفك أغمدوه لريبةٍ ما كان يغمد سيفك المسلول

فاذكر أميرَ المؤمنين بلاءه واستبقه إن السيوف قليل

---

(١) السجين : هو عزيز علي المصري بطل برقة.

النشيد الوطني

بني مصر مكانكمُ تهيّا | فهيّا مهدوا للملك هيّا
خذوا شمس النهار له حليّا | ألم تكُ تاجَ أولكم مليّا

***

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا | فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادي النيل عدن | وكوثرها الذي يجري شهيا

***

لنا وطن بأنفسنا نقيه | وبالدنيا العريضة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواح فيه | بذلناها كأن لم نعطِ شيا

***

لنا الهرم الذي صحب الزمانا | ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالي نمانا | أوائلُ علموا الأممَ الرقيا

***

تطاول عهدهم عزًا وفخرا | فلما آل للتاريخ ذخرا
نشأنا نشأة في المجد أخرى | جعلنا الحق مظهرها العليا

***

جعلنا مصر ملة ذي الجلال | وألفنا الصليب على الهلال

وأقبلنا كصف من عوال يشدّ السمهريّ السمهريا

***

نروم لمصر عزّا لا يرام يرفّ على جوانبه السلام
وينعم فيه جيرانٌ كرام فلن تجدَ النزيل به شقيا

***

نقوم على البناية محسنينا ونعهد بالتمام إلى بنينا
نموت فداكِ مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدى حيا

البحر الابيض

أمِن البحر صائغٌ عبقريٌّ بالرّمال النواعم البيضِ مُغرى
طاف تحتَ الضحى عليهنّ والجو هرُ في سوقه يباع ويُشرى
جئنه في معاصمٍ ونحورٍ فكسا معصماً وآخرَ عرّى
وأبى أن يقلد الدُّر والياً قوت نحراً وقلد الماس نحرا
ونرى خاتماً وراء بنانٍ وبناناً من الخواتم صفرا
وسواراً يزين زند كعاب وسواراً من زند حسناءَ فرّا
وترى الغيد لؤلؤاً ثَمَّ رطباً وجماناً حوالي الماء نثرا
وكأن السماءَ والماءَ شِقا صدف حملا رفيفاً ودُرّا
وكأن السماءَ والماءَ عرسٌ مترَعُ المهرجان لمحاً وعطرا

أو ربيعٌ من ريشةِ الفنِّ أبهى   من ربيع الرُّبى وأفتنُ زهرا
أو تهاويلُ شاعرٍ عبقريٍّ   طارحَ البحرَ والطبيعةَ شعرا
يا سواديّ فيرُزَجٍ ولُجينٍ   بهما حُليت معاصمُ مصرا
في شعاع الضحى يعودان ماساً   وعلى لمحةِ الأصائل تِبرا
ومشت فيهما النجومُ فكانت   في حواشيهما يواقيتَ زُهرا
لك في الأرض موكب ليس يألو الـ   ريحَ والطيرَ والشياطينَ حشرا
سرت فيه على كنوز (سُليما   نَ) تعدُّ الخطى اختيالاً وكبرا
وترنمتَ في الركاب فقلنا   راهبٌ طاف في الأناجيل يقرا
هو لحنٌ مُضيعٌ لا جواباً   قد عرفنا له ولا مُستقرّا
لك في طيه حديثُ غرامٍ   ظلّ في خاطر الملحن سرّا
سيدَ الماء كم لنا من (صلاحٍ)   و(عليّ) وراءَ مائك ذكرى
كم ملأنا ك بالسفين مواقيـ   ر كشمّ الجبال جنداً ووفرا
شاكيات السلاح يخرجن من مصـ   ـرٍ بملمومةٍ ويدخلن مصرا
شارعاتِ الجناحِ في ثبجِ الما   ءِ كنسرٍ يشدُّ في السحب نسرا
وكأنّ اللجاج حين تنزى   ونسدُّ الفجاجَ كرّاً وفرّا
أجمٌ بعضه لبعضٍ عدوٌّ   زحفت غابة لتمزيق أخرى
قذفت ههنا زئيراً ونابا   ورمت ههنا عُواءً وظُفرا
أنت تعلي إلى القيامة كالقدْ   رِ فلا حطَّ يومها لك قدرا

رثاء شوقي والدته

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما ... أصابَ سويداءَ الفؤاد وما أصمى
من الهاتكات القلبَ أولَ وهلةٍ ... وما داخلت لحماً ولا لامست عظما
توارد والناعي فأوجست رنة ... كلاماً على سمعي وفي كبدي كلما
فما هتفا حتى نزى الجنب وانزوى ... فيا ويحَ جنبي كم يسيل وكم يدمى
طوى الشرق نحو الغرب والماء للثرى ... إليَّ ولم يركب بساطاً ولا يما
أبان ولم ينبس وأدى ولم يفُهْ ... وأدمى وما داوى وأوهى وما رمى
إذا طويت بالشهب والدهم شقةٌ ... طوى الشهب أو جاب الغدافية الدهما
ولم أر كالأحداث سهماً إذا جرت ... ولا كالليالي رامياً يبعد المرمى
ولم أرَ حكماً كالمقادير نافذاً ... ولا كلقاء الموت من بينها حتما
إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى ... سبيلٌ يدين العالمون بها قِدما
وما العيش إلا الجسم في ظل روحه ... ولا الموت إلا الروح فارقت الجسما
ولا خلدَ حتى تملأ الدهرَ حكمةً ... على نزلاء الدهرِ بعدَك أو علما
زجرت تصاريفَ الزمان فما يقع ... ليَ اليوم منها كان بالأمس لي وهما
وقدرت (للنعمان) يوماً وضده ... فما اغترت البوسى ولا غرت النعمى
شربت الأسى مصروفة لو تعرضت ... بأنفاسها بالفم لم يستفق غما
فأترع وناول يا زمانُ فإنما ... نديمك (سقراط) الذي ابتدع السما

قتلتك حتى ما أبالي أدرت لي بكأسك نجماً أم أدرت بها رجما
لك الله من مطعونة بقنا النوى شهيدة حرب لم تقارف لها إثما
مدلهة أركى من النار ظفرةً وأنزه من دمع الحيا عبرةً سحما
سقاها بشيري وهي تبكي صبابة فلم يقوَ مغناها على صوبه رسما
أست جرحها الأنباء غيرَ رفيقة وكم نازع سهماً فكان هو السهما
تغار على الحُلى الفضائل والعلا لما قبلت منها وما ضمت الحمى
أكانت تمناها وتهوى لقاءها إذا هي سماها بذي الأرض من سمى
ألمت عليها واتقت ثمراتها فلما وقوا الأسواء لم ترها دما
فيا حسرتا ألاَّ تراهم أهلةً إذا أقصر البدر التمام مضوا قدما
رياحين في أنف الوليّ وما لها عدوٌّ تراهم في معاطسه رغما
وألاّ يطوفوا خشعاً حول نعشها ولا يشبعوا الركن استلاماً ولا لثما
حلفت بما أسلفت في المهد من يد وأوليت جثماني من المنة العظمى
وقبر منوط بالجلال مقلد تليدَ الخلال الكثر والطارفَ الجما
وبالغاديات الساقيات نزيله من الصلوات الخمس والآي والأسما
لما كان لي في الحرب رأيٌ ولا هوًى ولا رمت هذا الشكل للناس واليتما
ولم يك ظلم الطير بالرق لي رضاً فكيف رضائي أن يرى البشر الظلما
ولم آلُ شبانَ البرية رقةً كأن ثمارَ القلب من ولدي ثما
وكنت على نهج من الرأي واضح أرى الناس صنفين الذئاب أو البهما
وما الحكم إلا في أولي البأس دولة ولا العدل إلا حائط بعصم الحكما

نزلتُ رُبى الدنيا وجنات عدنها فما وجدت نفسي لأنهارها طعما
أريج أريجَ المسك في عرصاتها وإن لم أرح (مروان) فيها ولا (لخما)
إذا ضحكت زهواً إليّ سماؤها بكيت الندى في الأرض والبأس والحزما
أطيف برسمٍ أو ألمُّ بدمنةٍ إخال القصور الزهرَ والغرف الشما
فما برحت من خاطري مصر ساعة ولا أنت في ذي الدار زايلت لي وهما
إذا جنني الليل اهتززت إليكما فجنحاً إلى سعدى وجنحاً إلى سلمى
فلما بدا للناس صبحٌ من المنى وأبصر فيه ذو البصيرة والأعمى
وقرّت سيوف الهند وارتكز القنا وأقلعت البلوى وأقشعت الغمى
وحنت نواقيسٌ ورنت مآذنٌ ورفت وجوه الأرض تستقبل السلما
أتى الدهر من دون الهناء ولم يزل وَلوعاً ببنيان الرجاء إذا تما
إذا جال في الأعياد حلّ نظامها أو العرسِ أبلى في معالمه هدما
لئن فات ما أملته من مواكبٍ فدونك هذا الحشد والموكب الضخما
رثيت به ذات التقى ونظمته لعنصره الأزكى وجوهره الأسمى
نمتكِ مناجيبُ العلى ونميتها فلم تُلحقي بنتاً ولم تُسبقي أما
وكنتِ إذا هذي السماء تخايلت تواضعتِ لكن بعد ما فُتها نجما
أنيتِ به لم ينظم الشعر مثله وجئتِ لأخلاق الكرام به نظما
ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما

شهدآء العلم والغربة

ألا في سبيل الله ذاك الدم الغالي   وللمجد ما أبقى من المثل العالي
وبعضُ المنايا همةٌ من ورائها   حياةٌ لأقوامٍ ودنيا لأجيال
أعينيَّ جودا بالدموع على دمٍ   كريم المصفى من شبابٍ وآمال
تناهت به الأحداث من غربة النوى   إلى حادثٍ من غربة الدهر قتال
جرى أرجوانياً كميتاً مشعشعاً   بأبيضَ من غسل الملائك سلسال
ولاذ بقضبان الحديد شهيدُه   فعادت رفيفاً من عيون وأظلال
سلامٌ عليه في الحياة وهامداً   وفي العصر الخالي وفي العالَم التالي

* * *

خليلي قوما في ربى الغرب واسقيا   رياحينَ هامٍ في التراب وأوصال
من الناعمات الراويات من الصبا   ذوت بين حلٍّ في البلاد وترحال
نعاها لنا الناعي فمال على أبٍ   هلوعٍ وأمٍّ (بالكنانة) مثقال
طوى الغرب نحو الشرق يعدو سليكُه   بمضطربٍ في البر والبحر مرقال
يسرّ إلى النفس الأسى غير هامسٍ   ويلقي على القلب الشجا غيرَ قوّال
سرى فنعاهم للديار أهـلةً   فمن هالةٍ عطلٍ ومن منزلٍ خال
سمآء الحمى بالشاطئين وأرضه   مناحةُ أقمارٍ ومأتمُ أشبال

* * *

وأدهام تدرى الريح أن قد أعادها   بساطاً ولكن من حديدٍ وأثقال
يريك جيادَ السبق في الحضر كلما   رمى بذراعيه وبالمرجل الغالي

يقلّ من الفتيان أشبالَ غابةٍ … غداةً على الأخطار ركاب أهوال
لتته العوادي دون أودين فانثنى … بآخر من دُهمِ المقادير ذيّال
قد اعتنقا تحت الدخان كما التقى … كميان في داجٍ من النقع منجال
فسبحان من يرمي الحديد وبأسه … على ناعمٍ غضٍّ من الزهر منهال
ومن يأخذ السارين بالفجر طالعاً … طلوعَ المنايا من ثنيات آجال
ومن يجعل الأسفار للناس همة … إلى سفرٍ ينوونه غير قفال

* * *

فيا ناقليهم لو تركتم رفاتهم … أقام يتيماً في وصاية لآل
وبين (غريبالدي) و(كافور) مضجع … لنزّاع أمصارٍ على الحق نزّال
فهل عطفتكم رنةُ الأهل والحمى … وضجةُ أترابٍ عليهم وأمثال
لئن فات مصراً أن يموتوا بأرضها … لقد ظفروا بالبعث من تربها الغالي
وما شغلتهم عن هواها قيامةٌ … إذا اعتلّ رهن المحبسين بأشغال
حملتم من الغرب الشموس لمشرقٍ … تلقى شفاها مظلماً كاسفَ البال
عواثر لم تبلغ صباها ولم تنل … مداها ولم توصل ضحاها بآصال
يطاف بهم نعشاً فنعشاً كأنهم … مصاحف لم يعلُ المصلي على التالي
توابيت في الأعناق تترى زكيةً … كتابوت موسى في مناكب إسرال
ملففة في حلةٍ شفقيةٍ … هلاليةٍ من راية النيل تمثال
أظلّ جلالُ العلم والموت وفدَها … فلم تلقَ إلا في خشوعٍ وإجلال
تفارق داراً من غرورٍ وباطلٍ … إلى منزلٍ من جيرة الحق محلال

* * *

فيا حلبةً رفت على البحر حلية … وهزت بها (حلوان) أعطاف مختال

سرت بين إيماض العواصم بالضحى ... وبين ابتسام الثغر بالموكب الحالى
كثيرة باغي السبق لم ير مثلها ... على عهد إسماعيل ذي الطول والنال
لك الله هذا الخطب في الوهم لم يقع ... وتلك المنايا لم يكن على بال
بلى كل ذي نفس أخو الموت وابنه ... وإن جر أذيال الحداثة والخال
وليس عجيباً أن يموت أخو الصبا ... ولكن عجيب عيشه عيشة السالي
وكل شباب أو مشيب رهينة ... بمعترض من حادث الدهر مغتال
وما الشيب من خيل العلى فاركب الصبا ... إلى المجد تركب متن أقدر جوال
يسن الشباب البأس والجود للفتى ... إذا الشيب سن البخل بالنفس والمال
ويا نشأ النيل الكريم عزاءكم ... ولا تذكروا الأقدار إلا بإجمال
فهذا هو الحق الذي لا يرده ... تأفف قال أو تلطف محتال
عليكم لواء العلم فالفوز تحته ... وليس إذا الأعلام خانت بخذال
إذا مال صف فاخلفوه بآخر ... وصول مساع لاملول ولا آل
ولا يصلح الفتيان لا علم عندهم ... ولا يحرزون السبق أنصاف جهال
وليس لهم زاد إذا ما تزودوا ... بيانا جزاف الكل كالحشف البالي
إذا جزع الفتيان من وقع حادث ... فمن لجليل الأمر أو معضل الحال
ولولا معان في الفدى لم تعانه ... نفوس الحواريين أو مهج الآل
فغنوا بهاتين المصارع بينكم ... ترنم أبطال بأيام أبطال
ألستم بني القوم الذين تكبروا ... على الضربات السبع في الأبد الخال
رددتم إلى فرعون جدا وربما ... رجعتم لعم في القبائل أو خال

جمعية الشبان المسلمين

حبذا الساحةُ والظلُّ الظليلْ ... وثناءٌ في فم الدار جميلْ (١)
لم تزل تجري به تحتَ الثرى ... لجة المعروفِ والنيــل الجزيل
صنعُ إسماعيلَ جلت يده ... كلُّ بنيانٍ على الباني دليــل
أتراها سدَّةً من بابه ... فتحت للخير جيلاً بعدَ جيل

***

ملعبُ الأيامِ إلا أنه ... ليس حظُّ الجد منه بالقليل
شهد الناسُ بها (عائدةً) ... وشجى الأجيال من (فردي) الهديل
وأتتنفنا في ذراها دولةً ... ركنها السؤددُ والمجد الأثيل
أينعت عصراً طويلاً وأتت ... دون أن تستأنفَ العصرَ الطويل
كم ضفرنا الغارَ في محرابهــا ... وعقدناه لسباقٍ أصيل
كم بدور ودّعت يوم النوى ... وشموسٍ شيعت يوم الرحيل
ربَّ عرسٍ مرَّ للبرِّ بهــا ... ماج بالخير والسمح المنيــل
ضحك الأيتامُ في ليلته ... ومشى يستروحُ البرءَ العليل
والتقى البائسُ والنعمى به ... وسعى المأوى لأبناء السبيل
ومنَ الأرض جديبٌ وندٍ ... ومن الدُّور جوادٌ وبخيل

* * *

(١) الدار: دار الاوبرا الملكية بالقاهرة، وهي من بناء إسماعيل باشا.

يا شباباً حنفاءَ ضمهم منزلٌ ليس بمذموم النزيل
يصرفُ الشبانَ عن وِردالقذى وينحيهم عنِ المرعى الوبيل
اذهبوا فيه وجيئوا إخوة بعضهم خدنٌ لبعضٍ وخليل
لا يضرنكمُ قلته كل مولود وإن جلّ ضئيل
أرجفت في أمركم طائفةٌ تبعُ الظنّ عن الإنصاف ميل
إجعلوا الصبر لهم حيلتكم قلتِ الحيلةُ في قال وقيل
أيريدون بكم أن تجمعوا رقة الدين إلى الخُلق المزيل
خلت الأرض من الهدي ومن مُرشدٍ للنشء بالهدي كفيل
فترى الأسرة فوضى وترى نَشأ عن سنة البرّ يميل
لا تكونوا السيلَ جهماً خشناً كلما عبّ وكونوا السلسبيل
رُبّ عينٍ سمحةٍ خاشعةٍ رَوّتِ العشبَ ولم تنسَ النخيل
لا تماروا الناس فيما اعتقدوا كلُّ نفسٍ بكتابٍ وسبيل
وإذا جئتم إلى ناديكمُ فاطرحوا خلفكمُ العبْءَ الثقيل

***

هذه ليلتكم في الأوپرا ليلةُ القدر من الشهر النبيل
مِهرَجانٌ طوّف الهادي به ومشى بين يديه جبرَئيل
وتجلت أوجهٌ زينها غررٌ من لمحةِ الخيرِ تسيل
فكأنّ الليلَ بالفجر انجلى أو كأنّ الدار في ظلّ الأصيل
أيها الأجواد لا تجزيكمُ لذة الخير من الخير بديل

رجل الأمة يرجى عنـده لجليلِ العمل العونُ الجليل
إنَّ داراً حطتموها بالندى أخذت عهدَ الندى ألاّ تميل

قالت وقلت

وسقيمة الأجفان لا من علةٍ تحيي العميد بنظرةٍ وتميتـه
وصلت كثيرَ بها الحديث بضاحكٍ ضاحٍ كمْ تلف الجمان شتيته
قالت تغربت الرجال فقلت في ضيمٍ أريدَ بجانبي فأبيتـه
قالت نُفيتَ فقلت ذلك منزلٌ وردته كلُّ يتيمةٍ ووردته
قالت رماك الدهر قلت فلم أكن نِكساً ولكن بالأناة رميته
قالت ركبتَ البحرَ وهو شدائدٌ قلت الشدائدُ مركبٌ عوّدته
قالت أخِفتَ الموتَ قلت أمفلتٌ أنا من حبائله إذا ما خفتـه
لو نلتُ أسباب السماء لحطني أجلٌ يحلّ لحينه موقوته
قالت لقد شمت الحسودُ فقلت لو دام الزمانُ لشامتٍ لحفلته
قالت كأني بالهجاء قلائداً سارت فقلت هممتُ ثم تركته
أخذت به نفسي فقلت لها دعي ما شاءت الأخلاقُ لا ما شئته
من راح قال الهجر أو نطق الخنا هـذا بياني عنهما نزّهتـه
اللهُ علمنيه سمحاً طاهراً نَزِهَ الخلال وهكذا عُلمته

رثاء سعد باشا

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها ... وانحنى الشرقُ عليها فبكاها

ليتني في الركب لما أفلتْ ... يُوشعٌ همت فنادى فثناها

جلل الصبحَ سواداً يومُها ... فكأن الأرض لم تخلع دُجاها

أنظروا تلقوْا عليها شفقاً ... من جِراحات الضحايا ودِماها

وتروا بين يديها عبرةً ... من شهيدٍ يقطرُ الورد شذاها

آذن الحقُ ضحاياه بها ... ويحه! حتى إلى الموتى نعاها

كفنوها حُرَّةً عُلوية ... كست الموتَ جلالاً وكساها

ليس في أكفانها إلا الهدى ... لُحمةُ الأكفان حقٌ وسَداها

خطر النعشُ على الأرض بها ... يحسر الأبصارَ في النعش سَناها

جاءَها الحقُّ ومن عاداتها ... تؤثر الحقَّ سبيلاً واتجاها

ما درت مصرٌ بدفنٍ صُبحت ... أم على البعث أفاقت من كَراها

صرخت تحسبها بنتَ الشرى ... طلبت من مِخلب الموت أباها

وكأنَّ الناسَ لما نسلوا ... شُعبُ السيلِ طغت في مُلتقاها

وضعوا الراحَ على النعش كما ... يَلمسون الركنَ فارتدَّت نزاها

خفضوا في يوم سعدٍ هامَهم ... وبسعدٍ رفعوا أمس الجباها

***

سائلوا (زحلةَ) عن أعراسها هل مشى الناعي عليها فمحاها
عطل المصطافَ من سُماره وجلا عن ضفةِ الوادي دُماها
فتح الأبوابَ ليلاً ديرُها وإلى الناقوس قامت بِيعتاها
صدع البرقُ الدُّجى تنشره أرضُ سوريا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسري موهِناً كعوادي الثكل في حرّ سُراها
عرضَ الشكُّ لها فاضطربت تطأ الآذان همساً والشفاها
قلت : يا قوم اجمعوا أحلامكم كلُّ نفسٍ في ورِيدَيها ردَاها
قلتُ — والنعشُ بسعدٍ ماثلٌ فيه آمالُ بلادٍ ومُناها
كلما أمعن في نُقلته ضجت الأرض على قطب رحاها
يا عدوَّ القيد لم يلمح له شبحاً في خطةٍ إلا أباها
لا يضق ذرعك بالقيد الذي حزّ في سوق الأوالي وبَراها
وقع الرسلُ عليه والتوت أرجلُ الأحرار فيه فعفاها
يا رُفاتاً مثل ريحان الضحى كللت عدنٌ بها هام رباها
وبقايا هيكلٍ من كرمٍ وحياةٍ أترعَ الأرضَ حياها
ودّعَ العدلُ بها أعلامه وبكت أنظمة الشورى صُواها
حضنت نعشك والتفت به راية كنتَ من الذلّ فداها
صمتِ الصدرَ الذي قد ضمها وتلقى السهمَ عنها فوقاها
عجبي منها ومن قائدها كيف يحمي الأعزل الشيخ حماها
منبرُ الوادي ذوت أعواده من أواسيها وجفت من ذراها

مَن رمى الفارسَ عن صهوتها ودها الفصحى بما ألجمَ فاها
قدرٌ بالمدن ألوى والقرى ودها الأجيالَ منه ما دهاها
غالَ (پستوراً) وأردى عصبةً لمست جرثومةَ الموت يداها
طافت الكأسُ بساقي أمةٍ من رحيق الوطنيات سقاها
عطلت آذانُها من وترٍ ساحرٍ رنٌ ملياً فشجاها
أرغنٌ هام به وجدانها وأذانٌ عشقته أذُناها
كلَّ يومٍ خطبةٌ روحيةٌ كالمزامير وأنغام لغاها
دلّت مصراً ولو أن بها فلواتٍ دلّت وحشَ فلاها

***

ذائدُ الحقّ وحامي حوضه أنفذت فيه المقاديرُ مناها
أخذت سعداً من (البيت) يدٌ تأخذ الآساد من أصل شراها
لو أصابت غيرَ ذي روحٍ لما سلمت منها الثريا وسهاها
تتحدّى الطبَّ في قفازها علة الدهرِ التي أعيا دواها
من ورآء الأذن نالت ضيغماً لم ينل أقرانه إلا وجاها
لم تصارح أصرحَ الناسَ يداً ولساناً ورُقاداً وانتباها
هذه الأعوادُ من آدمَ لم يهدَ خفاها ولم يعرَ مطاها
نقلت (خوفو) ومالت (بمنا) لم يفت حياً نصيبٌ من خطاها
تخلطُ العمرين : شيباً وصباً والحياتين : شقآء ورفاها
زورقٌ في الدمع يطفو أبداً عرَف الضفةَ إلا ما تلاها

تَهلعُ الثكلى على آثاره فإذا خفّ بها يوماً شفاها

***

* تسكبُ الدمعَ على سعدٍ دما أُمةٌ من صخرة الحقّ بناها
من لَيانٍ هو في يُنبوعها وإباء هو في صُمّ صفَاها
لقن الحقّ عليه كهلها واستقى الإيمان بالحقّ فتاها
بذلت مالاً وأمناً ودماً وعلى قائدها ألقت رجاهـا
حملتـه ذمةً أوفى بها وابتلته بحقوق فقضاها
ابن سبعينَ تلقى دونها غربةَ الأسر ووعثاء نواها
سفرٌ من عدنِ الأرض إلى منزل أقربُ منه قطباها
قاهرٌ ألقى به في صخرةٍ دُفِعَ النسرُ إليها فأواها
كرهت منزلها في تاجه دُرةٌ في البحر والبرّ نفاها
اسألوها واسألوا شانئها لمَ لم يُنفَ من الدر سواها
ولَدَ (الثورَةَ) سعدٌ حرةً بحياتي ماجدٌ حرٌ نماها
ما تمنى غيرَها نسلاً ومن يلد (الزهراء) يزهد في سواها
سالت الغابة من أشبالها بين عينيه وماجت بلباها
بارك الله له في فَرعها وقضى الخير لمصرٍ في جَناها
أوَ لم يكتبْ لها دستورَها بالدم الحر ويَرفعْ مُنتداها
قد كتبناها فكانت سورةً صدرُها حقٌ وحقٌ منتهاها
رقد الثائر إلا ثورةً في سبيل الحقّ لم تخمد جُذاها

قد تولاَّها صبياً فكوت راحتيه وفتياً فرعاها
جال فيها قلماً مستنهضاً ولساناً كلما أعيت حداها
ورمى بالنفس في بركانها فتلقى أوَّل الناس لظاها
أعلمتم بعد موسى من يدٍ قذفت في وجه فرعون عصاها
وطئت ناديه صارخة شاه وجه الرِق يا قوم وشاها
ظفرت بالكبر من مستكبرٍ ظافر الأيام منصور لواها
القنا الصم تساوى حوله وسيوف الهند لم تصح ظباها

***

أين من عيني نفس حرة كنت بالأمس بعيني أراها
كلما أقبلت هزت نفسها وتواصى بشرها بي وندَاها
وجرى الماضي فماذا ادَّكرت وادِّكار النفس شيء من وفاها
ألمح الأيام فيها وأرى من وراء السن تمثال صباها
لست أدري حين تندى نضرة علت الشيب أم الشيب علاها
حلت السبعون في هيكلها فتداعى وهي موفور بناها
روعة النادي إذا جدت فإن مزحت لم يذهب المزح بهاها
يظفر العذر بأقصى سخطها وينال الود غايات رضاها
ولها صبر على حسادها يشبه الصفح وحلم عن عداها
لست أنسى صفحة ضاحكة تأخذ النفس وتجري في هواها
وحديثاً كروايات الهوى جد للصب حنين فرواها

وفتاةٌ صعدةٌ لو وُهبت	للسماك الأعزلِ اختال وتاها

***

أين مني قلم كنت إذا	سمته أن يرثي الشمسَ رثاها
خانني في يوم سعد وجرى	في المراثي فكبا دون مداها
في نعيم الله نفسٌ أُوتيت	نِعَمَ الدنيا فلم تنسَ تقاها
لا الحجى لما تناهى غرّها	بالمقادير ولا العلمُ زهاها
ذهبت أوّابةٌ مؤمنةٌ	خالصاً من حيرة الشكّ هداها
آنست خلقاً ضعيفاً ورأت	من وراء العالم الفاني إلها
ما دعاها الحقُّ إلا سارعت	ليته يوم (وصيفٍ) ما دعاها

قل للزمان

قل للزمان يصبْ من أحداثه	أو لا يصبْ فما بنا إشفاق
غمرت مصائبه فأغرقنا بها	والغمر فيه تستوي الأعماق

مهرجان عبد الحميد الرافعي

أعرني النجمَ أو هب لي يراعا يزيد (الرّافعينَ) ارتفاعا
مكان الشمس أضوأ أن يحلى وأنبهُ في البريةِ أن يذاعا
بنو الشرق الكرام الوارثوه خلالَ البرّ والشرف اليَفاعا
تأمل شمسهم ومدى ضحاها تجدْ في كل ناحيةٍ شعاعا
قد اقتسموا ممالكه فكانت لهم وطناً من الفصحى مُشاعا
همُ زادوا القضاءَ جمالَ وجهٍ وزادوا غرّةَ الفتيا التماعا
أبوا في محنة الأخلاق إلاّ لياذاً في العقيدةِ وامتناعا
أوَوا شيباً وشباناً إليها تخالهم الصحابة والتباعا
إذا أُسد الشرى شبعت فعفت رأيت شبابهم عفوا جياعا
فلم ترَ مصر أصدقَ من (أمين) ولا أوفى إذا ريعت دفاعا
فتى لم يعطِ مقودَه زماناً شرى الأحرارَ بالدنيا وباعا
عظيمٌ في الخصومة ما تجنى ولا ركبَ السبابَ ولا القذاعا
تمرّس بالنضالِ فلستَ تدري أأقلاماً تناول أم نباعا[1]
ويا ابنَ السابق المزري ارتجالاً برُوّاض القصائدِ وابتداعا
أما يكفي أباك السبق حتى أتى بكَ أطولَ الشعراء باعا

(١) النباع : السهام

شدا الحادي بشعركَ في الفيافي — وحرّكتِ الرُّعاة به اليراعا[1]
وفات الطيرَ ألفاظاً فخامت — على المعنى فصاغته صناعا
إذا حضرَ البلابلَ فيه لحنٌ — تبادرتِ الحمام له استماعا

***

مشى لُبنان في عرس القوافي — وأقبل ربوةً واختال قاعا
وهزّ المنكبينِ لمهرجانٍ — زها كالباقةِ الحسنى وضاعا[2]
وأقبلت الوفودُ عليه تترى — كسرب النحل في الثمرات صاعا[3]
غدا يزجي الركابَ وراحَ حتى — أظلّ دمشقَ وانتظمَ البقاعا
ترى ثمّ القرائح والروابي — تبارين أفتناناً واختراعا
ربيعُ طبيعةٍ وربيع شعرٍ — تخلل نفح طيبهما الرباعا
كأنك بالقبائل في عكاظٍ — تجاذبت المنابرَ والتلاعا
بنت ملكاً من الفصحى وشادت — بوحدتها الحياة والاجتماعا
فعادت أمةً عجباً وكانت — رُعاةَ الشاء والبدو الشّعاعا

***

أميرَ المهرجانِ وددتُ أني — أُرى في مهرجانك أو أُراعى
عدت دونَ الخفوفِ له عوادٍ — تحدّين المشيئةَ والزّماعا
وما أنا حين سار الرّكبُ إلا — كباغي الحجّ همّ فما استطاعا
أقام بغبنه لم يقض حقاً — ولا بلّ الصبابةَ والنزاعا

(١) اليراع : المزمار أو الناي (٢) ضاع : فاح (٣) صاع : تتابع

(طرابلس) انثني عطفيْ أديمِ ومُوجي ساحلاً وثبي شراعا
كسا جنباتكِ الماضي جلالاً وراق عليه مِيسمه وراعا
وما من أمس للأقوام بدٌّ وإن ظنوا عن الماضي انقطاعا
ألم نسقي الجهاد وتطعميه وتحمي ظهره حقباً تباعا
شراعكِ في الفنيقيين جلى وذكرُكِ في الصليبيين شاعا
كأني بالسفين غدت وراحت حيالكِ تحمل العلمُ المطاعا
(صلاحُ الدين) يرسلها رياحاً وآونةً يصففها قلاعا
أليسَ البحرُ كان لنا غديراً وكانت فلكنا البَجعَ الرتاعا
غمرنا بالحضارة ساحليه فما عيّا بجائطها اضطلاعا
توارثناهُ أبلجَ عبقريّاً ذَلولَ المتن منبسطاً وساعا
ترى حافاته انفجرت عيوناً ورفت من جوانبه ضياعا
فما زدنا الكتاب الفخم حرفاً ولا زدنا العصور الزُّهرَ ساعا
قعدنا مقعدَ الآباء منه فكنا البَهم قد خلف السباعا
كأنّ الشمس مسلمةٌ أصابت عفيفاً في طيالسه شجاعا
تَحَجّبُ عن بحار الله حتى إذا خطرت به نضتِ القناعا
وما رأت العيونُ أجلّ منها على أجزاء هيكله اطلاعا
فما كشروقها منه نعياً ولا كغروبها فيه متاعا

نشيد الشبان المسلمين

العزُّ للإسلام ِ منارةُ الوجودْ
هدايةُ الإمام ِ ومطلعُ السعودْ

* * *

عصابة الصدّيق وراية الفاروق
والحق والوسيله والسمحة الظليله
ومعقل الفضيله وغابة الأُسود

* * *

الفرسُ في لوائه والهند في ضيائه
في الأرض صار كالعلمْ بغرّةٍ تمحو الظلمْ
بين الكتاب والقلم مظفر الجنود

* * *

الشام من أسرّتهْ ومصر نورُ غرته
من هالةٍ لهاله يمزّق الجهاله
ويهزم الضلاله ويحطم القيود

* * *

علاقة القلوب وعروة الشعوب
مشى هدى ورحمهْ بينهمُ وذمهْ
فليس بين أمه وأختها حدود

رثاء امين بك الرافعي

مال أحبابه خليلاً خليلا ونولى اللذاتُ إلا قليلا

نصلوا أمس من غبار الليالي ومضى وحده يحثُّ الرحيلا

سكنت منهم الركاب كأن لم تضطرب ساعةً ولم تمض ميلا

جرَّدوا من منازل الأرض إلا حجراً دارساً ورملاً مهيلا

ونعرَّوا إلى البلى فكساهم خشنة اللحد والدجى المسدولا

في ثياب من الثرى ردّه المو تُ نقياً من الحقود غسيلا

طرحوا عنده الهمومَ وقالوا إن عبء الحياة كان ثقيلا

إنما العالَمُ الذي منه جئنا ملعبٌ لا ينوّع التمثيلا

بطلُ الموت في الرواية ركنٌ بنيت منه هيكلاً وفصولا

كلما راح أو غدا الموت فيها سقط الستر بالدموع بليلا

ذكرياتٌ من الأحبة تمحى بيدٍ للزمان تمحو الطلولا

كلُّ رسمٍ من منزلٍ أو حبيب سوف يمشي البلى عليه محيلا

رُبَّ ثكلٍ أساكَ من قرحه الثك لِ ورزءٍ نساك رزءاً جليلا

***

يابنات القريض قمن مناحا ت وأرسلن لوعةً وعويلا

من بنات الهديل انتنَّ أحنى نغمةً في الأسى وأشجى هديلا

إنَّ دمعاً تذرفن إثر رفاقي سوف يبكي به الخليلَ الخليلا
ربَّ يوم ينتاحُ فيه علينا لو نحسُّ النواح والترتيلا
بمراثٍ كتبن بالدمع عنا أسطراً من جوىً وأخرى غليلا
يجد القائلون فيها المعاني يوم لا يأذن البلى أن نقولا

***

أخذ الموت من يد الحق سيفاً خالديَّ الغرار عضباً صقيلا
من سيوف الجهاد فولاذه الحـ ـقُّ فهل كان قينه جبريلا
لمسته يد السماء فكان الـ ـبرقَ والرعدَ خفقةً وصليلا
وإباءُ الرجال أمضى من السيـ ـف على كفِّ فارسٍ مسلولا
ربَّ قلبٍ أصاره الخلق ضرغا ماً وصدرٍ أصاره الحق غيلا
قيل حلله قلتُ عِرقٌ من التبـ ـرِ أراح البيان والتحليلا
لم يزد في الحديد والنار إلا لمحةً حرَّةً وصبراً جميلا
لم يخف في حياته شبح الفقـ ـر إذا طاف بالرجال مهولا
جاع حيناً فكان كالليث آبى ما تلاقيه يوم جوعٍ هزيلا
تأكل الهرةُ الصغارَ إذا جا عت ولا تأكل اللباةُ الشبولا
قيل غالٍ في الرأي قلت هبوه قد يكون الغلوُّ رأياً أصيلا
وقديماً بنى الغلوُّ نفوساً وقديماً بنى الغلوُّ عقولا
وكم استنهضَ الشيوخ وأذكى في الشباب الطماحَ والتأميلا
ومن الرأي ما يكون نفاقاً أو يكون اتجاهه التضليلا

ومن النقد والجدال كلامٌ ... يشبهُ البغيَ والخنا والفضولا

وأرى الصدقَ دَيدنَا لسليل الـ ... رافعيين والعفافَ سبيلا

عاش لم يغتبِ الرجال ولم يحـ ... مل شؤونَ النفوسِ قالاً وقيلا

قد فقدنا به بقيـة رهط ... أيقظوا النيلَ واديا ونزيلا

حرَّكوه وكان بالأمس كالكهـ ... ف حُزونا وكالرقيم سهولا

يا أمينَ الحقوق أدبتَ حتى ... لم تخنْ مصرَ في الحقوق فتيلا

ولو استطعتَ زدتَ مصر من الحـ ... ق على نيلها المبارك نيلا

لستَ أنساك قابعا بين درجيـ ... ك مُكبا عليهما مشغولا

قد تواريتَ في الخشوع فخالو ... ك ضئيلا وما خُلقتَ ضئيلا

سائل الشعب عنك والعلم الخفـ ... اق أو سائل اللواءَ الظليلا

كم إمامٍ قربتَ في الصف منه ... ومغنٍ قعدت منه رسيلا

تنشدُ الناس في القضية لحنا ... كالحواريّ رتلَ الإنجيلا

ماضيا في الجهاد لم تتأخر ... تزنُ الصف أو تُقيم الرعيلا

ما أبالي مضيتَ وحدك تحمي ... حوزةَ الحق أم مضيت قبيلا

إن يفت فيك منبر الأمس شعري ... إن لي المنبر الذي لن يزولا

جل عن مُنشد سوى الدهر يلقيـ ... ه على الغابرين جيلاً فجيلا

تأسيس بنك مصر

نراوَح بالحوادث أو نغادى ونشكرها ونعطيها القيادا
ونحمدها وما رعت الضحايا ولا جزت المواقفَ والجهادا
لحاها الله باعتنــا خيالاً من الأحلام واشترت اتحادا
مشينا أمسِ نلقاها جميعــاً ونحن اليوم نلقاها فُرادى
أضلتنا عن الإصلاح حتى عجزنا أن نناقشها الفسادا
تُلاقينا فلا نجدُ الصياصي ونلقاها فلا نجدُ العتادا
ومن لقي السباعَ بغير ظفرٍ ولا نابٍ تمزّق أو تفادى
خفضنا من علوّ الحق حتى توهمنا السيادةَ أن نسادا
ولما لم ننل للسيف ردًّا تنازعنا الحمائلَ والنجــادا
وأقبلنــا على أقوال زورٍ تجيءُ الغي تقلبه رشادا
ولو عدنا إليها بعــد قرنٍ رحمنا الطِرس منها والمدادا
وكم سحرٍ سمعنا منذ حينٍ تضاءل بين أعيننــا وبادا
هنيئاً للعدو بكل أرضٍ إذا هو حلّ في بلد تعادى
وبعداً للسيادة والمعالي إذا قطعا القرابة والودادا
ورب حقيقةٍ لا بُدّ منها خدعنا النشءَ عنها والسوادا
ولو طلعوا عليها عالجوهــا بهمة أنفسٍ عظمت مُرادا

تُعِدّ لحادث الأيام صبراً   وآونةً تعدّ له عنادا
وتخلف بالنهى البيض المواضي   وبالخلق المثقفة الصّعادا
لحنا الحظّ ناحيةً فلما   بلغناها أحسّ بنا فعادا
وليس الحظّ إلاّ عبقريّاً   يحبّ الأريحية والسدادا
ونحن بنو زمانٍ حوّلي   تنقل تاجراً ومشى ورادا
إذا قعد العبادُ له بسوقٍ   شرى في السوق أو باع العبادا
وتعجبه العواطف في كتابٍ   وفي دمع المشخص ما أجادا

* * *

يؤمننا على الدستورِ أنّا   نرى من خلف حوزته (فؤادا)
أبو الفاروق نرجوه لفضلٍ   ولا نخشى لما وهبَ ارتدادا
ملأنا باسمه الأفواه فخراً   ولقبناه بالأمس (المكادا)
نناجيه فنسترعي حكيماً   ونسأله فنستجدي جوادا
ولم يزل المحببَ والمفدّى   ومرهم كلّ جرحٍ والضمادا

* * *

تدفق مصرفُ الوادي فروّى   وصاب غمامه فسقى وجادا
دعا فتنافست فيه نفوسٌ   بمصرَ لكلّ صالحةٍ تنادى
تقدّم عونها ثقةً ومالاً   وأحياناً تقدمه اجتهادا
وأقبلَ من شبابِ القوم جمعٌ   كما بنتِ الكهولُ بنى وشادا
كأنّ جوانبَ الدار الخلايا   وهم كالنحل في الدار احتشادا

فيا داراً من الهمم العوالي ... سُقيت التبر لا أرض العهادا
تأنى حين أسسك (ابن حرب) ... وحين بنى دعائمك الشدادا
ولا تروجُ المتانة في بناء ... إذا البناء لم يُعطِ اتئادا
بنى الدار التي كنا نراها ... أماني المخيل أو رقادا
ولم يبعد على نفس مرام ... إذا ركبت له الهمم البعادا
ولم أر بعد قدرته تعالى ... كمقدرة ابن آدم إن أرادا
جرى والناس في ريب وشك ... يروم السبق فاغترق الجيادا
وعودي دونها حتى بناها ... ومن شأن المجد أن يعادى
يهون الكيد من أعدى عدو ... عليك إذا الولي سعى وكادا
فجاءت كالنهار إذا تجلى ... علواً في المشارق وانطيادا
تصون كرائم الأموال فيها ... وتنزلها الخزائن والنضادا
وتخرجها فتكسب ثم تأوي ... رجوع النحل قد حملن زادا
ولم أر مثلها أرضاً أغلت ... وما سقيت ولا طعمت سمادا
ولا مستودعاً مالاً لقوم ... إذا رجعوا له أدى وزادا
ومن عجب تثبتها أصولاً ... وتلك فروعها تغشى البلادا
كأن القطر من شوق إليها ... همى قبل الأساس بها عمادا
ولو ملكت كنوز الأرض كفي ... جعلت أساسها ماساً ورادا
ولو أن النجوم عنت لحكمي ... فرشت النيرات لها مهادا

رثاء ثروة باشا

يموت في الغاب أو في غيره الأسدُ ... كلُّ البلاد وسادٌ حين تتَّسد
قد غيب الغرب شمساً لا سقام بها ... كانت على جنبات الشرق تتقد
حدا بها الأجل المحتومُ فاغتربت ... إن النفوسَ إلى آجالها تَفِد
كلُّ اغترابٍ متاعٌ في الحياة سوى ... يومٍ يفارق فيه المهجةَ الجسد
نعى الغمامَ إلى الوادي وساكنه ... برقٌ تمايل منه السهلُ والجلد
برقُ الفجيعة لما ثار ثائره ... كادت كأمسٍ له الأحزاب تتحد
قام الرجالُ حيارى منصتين له ... حتى إذا هدّ من آمالهم قعدوا
علا الصعيدَ نهارٌ كله شجنٌ ... وجلل الريفَ ليلٌ كله سهد
لم يبقِ للضاحكين الموت ما وجدوا ... ولم يردّ على الباكين ما فقدوا
وراء ريب الليالي أو فجاءتها ... دمعٌ لكل شمات ضاحكٍ رصد
باتت على الفلك في التابوت جوهرةٌ ... تكاد بالليل في ظل البِلى تقِد
يفاخر النيل أصداف الخليج بها ... وما يدبّ إلى البحرين أو يرِد
إن الجواهر أسناها وأكرمها ... ما يقذف المهد لا ما يقذف الزبد
حتى إذا بلغ الفلك المدى انحدرت ... كأنها في الأكفّ الصارمُ الفرِد
تلك البقية من سيف الحمى كسرٌ ... على السرير ومن رمح الحمى قَصد
قد ضمها فزكا نعشٌ يطاف به ... مقدّمٌ كلواء الحق منفرد

مشت على جانبيه مصرُ تنشده ... كما تدلّهتِ الثكلى ونفتقد
وقد يموت كثيرٌ لا تحسهمو ... كأنهم من هوان الخطب ما وجدوا
ثكلُ البلاد له عقل ونكبتها ... هي النجابة في الأولاد لا العدد
مكلل الهام بالتصريح ليس له ... عودٌ من الهام يحويه ولا نضد
وصاحب الفضل في الأعناق ليس له ... من الصنائع أو أعناقهم سند
خلا من المدفع الجبار مركبه ... وحلّ فيه الهدى والرفقُ والرشد
إن المدافع لم يخلق لصحبتها ... جند السلام ولا قُوّاده المجد

* * *

ياباني الصرح لم يَشغله ممتدحٌ ... عن البناء ولم يصرفه منتقد
أصمّ عن غضبٍ من حوله ورضى ... في ثورة تلد الأبطال أو تئد
تصريحك الخطوة الكبرى ومرحلة ... يدنو على مثلها أو يبعد الأمد
الحقُّ والقوةُ ارتدّا إلى حَكَمٍ ... من الفياصل ما في دينه أوَد
إلى سفارتك المهدية اختصما ... وملّ طول النضال الذئبُ والنقد
ما زلت تطرق باب الصلح بينهما ... حتى تفتحت الأبواب والسدد
وجدتها فرصةً تلقى الجبال بها ... إن السياسة فيها الصيد والطرد
طلبتها عند هُوج الحادثات كما ... يمشي إلى الصيد تحت العاصف الأسد
لما وجدتَ مُعَداتِ البناء بنت ... يداك للقوم ما ذموا وما حمدوا
بنيت صرحك من جهد البلاد كما ... تبنى من الصخر الأساس والعمد
فيه ضحايا من الأبناء قيّمةٌ ... وفيه سعيٌ من الآباء مطرد

وفي أواسيه أقلامٌ مجاهـدةٌ على أسنتها الإحسانُ والسدد
وفيه ألويةٌ عزّ الجهادُ بهم لولا المنيةُ ما مالوا ولا رقـدوا
رميتَ في وَتِد الذل القديم به حتى تزعزعَ من أسبابه الوَتِد
طوى حمايته المحتلُّ وانبسطت حمايةُ الله فاستذرى بها البـلد
نم غير بالٍ على ما شدت من كرم ما شِيدَ للحق فهو السرمدُ الأبد
يا ثروة الوطن الغالي كفى عظةً للناس أنك كنزٌ في الثرى بَدَد
لم يطغك الحكمُ في شتى مظاهره ولا استخفك لينُ العيش والرغد
تغدو على الله والتاريخ في ثقةٍ ترجو فتقـدم أو تخشى فتتئد
نشأت في جبهة الدنيا وفي فمها يدور حيث تدور المجدُ والحسد
لكل يومٍ غدٌ يمضي بروعته وما ليومك يا خيرَ اللِّدات غد
رمتك في قنوات القلب فانصدعت منيةٌ ما لها قلبٌ ولا كبـد
لما أناخت على تامورك انفجرت أزكى من الورد أو من مائه الوُرُد
ما كل قلبٍ غدا أو راح في دمه فيه الصديقُ وفيه الأهل والولد
ولم تطاولك خوفاً أن يناضلها منك الدهاءُ ورأيٌ منقذ نجد
فهل رثى الموتُ للبَرِّ الذبيح وهل شجاه ذاك الحنان الساكن الهمد
هيهات لو وجدت للموت عاطفةٌ لم يبك ِ من آدمٍ أحبابه أحـد

* * *

مشت تذود المنايا عن وديعتها مدينةُ النور فارتدّت بها رمد
لو يُدفع الموت ردت عنك عاديةً للعلم حولك عينٌ لم تنم ويـد

أبا عزيز سلامُ الله لا رسلٌ ... إليك تحمل تسليمي لا برد

ونفحةٍ من قوافي الشعر كنتَ لها ... في مجلس الراح والريحان تحتشد

أرسلتها وبعثتُ الدمعَ يكتنفها ... كما تحدر حول السوسن البرد

عطفتُ فيك إلى الماضي وراجعني ... ودٌّ من الصغر المعسول منعقد

صافٍ على الدهر لم تقفر خليته ... ولا تغير في أبياتها الشهد

حتى لمحتك مرموقَ الهلال على ... حداثةٍ تعدُ الأوطانَ ما تعد

الشعرُ دمعٌ ووجدانٌ وعاطفةٌ ... ياليتَ شعري هل قلت الذي أجد

رثاء الشهيد عمر مختار

ركزوا رُفاتك في الرمال لوآء ... يستنهض الوادي صباحَ مساء

يا ويحهم نصبوا مناراً من دمٍ ... نوحي إلى جيل الغد البغضاء

ما ضرَّ لو جعلوا العلاقة في غدٍ ... بين الشعوب مودةً وإخاء

جرحٌ يصيح على المدى وضحيةٌ ... نتلمس الحريةَ الحمراء

يا أيها السيف المجرَّد بالفلا ... يكسو السيوف على الزمان مضاء

تلك الصحارى غمد كل مهندٍ ... أبلى فأحسن في العدو بلاء

وقبور موتى من شباب أمية ... وكهولهم لم يبرحوا أحياء

لو لاذ بالجوزاء منهم معقلٌ ... دخلوا على أبراجها الجوزاء

فتحوا الشمال سهوله وجباله ... وتوغلوا فاستعملوا الخضراء

وبنوا حضارتهم فطاول ركنها دارَ السلام وجلقَ الشمآء

* * *

خُيّرتَ فاخترت المبيت على الطّوى لم تبنِ جاهاً أو تلمّ ثرآء

إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعبّ الماء

إفريقيا مهد الأسود ولحدها ضجت عليك أراجلاً ونسآء

والمسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزآء

والجاهلية من ورآء قبورهم يبكون زيد الخيل والحلفآء [1]

* * *

في ذمة الله الكريم وحفظه جسدٌ (ببرقة) وُسّدَ الصحرآء

لم تُبقِ منه رحى الوقائع أعظماً تَبلى ولم تُبقِ الرماح دمآء

كرُفات نسرٍ أو بقية ضيغمٍ باتا ورآء السافيات هبآء

* * *

بطلُ البداوة لم يكن يغزو على (تنك) ولم يك يركب الاجوآء

لكن أخو خيل حمى صهواتها وأدار من أعرافها الهيجاء

* * *

لبى قضاء الأرض أمسِ بمهجةٍ لم تخشَ إلا للسمآء قضاء

وافاه مرفوع الجبين كأنه (سقراط) جرّ إلى القضآء ردآء

شيخٌ تمالك سنه لم ينفجر كالطفل من خوف العقاب بكآء

(١) الحلفآء : لقب عنترة العبسي

وأخو أمورٍ عاش في سرّائها ... فتغيرت فتوقع الضرّاء
الأسد تزأر في الحديد ولن ترى ... في السجن ضرغاماً بكى استخذاء
وأتى الأسير يجرّ ثقل حديده ... أسدٌ يجرّر حيةً رقطاء
عضت بساقيه القيودُ فلم ينُؤْ ... ومشت بهيكله السنون فناء
تسعون لو ركبت مناكبَ شاهقٍ ... لترجلت هضباته إعياء
خفيت عن القاضي وفات نصيبها ... من رفق جندٍ قادةً نبلاء
والسن تعطف كل قلب مهذبٍ ... عرف الجدود وأدرك الآباء

***

دفعوا إلى الجلاّد أغلبَ ماجداً ... يأسو الجراحَ ويطلق الأسراء
ويشاطر الأقرانَ ذخرَ سلاحه ... ويصفُّ حول خوانه الأعداء
وتخيروا الحبلَ المهينَ منيةً ... لليث يلفظ حوله الحوباء
حرموا المماتَ على الصوارم والقنا ... من كان يعطي الطعنةَ النجلاء
إني رأيت يدَ الحضارة أولعت ... بالحق هدماً تارةً وبناء
شرعت حقوق الناس في أوطانهم ... إلا أباة الضيم والضعفاء

***

يا أيها الشعب القريب أسامعٌ ... فأصوغ في عمرَ الشهيدِ رثاء
أم ألجمت فاك الخطوبُ وحرمت ... أذنيك حين تخاطب الإصغاء
ذهب الزعيم وأنت باقٍ خالدٌ ... فانقد رجالك واخترِ الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى ... واحمل على فتيانك الأعباء

افتتاح المعهد الموسيقي

خطت يداك الروضةَ الغنآء ... وفرغتَ من صرح الفنون بناء
مازلتَ تذهب في السمو بركنه ... حتى تجاوزَ ركنه الجوزآء
دارٌ من الفن الجميل تقسمت ... للسامرين روايةً ورُوآء
كالروض تحت الطير أعجب أيكه ... لحظَ العيون وأعجب الإصغاء
ولقد نزلت بها فلم ترَ قبلها ... فَلكاً جلا شمسَ النهار عِشاء
ونوهجت حتى تقلب في السنا ... وادي الملوك حجارةً وفضاء
فتلفتوا يتهامسون لعله ... فجرُ الحضارةِ في البلاد أضاء
تلك المعارف في طلول بنائهم ... أكثرنَ نحو بنائك الإيماء
وتمايلت عيدانُهن تحيةً ... وترنمت أوتارُهن ثناء

* * *

يا بانيَ الإيوان قد نسقته ... وحذوتَ في هندامها الحمرآء
أين (الغريضُ) يحله أو (معبدٌ) ... يتبوأُ الحجرات والأبهاء
العبقريةُ من ضنائنه التي ... يحبو بها سبحانه من شاء
لما بنيتَ الأيكَ واستوهبته ... بعثَ الهزارَ وأرسل الورقاء
فسمعت من متفرد الأنغام ما ... فات (الرشيدَ) وأخطأ الندماء
والفنُّ ريحانُ الملوك وربما ... خلدوا على جنانه أسماء

لولا أياديه على آبائنا لم نلفَ أمجدَ أمةٍ آباء
كانت أوائلُ كل قومٍ في العلا أرضاً وكنا في الفخار سماء
لولا ابتسام الفن فيما حوله ظلّ الوجودُ جهامةً وجفاء
جرّد من الفن الحياةَ وما حوت تجدِ الحياةَ من الجمال خلاء
بالفن عالجتِ الحياةَ طبيعةٌ قد عالجت بالواحة الصحراء
تأوي إليه الروحُ من رمضائها فتصيب ظِلاً أو تصادف ماء
نبضُ الحضارة في الممالك كلها يجري السلامة أو يدقُّ الداء
إن صحّ فهي على الزمان صحيحةٌ أو زاف كانت ظاهراً وطلاء

* * *

أنظر أبا الفاروق غرسك هل ترى بالغرس إلا نعمةً ونماء
من حبةٍ ذخرت وأيدٍ ثابرت جاء الزمانُ بجنةٍ فيحاء
وأكنتِ الفنّ الجميلَ خميلةٌ رمت الظلالَ ومدّت الأفياء
بذل الجهودَ الصالحاتِ عصابةٌ لا يسألون عن الجهود جزاء
صحبوا رسولَ الفن لا يألونه حباً وصدقَ مودةٍ ووفاء
دفعوا العوائق بالثبات وجاوزوا ما سرّ من قدر الأمور وساء
إن التعاون قوةٌ علويةٌ تبني الرجالَ وتبدع الأشياء
فليهنهم جازى التفأنك سعيهم وكساً نديهمو سناً وسناء
لم تبد للأبصار إلا غارساً لخوالفِ الأجيالِ أو بناء
تغدو على الفترات ترتجل الندى وتروح تصطنع اليدَ البيضاء

في موكبٍ كالغيث سار ركابه ... بشراً وحلّ سعادةً ورخاء
أنت اللوآء التفّ قومك حوله ... والتاج تجعله الشعوب لوآء
من كل مئذنةٍ سمعتَ تحيةً ... وبكل ناقوسٍ لقيتَ دعاء
يتآلفان على الهتاف كما انبرى ... وترٌ يسايرُ في البنان غناء

تعزية الدكتور هيكل

الضلوعُ تتقدُ ... والدموع تطردُ
أيها الشجيُّ أفق ... من عنآء ما تجد
قد جرت لغايتها ... عبرةٌ لها أمد
كل مسرفٍ جزعاً ... أو بكى سيقتصد
والزمانُ سنته ... في السلوّ يجتهد
قل لثاكلين مشى ... في قواهما الكمد
لم يُعافَ قبلكما ... والدٌ ولا ولد
الذين مِيلَ بهم ... في سِفارهم بعدوا
ما علمتما أشقوا ... بالرحيل أم سعدوا
إن منزلاً نزلوا ... لا يردُّ من يَرِد
كلنا إليه غداً ... ليس بالبعيد غد

* * *

البنونَ هم دمنا والحياةُ والوُرُد
لا تلذّ مثلهمو مهجةٌ ولا كبد
يستوون واحدُهم في الحنان والعدد
زينةٌ ومصلحةٌ واستراحةٌ ودَدُ
فتنةٌ إذا صلحوا محنةٌ إذا فسدوا
شاغلٌ إذا مرضوا فاجعٌ إذا فقدوا
جرحهم إذا انتزعوا لا تلمه الضمد
العزاء ليس له آسياً ولا الجلد

***

قل لهيكلٍ كلما من ورائها رشد
لم يَشُبْ مهذَّبها باطلٌ ولا فند
قد عجبتُ من قلمٍ ثاكلٍ وينجرد
أنت ليثُ معركةٍ وهو صارمٌ فرِد
والسيوفُ نخوتها في الوطيس تتقد
أنت ناقدٌ أربٌ والأريبُ ينتقد
ماتقول في قدرٍ بعض سنه الأبد
وهو في الحياة على كل خطوةٍ رصد
يعثرُ الأنامُ به إن سعوا وإن قعدوا
ينزل الرجال على حكمه وإن جحدوا

القضاءُ معضلةٌ   لم يحلها أحد
كلما نقضتَ لها   عقدةً بدت عقد
أتعبت معالجها   واستراحَ معتقد

***

عالَمٌ مدبرُه   بالبقاء منفرد
من بِلى كوائنه   كائناته الجُدُد
لا تقل به إدَد   إن حسنه الإدَد
تلتقي نقائضه   غايةً وتتحد
الفناءُ فيه يدٌ   للبقاء أو عضد
إئتلافه رشدٌ   واختلافه سدد
جدَّ في عمارته   منصفٌ ومضطهد
ذو الغني لخدمته   كالفقير محتشد
وهو في أعنته   مُمعنٌ ومطرد
والحياة حنظلةٌ   في حروفها شهدُ
هيكلُ الشقاء له   من مدامعٍ عمد
قامت النعوشُ على   جانبيه والوُسد
عرْسه ومأتمه   غايتاهما نَفد

الشعر (*)

الشعر صنفان فباقٍ على ... قائله أو ذاهبٌ يومَ قيل
ما فيه عصريٌّ ولا دارسٌ ... الدهرُ عمرٌ للقريض الأصيل
لفظٌ ومعنى هو فاعمد إلى ... لفظٍ شريفٍ أو لمعنى نبيل
واخلق إذا ما كنت ذا قدرةٍ ... ربَّ خيالٍ يخلق المستحيل
ما رفعَ القالةَ أو حطَّهم ... إلا خيالٌ جامدٌ أو مُنيل
من يصف الإبلَ يصف ناقةً ... طارت بهم وارتفعت ألف ميل
سائل بني عصرك هل منهمُ ... من لبس الإكليل بعد الكليل
وأيهم كالمتنبي امرؤٌ ... صوَّاغِ أمثالٍ عزيزُ المثيل
والله ما (موسِّي) وليلاته ... وما (لَمرتينُ) ولا (جيرزيل)
أحقُّ بالشعر ولا بالهوى ... من قيسِ المجنون أو من جميل
قد صوَّر الحبَّ وأحداثه ... في القلب من مستصغر أو جلل
تصويرَ من تبقى دمى شعره ... في كل دهرٍ وعلى كل جليل

ساعة الدفن

أقول لهم في ساعة الدفن خففوا ... عليَّ ولا تلقوا الصخور على قبري
ألم يكفِ همٌّ في الحياة حملته ... فأحملَ بعد الموت صخراً على صخر

(١) من قصيدة في تقديم ديوان خليل شيبوب (الفجر الأول)

الاحتفال الخمسيني

بدار العلوم

إتخذت السماء يا دار ركنا وأويت الكواكب الزهر سكنا

وجمعت السعادتين فباتت فيك دنيا الصلاح للدين خدنا

نادما الدهر في ذراك وفضا من سلاف الوداد دنا فدنا

وإذا الخلق كان عقد وداد لم ينل منه من وشى وتجنى

وأرى العلم كالعبادة في أبـ عدِ غاياته إلى الله أدنى

واسع الساح يرسل الفكر فيها كل من شك ساعة او تظنى

هل سألنا أبا العلاء وإن قلـ ـب عينا في عالم الكون وسنى

كيف يهذي بخالق الطير من لم يعلم الطير هل بكى أو تغنى

أنت كالشمس رفرفا والسماكيـ ـن رواقا وكالمجرة صحنا

لو تسترت كنت كالكعبة الغرّ آء ذيلا من الجلال وردنا

إن تكن للثواب والبر دارا أنت للحق والمراشد مغنى

قد بلغت الكمال في نصف قرن كيف إن تمت الملاوة قرنا

لا تعدي السنين إن ذكر العلـ ـم فما تعلمين للعلم سنا

سوف تفنى في ساحتيك الليالي وهو باق على المدى ليس يفنى

***

يا عكاظاً حوى الشباب فصاحاً　　قرشيين في الجوامع لسنا
بثهم في كنانة الله نوراً　　من ظلام على البصائر أخنى
علموا بالبيان لا غرباء　　فيه يوماً ولا أعاجم لُكْنا
فتيةٌ محسنون لم يُخلفوا العلـ　　ـمَ رجاءً ولا المعلم ظنا
صدعوا ظلمةً على الريف حلت　　وأضاءوا الصعيدَ سهلاً وحزْنا
من قضى منهمُ تفرق فكراً　　في نهى النشء أو تقسم ذهنا
نادِ دارَ العلوم إن شئتَ (يا عا　　ئش) أو شئت نادِها (يا سُكينا)
قل لها يا ابنة (المبارك) إيهٍ　　قد جرت كاسمه أمورُكِ يُمنا
هو في المهرجان حيٌّ شهيدٌ　　يجتلي غرسَ فضله كيف أجنى
وهو في العرس إن تحجب أو لم　　يحتجب والدُ العروس المهنا
ما جرى ذكره بناديكِ حتى　　وقف الدمع في الشئون فأثنى
رب خيرٍ ملئتُ منه سروراً　　ذكَّرَ الخيِّرين فاهتجتُ حزنا
أدرى إذ بناك أن كان يبني　　فوق أنف العدو للضاد حصنا
حائطُ الملك بالمدارس إن شئـ　　ـتَ وإن شئت بالمعاقل يبنى
أنظر الناس هل ترى لحياةٍ　　عطلت من نباهة الذكر معنى
لا الغنى في الرجال ناب عن الفضـ　　ـلِ وسلطانه ولا الجاهُ أغنى
رب عاتٍ في الأرض لم تجعل الأر　　ض له إن أقام أو سار وزنا
عاش لم ترمه بعينٍ وأودى　　همْلاً لم تهبْ لناعيه أذنا
نظم اللهُ ملكه بعبادٍ　　عبقريين أورثوا الملك حسنا

شغلتهم عن الحسود المعالي ‏ إنما يحسد العظيم ويشنا
من زكي الفؤاد يورث علماً ‏ وبديع الخيال يخلق فنا
كم قديم كرقعة النجم حرٍ ‏ لم يقلل له الجديدان شأنا
وجديدٍ عليه يختلف الدهـ ‏ ـر ويفنى الزمان قرناً فقرنا
فاحتفظ بالذخيرتين جميعاً ‏ عادة الفطن بالذخائر يعنى
يا شباباً سقوني الود محضاً ‏ وسقوا شانئي على الغل أجنا
كلما صار للكهولة شعري ‏ أنشدوه فعاد أمرد لدنا
أسرة الشاعر الرواة وما عنـ ‏ ـوه والمرء بالقريب معنى
هم يضنون في الحياة بما قا ‏ ل ويلفون في الممات أضنا
وإذا ما انقضى وأهلوه لم يعـ ‏ ـدم شقيقاً من الرواة أو ابنا
النبوغ النبوغ حتى تنصوا ‏ راية العلم كالهلال وأسنى
نحن في صورة الممالك ما لم ‏ يصبح العلم والمعلم منا
لا تنادوا الحصون والسفن وادعوا الـ ‏ علم ينشئ لكم حصوناً وسفنا
إن ركب الحضارة اخترق الأر ‏ ض وشق السماء ريحاً ومزنا
وأصبناه كالغبار فلا رحـ ‏ ـلاً شددنا ولا ركاباً زممنا
دان آباؤنا الزمان ملياً ‏ ومليّاً لحادث الدهر دنّا
كم نباهي بلحد ميتٍ وكم نجـ ‏ ـحر من هادم ولم يبن منا
قد أنى أن نقول (نحن) ولا نسـ ‏ ـمع آباءنا يقولون كنا

تم القسم الثاني في أمير الشعراء ، ويليه القسم الثالث في المقارنات بين الشاعرين

القسم الثالث

حافظ وشوقي

١

مقارنات بينهما



حافظ وشوقي

صورة تذكارية أخذت في المهرجان الذي أقيم لشوقي في الاوبرا الملكية عام ١٩٢٧

رأي في الشاعرين

لا أنكر أن شوقي رحمه الله كان نتيجة عصره ، وكان ناضجاً نضوجاً لغوياً كبيراً ، وأنا أظن أن هذا النضوج قد جعل لشعره روعةً وجلالاً لا يوجدان في شعر غيره من شعراء عصره . وهو إلى ذلك مجتهد كثير الإنتاج وخصوصاً في أواخر أيامه . ويظهر أثر هذا الاجتهاد في محافظته على مركزه وشهرته . ولما أحسَّ أن قصائده ليست كافيةً في الوقت الحاضر للمحافظة على مركزه اتَّجه إلى تأليف الروايات ، فألف منها عدداً استنفد منه مجهوداً كبيراً وصبراً طويلاً مع تقدمه في السن واعتلال صحته — وهذا اجتهادٌ بلا شك يدل على حيويةٍ قويةٍ في نفسه .

ومن هذه الناحية كان يفضل حافظ إبراهيم ، فإن حافظاً حينما شعر بالسأم وضع قيثارته وأراح نفسه ، فلم يكن له إنتاجٌ كبيرٌ في أواخر أيامه . ولكن حافظاً كان أقرب إلى روح الشعب من شوقي وقد فهم الشعبَ جيداً وعرف آلامه وآماله ، فاستطاع أن يكون ترجمان الشعب ولسانَه الصادق . ومن هنا كان مفهوماً للشعب محبوباً إليه .

بخلاف شوقي فقد سما فوق مدارك الشعب ، وابتعد في كثير من الأحيان عن شعوره ، وكان أقرب إلى الحكومة منه إلى الشعب .

ولعل ظروف حياته منذ أربعين عاماً هي التي صاغته على هذا المنوال .

لا أريد أن أزيد على ذلك ، ولكنني أقول : إن شوقي وحافظاً قد استطاعا أن يخلقا حولهما هالة من الشهرة والإعجاب لم تتح لغيرهما من الشعراء ، وقد سايرا النهضة منذ أربعين عاماً أو تزيد ، واستطاعا أن يحملا لواء الشعر في مقدمة شعراء العصر ، وأن يحصلا لمصر على الزعامة الشعرية بين سائر الأقطار العربية بلا منازع — وتلك مزايا يجب أن نعترف بها وأن نذكرها حينما نكتب عن حياة هذين الشاعرين .

مصر : إبراهيم عبد القادر المازني

العبقرية والقريحة


أحمد حسن الزيات

فجيعة الشعر العربي في حافظ وشوقي يعز عليها الصبر ويعوز منها العوض، ويصرف أساها الناقدين عن تقويم الميراث العزيز إلى تعظيم الموروث الأعز. وليس مما يزكو بالمنصف أن يجشم نظره رؤية الحق من خلال الدموع. فإن في ذلك اعتداء على العقل أو إساءة إلى العاطفة. وهذه الكلمة إنما نستجيز ذكرها اليوم لأنها إلى الهتاف بالعظيمين أقرب منها إلى النقد، ولأن ما يكتب عنهما الساعة إنما هو تقييد لعفو الرأي وتمهيد لأسباب الحكم الصحيح

شوقي شاعر العبقرية، وحافظ شاعر القريحة. وتقرير الفرق بين الموهبتين هو تقرير الفرق بين الرجلين. فالقريحة ملكة يملك صاحبها الإبانة عن نفسه بأسلوب يقره الفن ويرضاه الذوق. ومن خصائصها الوضوح والاتساق والأناقة والسهولة والطبيعة والدقة. أما العبقرية فضرب من الإلهام

يستمر استمراراً تجدديًّا فتلازم أحيانًا وتنفك حينًا . ومن أخص صفاتها الأصالة والإبداع والخلق . فالرجل العبقري إذن يعلو ثم يسفل تبعًا لقيام العبقرية به أو انفكاكها عنه ، وهو يخشب الشعر غالبًا فيرسله من فيض الخاطر كما يجيئ دون تنقيح له ولا تأنق فيه . ثم هو في عظام الأمور سباق وفي محاقرها متخلف . لأن الجليل يوقظ خاطره ويحفز طبعه . والتافه الوضيع ينخزل عن مكانه فلا يبلغ موضع التأثير فيه ، وقد يعنى لسبب من الأسباب بعامي الأشياء أو سوقي الآراء فيبعث فيه من روحه ما يحييه . ومن حرارته ما يقويه . ومن أشعته ما يظهر فيه الطرافة والجدة كما تظهر الشمس كرات التبر في عروق الصخور! فالقريحة كما ترى توجد الصورة ، والعبقرية تبدع المخلوق . ومزية الأولى في الصنعة وتقديرها في التفصيل ، ومزية الأخرى في الابتكار وتقديرها في الجملة . فإذا قرأت قصيدة لذي القريحة راقك منها جرس الحروف ونغم الكلمات واتساق الجمل وبراعة البيت .ولكنك تفرغ منها وليس لها أثر في نفسك ولا صورة في ذهنك . أما العبقريات فحسبك أن تذكر عنوانها لتشعر بها ، وتتصور موضوعها لتتأثر منها .

ذو القريحة يقول مايقول الناس ، ولكنه يصوره بقوة ويؤديه بدقة وينسقه بذوق ويهذبه بفن . وذو العبقرية على نقيضه . ينظر ويشعر ويفكر ويقدر على طريقته الخاصة . فإذا وضع خطة أو رسم صورة

أو بحث فكرة أخرجها على طراز فذٍّ فتحسبها مبتكرة وقد تكون مسبوقة ، لأنه استطاع بقوة لحظه ولقانة طبعه أن يريك فروقاً لم ترها ، ويقفك على تفاصيلَ لم تتصورها ، ويفجر لك النهر من حيث لم يستطع غيره أن يفجر الجدول . والرجل العادي ينظر بالعين فكأنه لسطحيته لم ير ! والعبقري يرى باللمح فكأنه لزكانته لم ينظر !

على أن هناك فرصاً للكمال تجتمع فيها على الوئام العبقرية والقريحة ، فيسلم الفنان حينئذٍ من التفاوت القبيح بين إصعاده وإسفافه ، أو بين جيده ورديئه . لأن العبقرية إذا غفت خلفتها القريحة ، والقريحة إذا كبت سندتها العبقرية . على ذلك تستطيع أن تقول إن أبا نواس وأبا فراس والشريف من رجال القريحة ، وإن أبا تمام وأبا العتاهية والمتنبي من رجال العبقرية ، وإن البحتري وابن الرومي ممن جمع في الكثير الغالب بين الموهبتين . وتستطيع كذلك أن تعلل أمثال قول البحتري في أبي تمام : جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه : وقول الأصمعي في أبي العتاهية : إن شعره كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والخزف والنوى ، وقول الثعالبي في المتنبي : كان كثير التفاوت في شعره فيجمع بين الدرة والآجرّة ، ويتبع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء . وقولهم في ابن الرومي : إنه امتاز بتوليد المعنى واستقصائه وسلامة شعره على الطول .

أخطر ببالك بعد ذلك حافظاً تجد أول ما يبهرك منه لفظه

المُونق وأسلوبه المشرق وقافيته المروضة وصوره الأخاذة . فأما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضي في فردياته ، وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته . فحافظ لم يستطع لضيق مضطربه وقصور خياله وضعف ثقافته أن يعنى بغير الشكل والصورة ، وكانت هذه العناية من اليقظة والحرص بحيث لم تغفل عن خلل ولم تعيَ بصقال . فإذا تهيأ للشعر أو للنثر عمد إلى الآراء التي تختلج حينئذ في النفوس وتستفيض في المجامع وتتردد في الصحف فيجمعها في باله ويديرها في خاطره ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ ويسبكها فيجيد السبك ، فتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسقٌ مطرد وأسلوب سائغ وشيءٌ كأنك سمعته من قبل ، ولكن عليه طابع حافظ ووسمه .

وحافظ يتحمل من بناء القصيدة رهقاً شديداً ، لأنه يلدها فكرةً فكرة ، ويبضُّ بها قطرةً قطرة ، ويتصيد المعاني فيقيدها في مفردات أو مقطوعات ، فربما وقع له ختام القصيدة قبل مطلعها ، وعثر على عجز البيت قبل صدره ، ثم يعود فيرتب هذه الأبيات لأدنى ملابسة وأوهى صلة ، وتجيءُ الصنعة البارعة فتخدعك عن الخلل بالطلاء ، وعن التفكك بارتباط الأسلوب .

ثم أخطر ببالك بعد ذلك شوقي تجده غير محدود بالصنعة ولا مقيد بالشكل ، وإنما هو فيضٌ يسخر بالحدود ، ونورٌ ينفذ من الستور وإلهام يتصل باللانهاية ، وشاعر كالمتنبي أو كهوجو يفتح مطلع

القصيدة فكأنما يفتح لك باب السماء! فأنت من شوقي حيال شاعر روحُه أقوى من فنه، وشعره أوسع من علمه، وحكمته أمتن من خلقه، وقدرته أكبر من استعداده، فلا تشك في أنه وسيط لروح خفية تقوده، ورسول لقوة إلهية تلهمه، ثم تفارقه حيناً تلك الروح وتفرق عنه هذه القوة فيعود رجلاً أقل من الرجال، وشاعراً أضعف من الشعراء، فينظم في افتتاح الجامعة ومشروع القرش وما إلى ذلك. فيأتي بما لا وزن له في النقد ولا مساغ له في الذوق.

وشوقي تحت وحي العبقرية يتنزل عليه الموضوع جملة. ثم يشغله عن تفاصيله التفكير في الغاية والتحديق في الغرض فيرسله من فيض الخاطر شعراً متسلسلاً متصلاً تضيق عن معانيه ألفاظه كما تضيق شطئان الرمل عن الفيضان الجائش المزبد.. ومن ثَمّ كان التجديد والتعقيد والتدفق والعمق من أقوى خصائص شوقي. كما كان التقليد والبساطة والكزازة والسطحية، من أبين خصائص حافظ.

وهنا نحجز القلم عن وجهه فلا نمعن في تحليل شاعرينا اليوم. فإن لذلك إبّانه ومكانه، ثم نرسل العين هتانة المسارب أسى على ماض طويل انقطع، ونغم جميل نبدد، وحلم لذيذ نقضى، وكاهنين من كهان عطارد طواهما الخلود، ثم ترك بعدهما رسالة الشعر عرضة للشعوذة والجمود.

مصر: أحمد حسن الزيات

شوقي وحافظ

شوقي شاعرٌ فياض بنفسه ، يداور الحوادث ويأخذ منها ما يدعوه إلى الشعر . ومن خلالها يرى مواقعها وما يمكن أن يستخرجه منها لإرسال حكمةٍ أو ضرب مثل أو التعبير عن إحساس وعاطفة ، ولذلك تجد في شعره ما يرضي كل إنسان ، وما يطمئن إليه كل شخص من أي حزبٍ من الأحزاب على اختلافها .

أما حافظ ، فقد كان أشبه بالوعاء يتلقى الفيض من شعور الأمة وإحساساتها ومؤثراتها في نفسه ، فيمتزج ذلك كله بشعوره وإحساسه القوي ، فيخرج منه القول المؤثر الرنان المتدفق بالشعور وقوةِ العزيمة ، والذي يحسّ كل إنسان أنه صدى حقيقيٌ لما في نفسه .

وكلا حافظ وشوقي يجتمع عنده الاستعداد الكافي لإحكام الأداء وبلاغة التعبير ، غير أن حافظًا كان يضع شعره للقراءة والتفكير ، وكانت شاعرية شوقي أوسعَ مجالاً ، لأنه كما قلت فياضٌ بنفسه يتلقى الوحي من شعوره وإحساسه .

وأستطيع أن أقول : إن المادة اللغوية التي تلقيناها من كلٍّ منهما تنحصر في إعادة الحياة إلى اللغة العربية وفي تهيئة مادةٍ جديدة للسير بها إلى الأمام .

من حديث في مجلة (كل شيء) خليل مطران

حافظ وشوقي

في أقل من ثلاثة أشهر فقدت مصر لسانيها الناطقين ، وفقد الشرق العربي شاعريه العظيمين حافظاً وشوقي ، وكأنما أراد القضاء أن يمهل أمير الشعراء شهرين وبعض شهر ليرثي حافظاً وينصفه بعد موته كما مدحه حافظ وأثنى عليه وأعلن إمارته للشعر في حياته .

فلما قضى شوقي من ذلك حق الوفاء والإنصاف والعدل ألحقه الله بصاحبه في حيث لا تنافس ولا تفاخر ، وفي حيث لا غل ولا حقد ولا مَوْجِدَة . وقد كان شوقي يرجو — كما قال — أن يرثيه حافظ ، ولو قد تأخر حافظ عن شوقي لقال إنه كان يرجو أن يكون السابق وأن يرثيه شوقي . وأمر الله نافذ وكلمة الله هي العليا ، فقد أراد أن يموت حافظ وأن يتبعه شوقي بعد شهرين وبعض شهر ، وأن يفقد الأدب العربي الحديث عَلميه ولسانيه وشاعريه ، وأن ترزأ مصر في ابنيها العزيزين دون أن تجد في أحدهما خلفاً من فقد صاحبه .

ولست أكتب هذا الفصل لأصف حزن مصر أو حزن الشرق العربي على الشاعرين ، ولا لأصور هذه اللوعة التي ملأت عليها قلوب الأصدقاء والأحبة . فقد عرف الناس ذلك حق معرفته وقد كثر الكلام فيه ، وما أظن أن الناس سيفرغون منه قبل زمن طويل . إنما

أريد في هذا الفصل أن أكون مؤرخاً للشعر المصري الحديث ، وأن أكون منصفاً في هذا التاريخ ما وسعني الإنصاف ومدت لي أسبابه وهيئت لي وسائله ، ولعل أول الإنصاف أن أعترف بأني قد عرفت الشاعرين وكان بيني وبينهما ما يكون بين الناس من قرب وبعد ومن مودة وإعراض . وأني لم أكد أشيع كلاً من الرجلين إلى حيث أراد الله له أن يكون ، حتى أخذت نفسي بأن أنسى ما كان بين شخصيهما وبيني من هذه الخصومات الباطلة التي تعرض للناس في الحياة ، وألا أستبقي منها إلا الخير الذي يدعو إلى الحب ويثير في النفس عاطفة الحزن والألم ، ويطلق اللسان والقلب بهذا الدعاء الخالص الصادق البريء الذي نسميه الاستغفار .

فرحم الله هذين الراحلين الكريمين . كلمة أطلقها خالصة قد ملأها البر والحب والوفاء . ولكن حافظاً وشوقي ليسا شخصين فحسب ، وإنما هما شاعران كانا في حياتهما ملكاً خالصاً للنقد ، وهما بعد موتهما ملك خالص للتاريخ . وقد قال النقد فيهما حين ما استطاع أن يقول فعرفا وأنكرا ورضيا وسخطا . ولعل النقد لم يستطع أن يبرأ من تأثير رضاهما وسخطهما ، ولعل النقد أن يكون قد حرص على أن يغيظهما فأسرف في الطعن ، أو على أن يرضيهما فغلا في الثناء . ولعلهما أن يكونا قد رضيا عن ثناء المادح فتلطفا له حتى أغرياه بالغلو في المديح ، أو سخطا على نقد الناقد فتنكرا له حتى أغرياه بالإفراط في اللوم والإغراق في التجريح . وكذلك يعجز الأحياء عن أن ينصف بعضهم بعضاً لأن

شهوات الرضى والسخط وعواطف الحب والبغض وأهواء التعصب والتحزب تفسد عليهم أعمالهم فتدفعهم راضين أو كارهين إلى الغلو حيناً وإلى التقصير حيناً آخر . وإذا لم يستطع الأحياء أن يظفروا من شركائهم في الحياة بالإنصاف والعدل فخليق بالموتى أن يظفروا بهذا العدل وذلك الإنصاف ، لأن الموت ينبغي أن يجب ماقبله وأن يمحو ما في الصدور من غِلٍّ وما في النفوس من مَوْجِدَة وما يتعلق به بعض الناس على بعض من أسباب الخصومة والمنافسة والكيد

وأنا أريد أن أعترف أيضاً بأني كنت أوثر حافظاً على شوقي في حياتهما ، وكنت أختص شاعر النيل من المودة والحب بما لم أختص به أمير الشعراء . لأن روح حافظ وافق روحي ولأن كثيراً من أخلاق حافظ وافق أخلاقي . ولكني على ذلك أريد (وأستعين الله على ما أريد) أريد أن أنسى الآن حبي لحافظ وإيثاري إياه بالمودة الصادقة والحب الخالص ، وأن أجعل الرجلين سواء أمام النقد الأدبي الذي أريد أن أعرض له في هذا الفصل ، وأنا أعلم أن من العسير جداً أن يخلص المؤرخ ومؤرخ الأدب بنوع خاص من عواطفه وشهواته ومن ميوله وأهوائه ومن ذوقه في الأدب والفن ، فهو خليق أن يخضع لهذا كله قليلاً أو كثيراً حين يدرس الشعراء والكتاب ، أو يوازن بينهم أو يحكم عليهم . أعلم أن هذا عسير ولكني أعلم أني سأجد فيه ما استطعت وأعلم بعد ذلك أني إنما ذكرت عواطفي التي كانت تعطفني على حافظ

بالحب والمودة وتصرفني عن شوقي بعض الشيء لتتم أنت ما قد أعجز عنه أنا من الإنصاف ولتمحو أنت ما قد أتورط فيه أنا من الغلو والإغراق

وأنا أشد الناس رثاء للكتاب والشعراء والأدباء وأصحاب الفن الجميل عامة . فحظوظهم سيئة في حياتهم من غير شك ، وقلما ينصفهم التاريخ بعد الموت . هم يثيرون في نفوس الأحياء ضروباً من الحقد وألواناً من الضغينة . هذا ينفس عليهم لأنه لم يوفق إلى حظهم من الإجادة ولم يظفر بمثل ما ظفروا به من إعجاب الناس ، وكان خليقاً أو كان يرى نفسه خليقاً بالإجادة والإعجاب . وهذا يتنكر لهم لأن الحسد قد ركب في طبعه ولأن غريزته قد فطرت على الشر وحب الأذى . وهذا يتنقصهم لأنه لم يفهمهم أو لم يذقهم . ولأن فنهم لم يقع من قلبه موقع الرضى ولم ينزل من نفسه منزلة الموافقة ، وهم يحتملون ذلك ويتعرضون له ويعللون أنفسهم بأن المرء لن يظفر بحقه من الإنصاف والعدل ما عاش ، ولكن التاريخ قائم ينصف المظلوم ويقضي في أمره بالعدل والقسط . يعللون أنفسهم بهذا ويتعزون به عما يلقون في حياتهم من الأذى وما يحتملون فيها من الألم . وهذا خير لأنه يعصمهم من اليأس ويحميهم من القنوط ويذود عنهم عوادي الضعف والفشل . ولكن التاريخ ليس أشد إنصافاً ولا أدنى إلى العدل من آراء الأحياء المعاصرين . لأن الناس دائماً طوع شهواتهم وعبيد أهوائهم . وهم متأثرون بهذه المؤثرات المختلفة التي تضطرهم إلى ظلم الأحياء ولا تعفيهم

من ظلم الموتى . ولقد وجدت شيئاً غير قليل من الألم اللاذع والحزن المضني حين قرأت فصلاً لأناتول فرانس يصور هذا اللون القاتم من يأس الأديب .

كتب أناتول فرانس هذا الفصل حين استقبل الشاعر الفرنسي المعروف لكونت دي ليل في المجمع اللغوي الفرنسي ، وكان هذا الشاعر قد دخل هذا المجمع معيناً لا منتخباً كما هي العادة ، أو قل إن كنت تريد التحقيق دخله بوصية من فكتور هوجو ، أوصى له بكرسيه في المجمع قبل أن يموت ولم يستطع المجمع أن ينكر وصية الشاعر العظيم فأنفذها ، وقبل لكونت دي ليل بين أعضائه مع أنه كان قد رفضه قبل ذلك بإجماع لم يشذ عنه إلا فكتور هوجو نفسه ، وآن موعد استقبال العضو الجديد في المجمع فكتب أناتول فرانس قبل هذا الاستقبال بأسبوع فصلاً لاذعاً في جريدة الطان — تجده في الجزء الأول من الحياة الأدبية — سخر فيه من الشاعر سخرية مرة مضحكة وتنبأ بما سيقوله في خطبته . وأنت قد تعرف أسلوب أناتول فرانس ومذهبه في السخرية والاستهزاء . فلما كان يوم الاستقبال نهض الكسندر دوماس الصغير كما يقولون لاستقباله ، فلم يكن أقل من أناتول فرانس سخرية ولا استهزاء . كان لكونت دي ليل متشائماً ينكر الحياة ويؤثر الفناء فاسمع لخطيب المجمع اللغوي وهو يستقبله ويرحب به كيف يسأله : إذا كنت تكره الحياة فما بقاؤك فيها ؟

وإذا كنت تؤثر الفناء فما إحجامك عنه وامتناعك عليه ؟

وتكلم المستقبل وتكلم العضو الجديد عن فكتور هوجو . فأما العضو الجديد فزعم أن الأجيال المقبلة ستعجب بآثار فكتور هوجو كلها . وأما المستقبل فزعم أن هذه الأجيال ستقضي في هذه الآثار قضاء قاسياً فتقبل منها وترفض . فلما انصرف أناتول فرانس من هذه الجلسة كتب هذا الفصل المحزن الذي أشرت إليه آنفاً والذي أنكر فيه أن تكون الأجيال المقبلة أحق بالإنصاف وأقدر عليه من الأجيال المعاصرة، وانتهى إلى أن فكتور هوجو كان صاحب فن في الألفاظ قليل الحظ من التفكير، فلسفته سخف ، وأنبأنا بأن الذين أعجبوا بفكتور هوجو حياً قد أخذت تخيب آمالهم فيه بعد أن مات . وتنبأ بأن الأجيال المقبلة لن تستبقي من شعر فكتور هوجو إلا شيئاً قليلا .

كذلك كان يتحدث أناتول فرانس وأمثاله عن فكتور هوجو ولما يمض على موته أكثر من عامين . أرأيت حظ الأدباء يتعرضون لسخط الأحياء ويصلون نار النقد ما عاشوا ، فإذا ماتوا فإما أن يتعرضوا للنسيان وإما أن يتعرضوا للظلم والجور ، وقليل منهم من ينصفه التاريخ فيعرف له مكانته وحقه من الإعجاب .

ما أجدر الذين ينقدون الأدباء أحياء ويؤرخونهم بعد الموت أن يكونوا رحماء لولا أن العلم لا يعرف الرحمة وهو يخشى على نفسه الفساد إن طمع فيها أو اطمأن إليها . ليس للأديب أمل في الإنصاف

فليتخير بين حياة خيرها شر وحلوها مر ، وبين الإعراض عن الأدب والانصراف عنه إلى غيره من فنون الحياة ٠

٣ — كيف تطور الأدب حتى استقر في مصر

ظهر الشعر العربي حين عرفه التاريخ في نجد لا يكاد يتجاوزه إلى الحجاز أو إلى العراق إلا قليلاً حين يرتحل الشعراء غرباً إلى الأسواق والحج ، أو شرقاً إلى أمراء الحيرة ٠ وربما زار شعراء نجد أمراء غسان في أطراف الشام مما يلي جزيرة العرب ٠ فلما ظهر الإسلام وانبسط سلطانه على الأرض ظلت دوحة الشعر في نجد ومدت ظلها إلى العراق شرقاً وإلى الحجاز غرباً ٠ ولكنها لم تمد هذا الظل إلى الشام ولا إلى مصر ، ولم تتجاوز به العراق إلى فارس وما يليها من بلاد الشرق ٠ وإنما كان شعراء نجد والعراق والحجاز يفدون إلى الشام وفوداً يمدحون الخلفاء ويأخذون جوائزهم ، وربما وفدوا إلى مصر يمدحون أمراءها ٠ وربما دفعت الأحداث بعضهم إلى خراسان ٠ ولكن الشعر العربي لم يستوطن شرقيّ الدولة الإسلامية ولا غربيها ٠ ولم يتجاوز الجزيرة العربية إلا إلى العراق الذي كان يعد جزءاً منها أو كالجزء ٠ فلما أديل لبني العباس من بني أمية نشأ في العراق شعر لم يثبت له شعر نجد ولا شعر الحجاز ، فاستأثر العراق بالشعر طوال القرن الثاني وظلت بلاد الشام ومصر كما كانت يزورها الشعر ولا يستقر فيها ٠ ثم ظهر في الشام شعر شامي مثله أبو تمام ، وأخذ الشام منذ ذلك الوقت بحظه من الزعامة في

الشعر . وكان القرن الرابع وكانت دولة الحمدانيين وكان سيف الدولة فاستأثر الشام بما كان العراق قد استأثر به في القرن الثاني وبما كان موزعاً بين العراق ونجد والحجاز في القرن الأول وبما كان نجد قد استأثر به قبل ظهور الإسلام . وظلت مصر طوال هذه القرون ضعيفة الحظ من الشعر ضعيفة الحظ من الأدب كله ، يفد أهلها إلى الحجاز أو العراق أو الشام فيصيبون من ذلك حظاً ، وقد ينتقل إليهم نفرٌ من أدباء الحجاز أو العراق أو الشام فيلمون إلماماً أو يطيلون المقام ولكن لم يكد يضعف أمر العباسيين في العراق والشام ولم تكد تظهر القوة السياسية لمصر أيام الفاطميين حتى أخذ كل شيءٍ يدل على أن القاهرة تتهيأ في القرون الوسطى لما تهيأت له الإسكندرية في العصر القديم . تتهيأ لإيواء الحضارة الإسلامية بما فيها من علم وأدب وفن وفلسفة ودين ، كما تهيأت الإسكندرية لحماية الحضارة اليونانية . تتهيأ لتكون قبلة الشرق الإسلامي كما تهيأت الإسكندرية لتكون قبلة الشرق الوثني والمسيحي . وتم لها ذلك لسوء حظ الإسلام والأدب العربي . كانت العجمة والجهل يدفعان الأدب العربي من الشرق إلى مصر ، وكانت المسيحية والجهل يدفعانه من الغرب إلى مصر . وكانت مصر ثابتة باسمةً تستقبل ما يأتيها من الشرق وتستقبل ما يأتيها من الغرب فتؤويه وتحميه وتحوطه وتتيح له أن يحيا ويثمر ، وكذلك ظلت مصر رافعة لواء الحياة الإسلامية والأدب العربي تظلّ به العلماء والأدباء ، حتى كان سلطان الترك العثمانيين وإغارته على كل

شيء وإفساده لكل شيء وقضاؤه على حضارتين في أقل من قرن ، على الحضارة الإسلامية في مصر ، وعلى الحضارة البيزنطية في قسطنطينية . فأما الحضارة البيزنطية فقد هربت جذوتها من الترك إلى إيطاليا حيث أشعلت أوربا كلها فأحيتها . وأما الحضارة الإسلامية فلم تمعن في الهرب ولم تعبر البحر ، ولكنها اختبأت في الأزهر إلى أن يأذن الله لها أن تخرج منه فتشعل الشرق وترد إليه الحياة .

وكذلك ظل في مصر شعر وأدب كما ظل في مصر علم وفلسفة . . وأنا أعلم أن الشعر المصري طوال هذه القرون لا يستطيع أن يثبت لشعر نجد والحجاز والعراق والشام ، ولكنه على كل حال شعر كان يقال ويتأرج عبيره ويرف نسيمه فيحيي النفوس والقلوب في عصر ماتت فيه النفوس والقلوب أو كادت تموت . وأنا أعلم أن الشعر المصري في ذلك الوقت كان ضئيلاً نحيفاً خفيف النفس لا يكاد يسمع صوته ، ولكنه على كل حال كان شعراً حياً يمثل أمة حية ويعطف على شعوب بائسة . لجأت آلهة الشعر إلى مصر فاستظلت بظلها واطمأنت إلى هذا النسيم العليل الذي كان ينبعث من ضفاف النيل فيحفظ عليها ما كان قد بقي فيها من رمق . وأراد الله أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية إلى التخلص من سلطان الترك قليلاً أو كثيراً . وأراد الله أيضاً أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية إلى تنظيم العلاقات بينها وبين أوربا . وكان من ذلك أن سبقت مصر غيرها من البلاد

الشرقية إلى النهضة الأدبية. وكان من ذلك أن خرجت تلك الجذوة التي كانت مختبئة في الأزهر فلقيت بونابرت وأصحابه. ولم تلبث أن تبعتهم إلى أوربا. فأقامت ما شاء الله أن تقيم ثم عادت قوية ملتهبة ولم تعد وحدها بل عشقها كثير من الأوربيين فتبعوها واستقروا معها في مصر يحيونها وتحييهم. يبعثون فيها القوة والنشاط وتفتح لهم أبواباً من العلم والفن لم تكن لتفتح عليهم لولا أن اتصلوا بها واتصلت بهم. وكذلك ظلت القاهرة في العصر الحديث كما كانت في القرون الوسطى ملجأ الحضارة الإسلامية وميدان الالتقاء والاتصال بينها وبين الحضارة الأوربية. ويجيء عصر إسماعيل فإذا تياران مختلفان يتنازعان مصر، أحدهما يأتي من أوربا في كتب العلم والأدب التي يحملها الوافدون وينقلها المبعوثون فلا تلبث أن تدرس وتترجم، والآخر يأتي من القاهرة نفسها، يأتي من المساجد والأضرحة ودور الأعيان والأغنياء، يخرج من مستقره مجلدات نحيفة أو ضخمة قد علاها الغبار وعبث بها البلى. ولكنه لا يكاد يصل إلى بولاق أو إلى غيرها من أحياء القاهرة حيث استقرت المطابع حتى يستحيل فإذا هو سيل غزير قوي عنيف فيه كثير من الصفو وفيه قليل من الكدر. ويلتقي التياران في عقول الشباب المصري، في الأزهر حيناً وفي المدارس المدنية حيناً آخر، فينتج من التقائهما هذا الجيل الأدبي الجديد الذي ظهر على رأسه البارودي، والذي نشأ في حجره شوقي وحافظ في الثلث الأخير من القرن الماضي.

٣ — نشأة الشاعرين وبيئتهما

وقد تقارب مولد الشاعرين ، ولد أحدهما (شوقي) سنة ١٨٦٨ وولد الآخر (حافظ) سنة ١٨٧١ تقارب مولدهما في الزمان ولكن نشأتهما اختلفت أشد الاختلاف ، ولد أحدهما بباب إسماعيل حيث البأس والعزة ، وحيث الغنى والثروة ، وحيث الترف والنعيم ، وحيث هذه العناصر الكثيرة المتباينة التي تبعث الحياة في ناحية من أنحاء النفس ، وتبعث الموت منها في ناحية أخرى ، وحيث هذا الاعتزاز بالنفس والازدراء للشعب ، وحيث هذه الأثرة التي تخيل إلى صاحبها أن كل شيء مسخر له ، وأنه هو لم يسخر إلا ليستأثر بنعيم العيش .

وولد الآخر في ناحية مظلمة متواضعة من نواحي مصر ، في أسرة مصرية لا حظ لها من غنى ولا ثروة ، لا نصيب لها من بأس ولا سلطان ، أسرة من هذه الأسر التي تمتلئ بها مدن مصر وقراها ، والتي تعودت منذ أيام المماليك أو قبل أيام المماليك أن تشقى ليسعد غيرها ، وأن تعمل ليكسل غيرها ، وأن تتألم في صمت وتحتمل المكروه في صبر وإذعان . ولكن أمر هذه الأسر كان قد أخذ يتغير في هذا الوقت . فأتيح لهذه الظلمة التي كانت تغمرها وتحيط بها أن تنقشع عنها بعض الشيء ، وأتيح لهذا الشعور الذي كان مفلولاً أن يجد شيئاً من الحدة ، وأتيح لهذا العقل الذي كان مغلولاً أن ينطلق من عقاله بعض الشيء .

نشأ شاعرنا الأول في بيئته تلك فذهب إلى الكتاب ثم إلى المدرسة، ونشأ شاعرنا الآخر في بيئته هذه فذهب إلى الكتاب ثم إلى المدرسة، كانا جميعاً يلقيان الفقيه في الكتاب والمعلم في المدرسة، ولكن كلاً منهما كان يعود إلى بيئته الخاصة. فأما شوقي فقد كان يجد من بيئته الأرستوقراطية ما يضعف في نفسه أثر الكتاب والمدرسة. وأما حافظ فقد كان يجد من الفقيه والمعلم صدى لحياة أسرته الخاصة. ومن هنا كانت نفس شوقي أرستقراطية رغم ديموقراطية الكتاب والمدرسة، وكانت نفس حافظ ديموقراطية خالصة.

وجهت الظروف حافظاً نحو الحرب، ووجهت السياسة شوقي نحو القصر. والتقى الشاعران آخر القرن الماضي في ميدان واحد هو ميدان الشعر. وكان أحدهما قد تعلم ولكن في عزة ونعيم، وارتحل ولكن إلى حيث اللهو واللذة، وإلى حيث العلم والأدب والفن، وإلى حيث الطبيعة المبتسمة والجمال المضيء، وكان الآخر قد تعلم ولكن في فقر وبؤس، وارتحل ولكن إلى حيث الكد الذي لا يفيد والعناء الذي لا يغني، إلى حيث الشمس المشرقة أبداً المحرقة أبداً، إلى حيث الطبيعة المظلمة، إلى حيث الجمال الجافي الغليظ إن صح أن يكون الجمال جافياً غليظاً، إلى حيث الجهل الذي لا غور له والظلمة التي لا يتميز فيها شيء. مضى كل من الشاعرين في طريقه. هذا مبتسم سعيد يتغنى، وهذا مكتئب محزون يشكو. ثم عاد كلٌّ من الشاعرين إلى القاهرة، فأما أحدهما

فإلى حيث كان ينتظره المنصب واللقب والثروة والترف وفراغ البال، وأما الآخر فإلى حيث كانت تنتظره البطالة والشوارع والقهوات المنحطة والفقر والشظف وسوء الحال، وهذا الهم الثقيل الكالح الذي يضاجع الفقير إذا أوى إلى سريره، ويكشر له عن أنيابه إذا أراد أن ينظر إلى وجه الصبح. ثم يجالسه على مائدته المتواضعة ويعينه على أن يلبس ثيابه الرثة ويرافقه حيث ذهب ويرافقه حيث جاء، ويبعث في صوته مهما يكن حلواً عذباً رنةً حزينة مظلمة. ويلقي على نفسه مهما تكن صافية غشاء مظلماً مفسداً لصور الأشياء والناس جميعاً.

نعم عاد الشاعران إلى القاهرة في هذه الحال واستقبل كل منهما أهل القاهرة بما أمكن أن تتغنى به نفسه من الشعر. وسمع أهل القاهرة غناء حافظ وغناء شوقي فأعجبوا بشوقي وأحبوا حافظاً. وكذلك انتقل إعجاب القاهرة بشوقي إلى أهل مصر ثم إلى أهل الشرق العربي، وانتقل حب القاهرة لحافظ إلى أهل مصر ثم إلى أهل الشرق العربي. ثم مات حافظ فحزنت عليه مصر والشرق حزن المحب، ومات شوقي فحزنت عليه مصر والشرق حزن المعجب.

٦ — شوقي وحافظ في مستهل حياتهما — معاملتهما للنقاد

كنت مرة عائداً مع الأستاذ لطفي السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقي. وكنا نتحدث في أمر الشاعرين فقال لطفي بك: « لقد خدعني حافظ عن نفسه كما خدعني

شوقي عنها . كنت ألقى حافظاً أول عهـده بالشعر وكان يسمعني كثيراً من شعره فلا يعجبني فقلت له ذات يوم: أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله لتكون شاعراً ولكنه لم يقبل نصحي وحسناً فعل، فما زال يجد ويكدح حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعراً . وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقي أقرأه في لذة تكاد تشبه الفتنة وأثني عليه كلما لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر في تعهد شعره حتى ساء ظني بشعره الأخير ».

كذلك كان يتحدث إلي الأستاذ لطفي السيد في حافظ وشوقي وكذلك يتحدث إلي ديوان حافظ وديوان شوقي . لا أكاد أبدأ الجزء الأول من ديوان حافظ حتى أجد تلميذاً ضعيفاً شديد الضعف، مضطرباً عظيم الاضطراب ، مقلداً مسرفاً في التقليد . ولا أكاد أقرأ الديوان القديم لشوقي حتى أجد طبيعة خصبة وقلباً فطر على الذكاء وخيالاً حرًّا أريد له أن يكون مطلقاً فأبت له البيئة والظروف إلا أن يكون مقيداً مغلولاً . ومن الغريب أنك تقرأ الديوانين فترى حافظاً يقلد ويشعر بأنه مقلد ويلتمس الإجادة في هذا التقليد نفسه ولا يتحرج من إعلان ذلك إلى الناس بل لا يتحرج من التمدح به .

وتقرأ ديوان شوقي فترى شوقي يبتكر أو يحاول أن يبتكر . وهو يشعر بذلك ويعلنه إلى الناس ويتمدح به ، ولكنك تجد في هذا نفسه عنصر الفساد الذي سيقص من جناح شوقي ويضطره إلى أن يكون

أشبه بالطيور الداجنة منه بالطيور التي تسبح في الهوآء ما اتسع لها الجو . نقرأ مقدمة حافظ لديوانه فإذا هو يحصر مثله الأعلى في محاكاة الشعرآء المتقدمين من شعرآء العصر الأموي والعباسي ، ونقرأ مقدمة شوقي فإذا هو يلم بالشعرآء المتقدمين إلماماً ويعجب بهم إعجاباً لا يخلو من التحفظ ولا يبرأ من التردد ، ويعلن إعجاباً عريضاً بالأدب الأوربي وينبئنا بأنه مجدد لا يقلد إلا كارهاً ، ولكنه ينبئنا في الوقت نفسه بأنه قد وضع لنفسه في حياته الأدبية قاعدة ذكرها نثراً في هذه المقدمة وذكرها شعراً في الديوان حيث يقول :

إن الأراقم لا يطاق لقاؤها   وتنال من خلف بأطراف اليد

فهو لا يستقبل التجديد ولكن يستدبره . وهو لا يدخل البيوت من أبوابها ولكن يأتيها من ظهورها . وهو لا يجدد في صراحة وشجاعة وثبات للخصوم ولكنه يجدد في لباقة ومداورة والتوآء على المناهضين . وكأن هذه القاعدة قد صيغت من طبع شوقي فسيطرت على حياته الأدبية وسيطرت على حياته الشخصية أيضاً ، فهو لم يواجه الناس بتجديد عنيف في الأدب قط ، وهو لم ينهض لخصومة ناقد من نقاده ، بل لم يجرؤ على أن يلقى نقاده بالعتب ، وإنما كان يعاملهم معاملة الأراقم لا يلقاهم ولكنه يأخذهم من خلف بأطراف اليد . يغري بهم ويؤلب عليهم ثم يلقاهم باسماً وادعاً ، ولا يتحرج من زيارتهم واستزارتهم كأنهم أحب الناس إليه ، ولم يكن له في حياته اليومية عدو ظاهر إنما الناس

جميعاً أصدقاؤه وخلصاؤه ، يظهر لهم صفحة واضحة نقية ، ومن وراء هذه الصفحة صفحات بيض وصفحات سود . تلقاه في الجهاد وتلقاه في الاتحاد وتراه في السياسة وتراه في الأهرام وتراه في بار اللواء وتراه في (البعكوكة) هادئاً دائماً لا يضطرب منخفض الصوت قلما تسمعه دون إصغاء إليه .

كانت هذه القاعدة صورة لطبيعته ، وأي غرابة في هذا ؟ لقد ولد بباب القصر ونشأ في ظل القصر وقضى شبابه وكهولته عاملاً في القصر . وفي القصر حين كان سلطان القصر مطلقاً أو كالمطلق ، ثم حين كانت حياة القصر مداورة مستمرة بين الشعب الطامع بالحرية والانكليز المعتدين عليها . فليس غريباً أن يكسب شوقي في حياته الأدبية والشخصية هذه السياسة التي تحمي صاحبها وتضمن له الظفر والسلامة معاً .

وعلى عكس هذا كان حافظ أقل الناس حظاً من المهارة ، وأيسرهم نصيباً من المداورة ، وأعظمهم قسطاً من الصراحة ما وسعته الصراحة ، فإن ضاقت به فالخوف الصريح والإشفاق الذي لا غبار عليه .

لقيته مرة عند صاحب الدولة محمد محمود باشا فأنشدني شعراً له يمدح به صاحب الدولة ويثني فيه على جهوده وبلائه في مفاوضة الانكليز . وكنت أعرف منه هذا الضعف وأحب أن أداعبه . فقلت له والرئيس يسمع ومن حوله جماعة من الأحرار الدستوريين : « ما أجمل هذا الشعر وما أقواه » :

قال : « أتسمعون ؟ سجلوا عليه فإنه خليق بعد ذلك أن ينقدني »
قلت : « اشهدوا علي أني مستعد للثناء على حافظ في غير تحفظ إذا نشر هذا الشعر »

قال مقهقهاً : « أذممني ما شئت في غير تحفظ فلن أنشر هذا الشعر لأني لا أريد أن أحال على المعاش الآن » قلت : « فإني سأنشر فصلاً عنك كله ثناء وسأستشهد ببعض هذا الشعر » وكنت قد حفظت منه شيئاً . قال : «ولا هذا أيضاً» وقضى المجلس وقتاطو يلاً في الضحك من إشفاق حافظ .

وكذلك كان حافظ مع النقاد يخافهم كما كان يخافهم شوقي ، ولا يتبت لخصومتهم كما لم يكن شوقي يثبت لخصومتهم . ولكنه لم يكن يغري بهم أحداً ، ولا يؤلب عليهم أحداً ، ولا يأخذهم من خلف بأطراف اليد . وإنما كان يعبث بهم إذا تحدث إلى أصحابه ويعبث بهم إذا لقيهم ويتلطف لهم في كل حال .

كان شوقي مجدداً ملتوي التجديد وكان حافظ مقلداً صريح التقليد . ويمضي الزمن على حافظ وشوقي فإذا تقليد حافظ يستحيل – لا أقول إلى تجديد بل أقول إلى نضوج غريب وقوة بارعة وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضاً . وإذا تجديد شوقي يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد ، حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء لا يتستر فيه ولا يحتاط . ينشئ

القصيدة ، فلا تحتاج إلى تعب أو مشقة لتجد القصيدة القديمة التي يحاكيها . سمِّ هذا معارضة أو محاكاة أو تقليداً فذلك عندي سواء لأنه ينتهي إلى نتيجة واحدة وهي أن الشاعر قد رجع إلى القدماء يلتمس عندهم مثله الأعلى . ومع ذلك فمن الخير أن نتعرف طبيعة الشاعرين ومزاجهما الفني والينبوع الذي كانا يستقيان منه .

٥ — طبيعة حافظ وما ظفر به من ثقافة

فأما طبيعة حافظ فيسيرة جداً لا غموض فيها ولا عسر ولا التواء . وهذا اليسر هو الذي يحببها إلينا وهو الذي يجعلها في الوقت نفسه فقيرة قليلة الحظ من الخصب والغنى . حافظ تلميذ صريح للبارودي قلده منذ نشأ ، ثم تشجع فقلد المتقدمين الذين كان يتأثرهم البارودي نفسه . وكما كان علم البارودي بالأدب محدوداً لا يتجاوز الأدب القديم يحفظه وقلما يفقه عميقه ، فقد كان علم حافظ محدوداً كذلك . كان حافظ يلم بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهماً . ستقول ولكنه ترجم البؤساء واشترك في ترجمة كتاب في علم الاقتصاد مع صديقه مطران . وهذا حق فقد ترجم البؤساء أو مقداراً من البؤساء ولكن في أي مشقة ومع أي جهد . رحم الله حافظاً لقد لقي في ترجمة البؤساء عناء عظيماً ، عناء في الفهم وعناء في استشارة المعاجم وعناء في الصيغة العربية نفسها . وكثيراً ما كان حافظ يعجز عن فهم فكتور هوجو فيقيم نفسه مقامه ويعوضنا من معنى الكاتب الفرنسي لفظه هو بما فيه من جمال وجزالة وروعة .

أما كتاب الاقتصاد فسل صديقه مطران ينبئك بالخبر اليقين . لم يستفد حافظ إذاً لأدبه وشعره من اللغة الفرنسية شيئاً يذكر . فهو غير مدين لأوربا بشيء من أدبه . ثم لم يكن حافظ فقيهاً بالأدب العربي إذا توسعنا في معنى هذا الأدب . لم يكن يحسن علوم العرب ولا فلسفتهم بل لم يكن يعرف من هذه العلوم والفلسفة شيئاً . إنما كانت ثقافته من كتاب الأغاني ودواوين الشعراء وكان يفهم الأغاني والدواوين بقدر ما يستطيع ، فيصيب كثيراً ويخطئ أحياناً . ويكفي أن تقرأ مقدمة ديوانه وتراه يزعم أن السفاح قد أفنى أمةً بأسرهــا لبيتين من الشعر قالهما سديف لتعلم إلى أي حد بلغت ثقافة حافظ ، فلم يفن السفاح أمةً وإنما نكل بالأسرة الأموية تنكيلاً شديداً . لم يفنها ولم يبدها . ولكن حافظاً كان يظن في أول هذا القرن أن إفناء الأمويين إفناء لأمة .

غنيت ذاكرة حافظ ولكن عقله ظلّ فقيراً فاعتمدت شاعريته على الذاكرة من جهة وعلى الحياة المحيطة به من جهةٍ أخرى . استمــدت موضوع شعره من هذه الحياة واستمدت صورة شعره من تلك الذاكرة . وكانت ثقافة حافظ العقلية محدودة فلم ينفذ عقله إلى طبائع الأشياء ولم يصل إلى أسرارها ، فعجز عن إجادة الموضوع ، ولكن ذاكرته كانت قويةً جداً وكان حظه من الحفظ غريباً ، وكان قد ابتكر لنفسه سليقةً عربيةً أو قل سليقةً أعرابيةً فأتقن الصورة وبرع فيها ، وكان أقرب تلاميذ البارودي إلى البارودي .

تجد هذا الشعور حين تقرأ الفنون الشعرية التي برع فيها حافظ حين تقرأ رثاءه وشكواه للزمان وتصويره للسياسة والاجتماع . لن تجد في هذا الشعر عمقاً ولئن حللته وأخرجته من صورته الرائعة فلن يترك في نفسك أثراً ولكنك واجد في صورته نفسها ، في الألفاظ التي يتخيرها الشاعر ، في الأسلوب الذي يلائم به بين هذه الألفاظ ، ما يملأ نفسك لوعةً وحزناً وحباً وإعجاباً . كانت نفس حافظ بسيطة يسيرة لا حظ لها من عمق ولا تعقيد ، وكانت لهذه الخصال نفسها محببةً إلى النـاس مؤثرة فيهم . وكان شعر حافظ صورة صادقة لهذه النفس البسيطـة اليسيرة فأحبوه كما أحبوا مصدره وأعجبوا به كما أعجبوا بينبوعه

ولما كانت نفس حافظ في جوهرها نفساً مصرية كانت قطعة من هذه النفس المصرية الإسلامية التي تجد بساطتها وسذاجتها في كل أثرٍ من آثار المصريين المسلمين ، فلم لا يحبها الناس وإنما يرون فيها أنفسهم ؟ ولم لا يعجب بها الناس وإنما ينظرون فيها إلى صورهم تعكسهـا مرآة صافية وضيئة نقية لا يشوبها صدأ ولا يغشاها غبار .؟

٦ — حظ شوقي من الثقافة وما جره عليه ذلك في فنه

هذه طبيعة حافظ يسيرة كما ترى . أما طبيعة شوقي فشيءٌ آخر . معقدة ينبئنا شوقي نفسه بتعقيدها . فيها أثر من العرب وأثر من الترك وأثر من اليونان وأثر من الشركس . التقت كل هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقي ، فكانت هذه النفس

بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأناها عن السذاجة ، وهي بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشد مايكون الخصب ، غنية كأوسع مايكون الغنى . ثم لم تكد هذه النفس الخصبة الغنية المتوقدة تتصل بالحياة حتى لقيت من حوادثها وتجاربها ومن كنوزها وغناها ما يزيدها خصباً إلى خصب وثروةً إلى ثروة .

كان شوقي يحسن التركية وكان متقناً للفرنسية قد برع فيها نطقاً وفهماً . وكان في أول أمره كثير القراءة حريصاً على الفهم ، فقرأ كثيراً وفهم كثيراً وتمثلت نفسه ما قرأ وما فهم ، وانضم إلى هذه العناصر التي كانت تركب طبيعته عنصر جديد هو العنصر الفرنسي الذي عمل في عقله وخياله ومزاجه كله ، ونمت العناصر الأخرى بالقراءة وبالحياة . عاشر شوقي العرب في شعرهم وأدبهم فعظم حظه من العربية ، وعاشر الترك في حياته اليومية واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركي فيه . ولسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقي قدماء اليونان كما عاشر قدماء العرب ، ولو قد فعل لأهدى إلى مصر شاعرها الكامل .

كان شوقي في أول أمره مثقفاً يحب الثقافة ويشتد في طلبها والتزيد منها ، ولكنه كان كغيره من الشبان المصريين يسيرون في الدرس والتحصيل على غير هدى . ولا سيما حين يدرسون في أوربا ، لا يقرأون من الأدب الفرنسي مثلاً إلا ما لا بد للرجل المثقف من قراءته من هذه الآثار العليا التي فرضت نفسها على الناس فرضاً ، فأما التأنق في

الثقافة والتماس الترف في الأدب فلا حظ لهم منه وكذلك كان شوقي حين ذهب إلى فرنسا آخر القرن الماضي . إذا ذكر الشعر الفرنسي ذكر لمرتين وبحيرته التي ترجمها إلى العربية ، أو ذكر لافونتين وأساطيره التي قلدها في العربية ، وإذا ذكر الفلسفة ذكر جول سيمون . ومن المحقق أن آثار لمرتين ولافونتين آيات في الأدب الفرنسى وأن فلسفة جول سيمون لها قيمتها . ولكنك لا تلاحظ أن شوقي يذكر بدلير أو فرلين أو سولي بريدوم أو مالرميه من الشعراء الفرنسيين ، ولا تراه يذكر تين أورينان أو برجسن من الفلاسفة ، ذلك لأنه لم يكن يسير في ثقافته على هدى ، وإنما كان يأخذ من الأدب الفرنسي أيسره وأدناه إلى متناول اليد . وكذلك كان تجديد شوقي متأثراً بهذا الحظ من الثقافة الفرنسية أي إنه كان يتأثر بالقديم الفرنسي أكثر مما كان يتأثر بالجديد . ولو قد اتصل شوقي بالمجددين الذين عاصروه في شبابه من شعراء الفرنسيين لسلك شعره سبيلاً أخرى ، ولكنه لم يفعل ، ولكنه لم يطلق لطبيعته على ماهي عليه حريتها ، بل قيدها وردها كارهة على أن تتأثر في إنتاجها الأدبي بسياسة القصر حينئذ وما كان يحيط به من الظروف . ولو قد أطلقها أو أرسل لها العنان بعض الشيء لغيرت حياة الشعر العربي الحديث . ولست في حاجة إلى أن أتكلف المشقة في الاستدلال على ذلك . فقد كانت طبيعة شوقي من الخصب والقوة بحيث لم تكن تذوق أثراً أدبياً يمكن محاكاته إلا حاولت هذه المحاكاة

وجدت فيها. وكانت توفق أكثر الأحيان في هذه المحاكاة توفيقاً عظيماً. فلو أن شوقي قرأ الإلياذة والأودسة كاملتين وفهمهما حق الفهم وأطلق لنفسه حريتها لحاول أن ينشئ الشعر القصصي في اللغة العربية، لا أقول على نحو ما كانت الإلياذة والأودسة من الطول ولكن على نحو ما كانت الإلياذة والأودسة من الفن. ولو أن شوقي قرأ تمثيل اليونان وتمثيل المحدثين وأطلق لطبيعته حريتها لعُني بالتمثيل شعراً ونثراً في شبابه، ولأعطى اللغة العربية من هذا الفن حظاً له قيمةٌ صحيحةٌ. ولو أنَّ شوقي قرأ شعر الشعراء الفرنسيين الذين عاصروه في شبابه، ولو أنه اختلف إلى أنديتهم في باريس حين كان يقيم فيها (ولم تكن أنديتهم مغلقة) لتغير مثله الأعلى في الشعر، ولما نظر إلى القدماء من العرب ولا إلى لمرتين ولافونتين وأضرابهما من الفرنسيين إلا كما ينبغي أن ينظر إليهم الشاعر الحديث، أي من حيث أنهم يكونون أصل الثقافة ومن حيث أنهم يمتعون القارئ باللذة الفنية، لا من حيث أنهم المُثُل العليا للشاعر في هذه الأيام. ولكن شوقي قصر بنفسه عن هذه المنزلة أو قصرت به الظروف، إما لأنه لم يقرأ كما كان ينبغي أن يقرأ وإما لأنه لم يعمل كما كان ينبغي أن يعمل، تقصير في القراءة ومجاراة الإنتاج الأدبي الأجنبي من جهة، وتفريط في ذات الحرية الأدبية وخضوع لأحكام السياسة من جهةٍ أخرى. هاتان الخصلتان هما اللتان قصتا جناحي شوقي فلم يستطع أن يرتفع إلى حيث كانت تعده طبيعته من

سماء الشعر والخيال . وأغرب من هذا وأبلغ في الحزن والأسى أن هذه الطبيعة البارعة التي لم تعرف مصر مثلها في عصرها الإسلامي العربي، والتي لم يعرف التاريخ الأدبي العربي مثلها منذ كان أبو العلاء لم توجه إلى فهم الآيات الأدبية الخالدة في الآداب الأجنبية، ولم تتعمق في درسها واستكشاف أسرارها كما ينبغي . وإنما علم شوقي بهذه الآيات العليا من آداب اليونان والرومان والفرس والأوربيين على اختلافهم كان ضئيلاً رقيقاً لا هو بالعريض ولا هو بالعميق . كان شوقي يجهل حقيقة هذه الآيات، فإذا عرف شيئاً منها فإنما يعرفه بالشهرة وعلى نحو ما يتعلم الناس الذين يكتفون بدوائر المعارف أو بما يكتب للطلاب في الكتب المدرسية ، وليس هناك دليل على ذلك أوضح من هذه القصيدة التي أنشأها شوقي في شكسبير ونشرها في الجزء الثاني من ديوانه صفحة (٥)، فأقل ما يحسه قارئها أن شاعرنا لم يعلم من أمر شاعر الإنجليز إلاّ شيئاً ضئيلاً جداً يعرفه المثقف العادي ، وهو على كل حال لم يفهم روح شكسبير ولم يتمثله ولم يحسن بل لم يحاول تصوير هذا الروح . وكل ما في القصيدة مدح لإنجلترا أول الأمر، ثم ثناء على شكسبير غريب، يشبه فيه أبيات شكسبير بالآيات المنزلة ، ويشبه معاني شكسبير بعيسى . ولست أدري ما هذا الحسن المشترك بين معاني شكسبير وبين المسيح . بل لست أدري كيف يذكر شكسبير المتأثر بوثنية القدماء وآداب الشمال الأوربي إلى جانب المسيح ، وكيف يشبه أدب شكسبير

بالإنجيل . إنما هو كلام يقال ويعتمد صاحبه على أن الذين سيقرأونه ستروعهم الألفاظ دون أن يبحثوا عن المعاني لأنهم لا يعرفون من أمر شكسبير ولا من أمر المسيح والإنجيل شيئاً كثيراً . ثم يقول شوقي إن قصص شكسبير تمثل الحياة ، وكل مثقف يعرف هذا ويقوله ، بل كل مادح لشاعر من الشعراء الممثلين يقول فيه هذا بالحق حيناً وبالباطل أحياناً . ثم يتجه شوقي إلى شكسبير فيسأله أسئلة عادية قد ألفها الناس منذ قرأوا رثاء أبي العلاء وعرفوا تصويره لبلى الأجساد في القبور ، ثم يطلب إلى شكسبير الذي أجرى الدم أنهاراً في قصصه أن ينهض ليرى كيف جرى الدم بحاراً في ظل الحضارة الحديثة ، ويذم الحرب كما يذمها كل إنسان ، هذا علم شاعرنا بشكسبير وهذا تصوير شاعرنا له ورأيه فيه .

وأين يقع هذا كله من آراء الشعراء الفرنسيين والألمان المحدثين في شكسبير ؟ وإني لأعرف محاورات لجوت حول بعض القصص التي تركها شكسبير ، حول هملت مثلاً في ولهلم مايستر ، لا يذكر معها ما قاله شوقي من الشعر . ومع ذلك فقد كان من الحق على شاعرنا أن يكون علمه بشكسبير أوضح من علم الألمان والفرنسيين به في القرن الثامن عشر . لأن فقه هذا الشاعر العظيم قد تقدم في قرن ونصف قرن تقدماً عظيماً . ومثل هذا ما يقال في علم شاعرنا بأفلاطون وأرسطاطاليس . وقد لاحظت قديماً أن شوقي أراد أن يثني على الأستاذ لطفي السيد حين ترجم كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس

فنسب إلى المعلم الثاني آراء أستاذه أفلاطون ، لأنه لم يقرأ هذا ولا ذاك، وإنما عرف أطرافاً من فلسفة هذا وذاك في دوائر المعارف وفي الكتب المدرسية . هذا التقصير في الدرس والتحصيل ، وهذا الكسل العقلي أصاب شوقي وأصاب حافظاً وقصر بالشاعرين عن المكانة العليا التي كانا خليقين أن يبلغاها بطبيعتيهما القويتين . وكثيراً ما نعيت عليهما ولومتهما في ذلك . ولكن حظ شوقي من هذا التقصير أعظم من حظ حافظ ، لأن شوقي هيء له من وسائل الثقافة العربية والأجنبية مالم يهيأ لحافظ كما رأيت، ولأن شوقي هيء له من النعيم وأسباب الترف والراحة ما كان يستطيع معه أن يفرغ للدرس ساعات من نهار بين حين وحين . على حين حرم حافظ كل شيء أو كاد يحرم كل شيء، وعلى حين لم يكن حافظ يزعم لنفسه ما كان يطمح إليه شوقي من مكانة ومنزلة في الشعر .

٧ - حافظ صديق الشعب

وتمضي الأيام على حافظ وشوقي بعد أن عرفهما جمهور الأدباء في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ويسلك كلٌ منهما طريقه في التطور الأدبي .

فأما حافظ فقد لقي الأستاذ الإمام واتصل به وأصبح له صفياً . وما هي إلا أن يتصل بأصدقاء الأستاذ وفيهم العالم الأزهري كالشيخ عبد الكريم سلمان ، وفيهم المجدد في الاجتماع كقاسم أمين ، وفيهم القاضي الثبت الذي أدرك حظاً عظيماً من المجد ولكن أستار

الغيب ما زالت مسدلة بينه وبين مستقبل عظيم كسعد زغلول ، وفيهم رؤساء العشائر والأسر الكبرى كحسن عبد الرازق وعلي شعراوي ومحمود سليمان . فيهم كل هؤلاء على اختلاف نزعاتهم وميولهم وأهوائهم ومنازلهم الاجتماعية . وهم جميعاً متفقون على أن حال الشعب سيئة وعلى أن استنقاذ الشعب من هذه الحال فرض عليهم هم قبل غيرهم من الناس ، وهم يسلكون إلى هذا سبلاً مختلفة . ويتصل حافظ بغير هؤلاء من زعماء السياسة الحادة والملتوية في أول هذا القرن ، يعرف مصطفى كامل وعلي يوسف ، يتحدث إلى هؤلاء جميعاً ، يأنس إلى بعضهم وينفر من بعضهم الآخر . وأولئك وهؤلاء يحبونه ويؤثرونه بالمودة والبر .

فانظر إلى ابن الشعب فقد رفعه الشعر إلى أعلى مكانة حيث تنافس فيه الأرستقراطية الشعبية وتحرص على قربه والأنس به ، وهو على ذلك لم يقطع صلته ولن يقطعها بأترابه من أوساط الناس ، بل هو شديد الاتصال بجماعة من الشعراء والأدباء والبائسين ، يأنس إليهم ويعطف عليهم ويصفيهم مودته ويبحث عنهم إن طال عهدهم به ، وهم يعرفون منه ذلك ويرضون ثم يتجنون ثم يسرفون في التجني والتحكم . وأخبار إمام العبد مع حافظ رحمهما الله لا تزال معروفة يتفكه بها الناس . ومجالس حافظ في قهوة متاتيا وقهوات باب الخلق وقهوات الناصرية معروفة مذكورة أيضاً .

هو إذاً صديق الشعب كله ! صديق الفقراء والأغنياء وأوساط

الناس، صديق العلماء المستنيرين، وصديق غيرهم من الذين لا حظ لهم من ثقافة أو ليس لهم من الثقافة إلا حظ ضئيل. تراه في كل بيئة وتراه في كل مكان. تراه في حديقة الأزبكية يقرض الشعر، وتراه في الشوارع يماشي أصدقاءه باسم الثغر مشرق الوجه مظلم النفس ضاحكاً مما يحزن ومما يسر.

خالط الناس جميعاً فأصبح هو الناس جميعاً، وصور نفسه في شعره فصور بها الناس جميعاً، ثم يموت الأستاذ الإمام ويتبعه قاسم ويتبعهما مصطفى كامل، ويظهر نبوغ حافظ في الرثاء بموت هؤلاء الناس الذين كانوا أصدقاءه لأنهم كانوا أعلام الأمة وذخرها. جزع أنصار الإصلاح الديني والاجتماعي لموت الأستاذ الإمام وموت قاسم، فكان شعر حافظ أصدق صورة لهذا الجزع لا غلو فيها ولا تقصير، ولا ضعف فيها ولا وهن. وجزع الشعب كله لموت مصطفى كامل فكان شعر حافظ صورة صادقة لهذا الجزع. نار ملتهبة ولوعة لا حد لها. وأخذت حياة حافظ تقفر من حوله بموت الأصدقاء وسوء الحال، فنفي ولكن في مصر، وأبعد ولكن في القاهرة، وأسند إليه منصب في دار الكتب فأصابه مثل ما أصاب شوقي. واضطر إلى أن يصانع ويداري ويحسب للقول حساباً ويكظم نفسه على ما تكره ويترك شعبه من غير ترجمان. رحم الله حشمت باشا أراد أن يبر بصديقه ويحميه من البؤس والشقاء ويمهد له حياة ناعمة راضية فحرم أمته شاعرها وطمر أو كاد يطمر هذا الينبوع الصافي العذب. ذلك أن حافظاً كان لا يزال

ناشئاً في الشعر على تفوقه وبراعته ونبوغه في السياسة . كان في حاجة إلى أن تحفظ له حريته واسعة مطلقة ليبلغ شعره أشدّه وليبسط ظله على مصر كلها ، فجاء هذا المنصب عقبة في سبيل النبوغ . خيّل إلى حافظ وإلى الذين أسندوا إليه هذا المنصب أنه سيخلص من البؤس فيفرغ للشعر . ولم لا ؟ لقد عرفت فرنسا كيف تستثمر شعراءها . ألم تسند إلى لكونت دي ليل منصباً كمنصب حافظ في مكتبة مجلس الشيوخ ، فلم يؤثر ذلك في شعره إلا أحسن الأثر جودة ونمواً وخصباً . فلم لا يكون حافظ مثل غيره من الشعراء ؟ آه لأن مصر ليست كغيرها من البلاد ، ولأن البيئة المصرية ليست كغيرها من البيئات . مصر في حاجة إلى المحن ، لم تألم بعد كما ينبغي ، ولم تصهرها الهموم كما ينبغي . مصر في حاجة إلى العلم . مصر في حاجة إلى الثروة الأدبية . مصر في حاجة إلى النشاط المتصل ، أشد أعدائها الراحة . وكذلك أبناؤها جميعاً وكذلك شعراؤها بنوع خاص . كان بؤس حافظ في نفسه شرطاً لاتصال شعره ونمو نبوغه ، كان حافظ محتاجاً إلى أن يظل بائساً ليرى بؤس الشعب من حوله وليحسه وليصوره . ولكن حافظاً غني بعد فقر ، واطمأن بعد اضطراب ، فهدأت نفسه ثم اشتد بها هذا الهدوء فضاق بالحياة وضاقت به الحياة أيضاً .

وليت حافظاً وقد فقد البؤس الذي كان سبيله إلى المجد لم يفقد الحرية ، فقد كان يستطيع مع الحرية أن يجد له في القول مذهباً . ولكن

الموظفين في مصر عبيدٌ مهما تكن الحكومات القائمة ، يجب أن يقدروا لأرجلهم موضعها قبل الخطو ، وألاّ يقولوا إلاّ بمقدار .

ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها ، فلم يكن من الممكن ولا من اليسير أن يتجه إلى تلك الفنون الشعرية الخالصة التي تصل بين الشاعر وبين الطبيعة ، والتي ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان . لم تكن النجوم في السماء ولا الرياض في الأرض ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظاً شيئاً ، لأن حافظاً لم يكن شاعر الطبيعة وإنما كان شاعر الناس .

في سبيل الله هذه الأعوام الطوال التي قضاها حافظ في دار الكتب لا يعمل شيئاً ، ولا يقول شيئاً ، وإنما يقضي صباحه في الدار يعبث بالموظفين ويتندّر عليهم ، أو على باب الدار يدخن سيجاره الضخم ، أو في قهوة دار الكتب يدخن الشيشة . فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه في الأندية الخاصة أو العامة .

على هذا النحو قضى حافظ ثلث حياته ، يرثي من مات ولكن بحساب ، ويقول هذا الشعر الذي يقال في المناسبات والذي لا يدل عادةً على شيء . ولا تكاد تردُّ الحرية إلى حافظ بإحالته على المعاش حتى يتنفس ، وإذا هو قد اتصل بالشعب من جديد ، وإذا هو يتأهب لينفجر وليرسل زفرات الشعب ناراً مضطرمةً تلتهم ما حولها ، ولكنه شيخ قد تقدمت به السن وذهبت بقوته الراحة في دار الكتب ، وضاع نشاطه هباءً مع دخان الشيشة والسيجار . فلا تثبت قواه الفانية لهذه

الأمانة الثقيلة التي نهض بها شاباً وكهلاً ، وكان يستطيع أن يستقل بحملها حين بلغ الأربعين ، وحين أسند إليه المنصب في دار الكتب فيقضي ، وإن أصدق ما يقال فيه لقول الشاعر القديم في عمر :

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائق في أكمامها لم تفتق

٨ — شوقي في القصر ، وفي المنفى ، وبعدهما

وأما شوقي فيمضي في طريقه التي رسمها لنفسه منذ أرسل من باريس همزيته التي يمدح بها الخديوي :

« خدعوها بقولهم حسناء ... »

فطلب القصر إلى الجريدة الرسمية أن تسقط الغزل وتنشر المدح، وود الشيخ عبد الكريم سلمان لو أسقط المدح ونشر الغزل . فلم ينشر من القصيدة شيء ، وعرف شوقي أن لا بد من الاحتياط في التجديد .

يمضي شوقي في هذه الطريق موظفاً في القصر شاعراً للأمير يمدحه كل ما دعا إلى ذلك داعٍ وحين لا يدعو إلى ذلك داعٍ ، يتفنن في هذا المدح فيجيد مقدماته غزلاً ووصفاً ولا يجيد في المدح نفسه إلا قليلا . وكان شوقي كما يقول في مقدمة ديوانه القديم يكره المدح وينكره على الشعراء المتقدمين ويود لو برئ الشعر من التهالك عليه والتنافس فيه ، ولكنه نشأ راغباً في أن يتصل بالأمير حريصاً على أن يكون شاعره حاسداً للمتنبي على سيف الدولة ، وقد اتصل بالأمير وأصبح شاعره فهو سعيد بذلك يعتز به ويفاخر ويتمدح :

شاعر الأمير وما   بالقليل ذا اللقب

نعم ليس قليلاً هذا اللقب في رأي شوقي فقد كان أمنيته صبياً، وقد كان أمنيته شاباً يطلب العلم في مصر ويطلبه في أوربا . ليس بالقليل وقد رأى شوقي مكانة علي الليثي من الأمير ومن الناس . ليس بالقليل في هذه البيئة التي لا تزال تذكر عهد إسماعيل وما كان فيه من رفع وخفض ومن عز وذل ومن سلطان للحاشية والمقربين . ليس بالقليل بل هو قد يكون مفيداً ، قد يكون مذكياً لنار الشعر ممهداً سبيل التفوق والنبوغ إذا كان الأمير أديباً كسيف الدولة أو كان هم الأمير بعيداً في الإمارة والسياسة ولكن أمير شوقي لم يكن أديباً فلم يفهم شوقي من هذه الناحية . ولم يكن أمير شوقي بعيد الهمة لأنه جرب بعد الهمة فساءت عاقبة التجربة وعرف صدق المثل القائل : «أفلح من طار بجناح أو استسلم فأراح» وآثر السلامة والراحة، وعكف على أموره الخاصة يعنى بها وعلى ثروته الخاصة ينميها . وأين يكون ذلك من شعر شاعر الأمير؟

شوقي إذن كحافظ يوم نفي إلى دار الكتب . ربة شعره سجينة، ولكنها سجينة في قفص ذهبي هو القصر ، تتغنى ولكن بغناء فاتر متشابه بالمدح . وقد قيد شوقي ربة شعره هذه بنفسه منذ كان في باريس . فلما عاد إلى مصر ظهر أن القيد الباريسي لم يكن ثقيلاً كما ينبغي فأضيفت إليه قيود وأغلال وأصبحت ربة الشعر أسيرة الأمير لا تنطق إلا بما يريد وحين يريد وكان الأمير ذكياً وكان الشاعر ذكياً أيضاً .

وإذا لم يُتَح للأمير أن يجعل من شوقي أبا الطيب كما فعل سيف الدولة، أو فرجيل كما فعل أغسطس . فقد يستطيع الأمير أن يستعين بشوقي الذكي على تدبير اموره الخاصة . ويستطيع شوقي الذكي أن ينال حظوة الأمير بالسياسة إن لم يستطع أن يحبب إليه الشعر . وكذلك يصبح الشعر سِمةً لشوقي لا صناعة ، ويستحيل الشاعر إلى رجل من الحاشية، ورجل القصر يدور حول الأمير ويلتوي ما التوت سياسة الأمير . يتحفظ في حديثه العادي فكيف به إذا مات الأستاذ الإمام أو قاسم أمين أو مصطفى كامل ؟ وكيف به إذا جزع الشعب لدنشواي؟ وكيف به إذا طالب الشعب بالدستور ؟

هو شاعر الأمير فخير له أن يسكت ، فإذا لم يكن بدٌّ من القول فحق عليه أن يحتاط . ثم هو شاعر الأمير يجب أن يفكر ويتدبر فيما يحدث بينه وبين الناس من صلة . يجب أن يقيس صداقته وعداوته وقربه وبعده برضى الأمير وسخطه . وإذاً فلن تكون بينه وبين طبقات الشعب المختلفة هذه الصلة الواضحة الصافية الصريحة ، هذه الصلة التي تجمع بين قلب الشاعر وقلب الشعب ، لن يحس شوقي ما كان يحس حافظ من حياة الشعب، وإن أحسه فلن يستطيع إلا الإعراض عنه . ليس شوقي ترجمان الشعب ولا لسانه، وإنما هو ترجمان الأمير ولسان الأمير، وما أشد ما كانت تتسع مسافة الخلف بين الشعب وبين الأمير . ومن هنا تستطيع أن تقرأ رثاء حافظ وشوقي لمصطفى كامل فستحس

في شعر حافظ قلب الشعب يخفق وسترى نفسه تضطرم · وستجد في شعر شوقي هذا البيت الذي سخر منه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بحق لأنه لا يدل على شيءٍ إلا على أن الشاعر مجامل يريد أن يقول شيئاً :

أو كان للذكر الحكيم بقيةٌ　　لم تأتِ بعدُ رثيت في القرآن

ومع أن ثقافة شوقي أخصب وأغنى من ثقافة حافظ فلم يستطع شوقي أن يفرغ للشعر الخالص في قفصه الذهبي كما أن حافظاً لم يستطع أن يفرغ لهذا الشعر في دار الكتب ، لا لأن شوقي كان يؤثر الفراغ وتدخين الشيشة والسيجار ، بل لأن الشخصية القوية التي كان يمتاز بها الأمير استطاعت أن تستأثر بشوقي وتفنيه في السياسة وتدبير أمور القصر · ويريد الله وتريد الأحداث أن تطلق ربة الشعر من عقالها وأن تخرج من هذا القفص الذهبي فلا تعود إليه · ولكن بعد ماذا ؟ بعد أن أنفق شوقي ربع قرن سجيناً في كنف الأمير أو في قصره ·

حيل بين الامير وبين الإمارة والقصر وحيل بين حاشية الأمير وبين القصر أيضاً ، فمنهم من تبع الأمير ومنهم من تخلف عنه وكان شوقي من المتخلفين

أفرحت ربة الشعر بحريتها ؟ أرضيت ربة الشعر بهذا الهوآء الطلق تتنسمه متى شاءت ، وبهذا الجو الفسيح تطير فيه كيف أحبت ، وبهذه الأشجار الباسقة والحدائق النضرة تنزل منها حيث أرادت مغردة بصوتها العذب مصفقة بجناحيها القويين ؟ لست أدري ، ولكن الذي يكرره الناس ويؤكدونه أن ربة الشعر ضاقت بحريتها أول الأمر ، وودت

لو نعود إلى سجنها الجميل الذي إلفته واستعذبت المقام فيه ، ويقال إنها استفتحت باب القصر بتلك القصيدة المشهورة الجميلة :

الملك فيكم آلَ إسماعيلا لا زال بيتكمُ يظلُّ النيلا

والتي يقول فيها هذا البيت المشهور :

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا

ولكن باب القصر لم يفتح ، وأعرض الشاعر عن أميره فلم يلحق به ، وأعرض القصر عن شاعر الأمير فلم يفتح له . وما هي إلا أن يظلم الشاعر ، يظلمه الأجنبي فتضيق به أرض مصر ويؤمر بالرحيل فإلى أين يذهب ؟ أيذهب إلى قسطنطينية حيث أخواله وعمومته من الترك وحيث الأمير ؟ أم يذهب إلى فرنسا حيث الشباب الغض والذكرى المبتهجة ؟ ولكن الحرب في قسطنطينية والأمير في قسطنطينية ، ولكن الحرب في فرنسا والحرب في أكثر بلاد أوربا . هنا اختارت ربة الشعر وطناً من أوطانها ففكرت في اسبانيا واستقرت في الأندلس . ولم تكن ربة الشعر فرحةً ولا مبتهجة وإنما كانت محزونة عميقة الحزن ، محزونة على القصر محزونة على الوطن محزونة على هذه الآمال التي قضبت قضباً . وربة الشعر تحيي النفوس دائماً متى تغنت ، تحييها بالغناء الفرح وتحييها بالغناء الحزين . وقد تغنت ربة الشعر في الأندلس فأحيت نفوس المصريين وأذكت في هذه النفوس جذوة الوطنية ووصلت قديم العرب في الأندلس بجديدهم في مصر . إيه يا ربة الشعر ، احزني على سجنك ما استطعت وابكي

عليه ما شئت ، فإن حزنك يملأ نفوسنا بهجة ودموعك تنقع مافي قلوبنا من ظمأ . لقد وجدناك بعد أن فقدناك . لقد رضيت في ظل القصر فغضبنا . فتعلمي الآن شيئاً من الإيثار في المنفى . اغضبي أنت واسخطي لنبتهج نحن ونرضى .

وكذلك حياة الشعراء قد صورهـا العباس بن الأحنف فأحسن تصويرها في هذا البيت :

كنت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

وتضع الحرب أوزارها ويؤذن للشاعر أن يعود إلى وطنه فيعود قوياً شديد النشاط ، ولكنه لا يكاد يبلغ القاهرة حتى يرى القصر فيحن إليه ويدنو منه . والقصر لا يعرفه ولا ينكره ، لا يدنيه ولا يقصيه . إيه ربة الشعر ، ليس إلى السجن الذهبي من سبيل . اقنعي إذاً بهذه الحياة الحرة . انظري ، إن همك لبعيد وإنك لمسرفة في الطمع . ماذا ! أتضيقين بالحرية ، وإن الشعب المصري من حولك ليسفك دمه في سبيل الحرية ؟ لا ترفعي بصرك إلى السماء فإن النجوم باقية والشمس باقية وقد تستطيعين أن تنظري إلى النجوم والشمس بعد حين . ولكن اخفضي بصرك ، انظري إلى الأرض ، لن تري عليها ذهب إسماعيل ، ولكنك سترين عليها دم أبناء النيل يراق في سبيل هذه الحريـة التي تضيقين بها وتنفرين منها . ويخفض الشاعر بصره إلى الأرض ويرى الشاعر أمته تراق دماؤها وتنتهك حرماتها وتألم في كل شيء ولكنها

ترتقب الأمل من كل شيء . يا للطبيعة الخصبة ، يا للقلب الذكي ، هذا شاعر القصر يصبح شاعر الشعب .

نعم لقد عز على شوقي فراق سجنه الذهبي ، ولقد حن إلى هذا السجن مرة ومرة ، وما أرى إلا أنه كان يذكر هذا السجن والحنين إليه وهو يقول هذا البيت من قصيدته في مشروع ملنر :

من يخلع النير يعش برهة في أثر النير وفي ندبه

ولكنه قد ذاق الآن لذة الحرية وظهر فيه عنصره العربي وعنصره اليوناني ، فهو يحب الهواء الطلق ، وهو يحب الديموقراطية ، وهو ينزل إلى الشارع ويطوف فيه حيث يلقى الناس ويتحدث إليهم ويسمع منهم ويشاركهم في لذاتهم وآلامهم ، ثم يرقى إلى سماء الشعر فإذا هو ترجمانهم الصادق ومرآتهم المجلوة الصافية . وكذلك الشعب قوي دائماً جذاب دائماً ، منه رفعة العظيم وبه خمول الخامل . رفع حافظاً حتى تنافس في قربه العظماء . وجذب شوقي حتى فتن بعامة الناس وأغمارهم . وكانت هذه الفتنة مصدر عظمته الباهرة ونبوغه الصحيح . لقد كان شوقي في أول أمره شاعراً أثراً يحب نفسه ويلتمس لها أسباب اللذة والنعمة . ثم شاعراً موظفاً يقف ملكاته على الأمير والسلطان ، ثم عاد إلى نفسه ثم رد إلى شعبه فأصبح شاعر الفن وأصبح شاعر الشعب . ماذا؟ بل وسع شعر شوقي في هذا الطور من أطوار حياته مصر والشرق العربي الناهض كله .

لقد كان في شبابه يذكر الشرق والإسلام، ولكن الشرق والإسلام في ذلك الطور كانا أسيرين في يد السلطان من آل عثمان . أما الآن فالإسلام دين الحرية والعدل والمساواة بين الأمم والشعوب لا دين الملوك والأمراء وحدهم . والشرق أمم مضطربة ناهضة تسمو إلى المثل العليا وتجد في السمو إليها ، والشاعر يلتمسها عند نفسها ، يلتمسها في الصحف ، يلتمسها في الكتب ، يلتمسها في الأندية ، يلتمسها في الشوارع والقهوات والأسواق والحوانيت ، يلتمسها حيث نعيش وحيث تنمو ، لا حيث كان يلتمسها من قبل في قصر الأمير وفي ظل السلطان . أصبح شوقي شاعر مصر كما أصبح شاعر الشرق العربي .

وصل شوقي في شيخوخته إلى ما وصل إليه حافظ في شبابه لأن شوقي سكت حين كان حافظ ينطق ، ونطق حين اضطر حافظ إلى الصمت ، يا لسوء الحظ ليت حافظاً لم يوظف قط ، وليت شوقي لم يكن شاعر الأمير قط . ولكن هل تنفع شيئاً ليت ؟ . لقد أسكت حافظ ثلث عمره ، وسجن شوقي ربع قرن، وخسرت مصر والأدب بسعادة هذين الشاعرين العظيمين شيئاً كثيراً . وتتقدم السن بشوقي وتكثر الحوادث من حوله ويشتد بشاعريته النشاط ، فإذا جناح شعره ينبسط وينبسط حتى إذا أظل الشرق العربي كله عاد شوقي فرفع بصره إلى السماء بعد أن ملأ عينيه مما في الأرض ، وإذا هو يرى في السماء الفن الخالص، يرى التمثيل ويرى الغناء فينفق بقية عمره في التمثيل والغناء .

أما في الغناء فقد أجاد من غير شك ، وأما في التمثيل فقد غنى فأطرب وأثر في القلوب ، ولكن لم يمثل شيئاً لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالاً ولا يهجم عليه في آخر العمر ، وإنما هو فن يحتاج إلى الشباب ويحتاج إلى الدرس ويحتاج إلى القراءة الكثيرة . وقد أضاع شوقي شبابه في القصر ، وقد أضاع شوقي نشاطه وحدة ذهنه قبل أن يفرغ للدرس . وقد كان شوقي قليل القراءة فكان تمثيله صوراً ينقصها الروح وإن حببها إلى الناس ما فيها من براعة في الغناء .

٩ — خاتمة

ثم يقبل صيف هذا العام فيخترم حافظاً وهو يتأهب للحرب كما تأهب أخيل بعد أن انحاز تحت الخيمة دهراً . ويقبل خريف هذا العام فيطفئ جذوة شوقي في هدوء ودعة يلائمان ما كان يمتاز به شوقي في حياته من هدوء ودعة . وكلا الشاعرين قد رفع لمصر مجداً بعيداً في السماء . وكلا الشاعرين قد غذى قلب الشرق العربي نصف قرن أو ما يقرب من نصف قرن بأحسن الغذاء . وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربي ورد إليه نشاطه ونضرته ورواءه . وكلا الشاعرين قد مهد أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة التي لا بد من أن تقبل ، هما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك . هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التي بدأت في نجد وانتهت في القاهرة وعاشت خمسة عشر قرناً أو أكثر ، والتي ستستحيل وتتطور

ونستقبل لوناً جديداً من ألوان الفن وضرباً جديداً من ضروب المُثُل العليا في الشعر . هما أشعر العرب في عصرهما . ولكن أيهما أشعر من صاحبه؟

أفترى أن ليس من هذا الحكم بدّ ؟ أفترى أن تفضيل أحد الرجلين على صاحبه يغني أو يفيد ؟ نعم ليس من هذا الحكم بد ، لأنه تقرير الحق الواقع ، وفي هذا الحكم نفعٌ عظيمٌ لأنه وضعٌ للأشياء في نصابها ولأنه يبين للمبتدئين في الشعر من الشبان أين يكون المثل الأعلى . أما أنا فلا أستطيع أن أقول إن أحد الشاعرين خيرٌ من صاحبه على الإطلاق . ولكن شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله . ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان . لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ . وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادةً وأنفذ منه بصيرةً ، وأسبق منه إلى المعاني ، وأبرع منه في تقليد الشعراء المتقدمين . لأن حافظاً كان يقلد في الألفاظ والصور ، وكان شوقي يقلد فيها وفي المعاني أيضاً . ولشوقي فنونٌ لم يحسنها حافظ وما كان يستطيع أن يحسنها . شوقي شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقي شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقي منشئ الشعر التمثيلي في اللغة العربية . يلتقي الرجلان في كثير ويفترق الرجلان في كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظاً في إقامة مجدنا الحديث .

مصر : طه حسين

من وطنية حافظ وشوقي

كيف ودع الشاعران اللورد كرومر

وطنية وشاعر ٠

تنازعني نفسي أن أذكر الرأي مقتضباً في مدلول هاتين الكلمتين ، بعد أن استفاضتا على كل الألسنة ، وبعد أن مسختا في الدلالة أشد مسخ قبل أن أقول عن وطنية الشاعرين ، ليَرْبَعَ على ظَلْعه من عطل عقله واندفع وراء الصيت يتملق آراء العوام وأشباههم من المتأدبين ٠

ما الوطنية ؟ وهل هي من السهولة بحيث يراها عامة الناس ، فيطلقونها على من شاءوا ؟ هل هي لَوْكُ بعض الألفاظ من وطن وأمة ومحتل واستعمار ؟ أو هي هتاف بحياة فريق وسقوط فريق ، أو هي تظاهرات وتجمعات وأحزاب ومقالات ٠٠ إلى غير هذا وذاك من الأعراض التي شغلت الناس عن الجوهر ؟

كلا ، ليست الوطنية في شيء من ذلك ، وإلا لكان عندنا في كل بلد من هؤلاء الوطنيين جيش لَجِب يزيد عن حاجة الأرض كلها :

الوطنية سهلة التعريف صعبة التحقيق وهي ٠ وقف المرء مواهبه في نفع أمته وبلاده تستولي عليه هذه العاطفة حتى تتغلغل في أغوار نفسه فيغدو بها شديد التأثر عميق الحس ٠ يطالعنا فلا نملك قلوبنا — مهما

قست — من التأثر بما يجيش فيه من شعور حي شريف . وإذن فعلينا أن نتخطى ظواهر الأشياء إلى بواطنها حين نريد الحكم في وطنية الناس، وأن نسأل قلوبنا وأقصى ضمائرنا قبل حواسنا، فإن نفعل فسنرى كثيرين من زعماء وشعراء وخطباء وعلماء حتى منفيين ومسجونين ، مصلوبين على الأعواد ومقتولين بالرصاص ؛ شغلوا الناس بأمرهم زماناً ثم برح الخفاء فإذا وطنيتهم هباء ، وإذا وطنهم الذي عنه يذودون مآرب خاصة ومناصب ومغانم : زخرف ومظهر ليس من ورائهما صدق ولا إخلاص .

وإذا تلهفت أن تنعم بطلعة وطني مخلص متفان فانشده بين العوام وصعاليك الناس الذين ترسلهم كلمة واحدة من الفريق الأول إلى حيث الشهادة والحياة الأبدية . نعم ، ستجدهم في هذه الطبقة كثيرين حيث لا يشغلهم عن الاستماتة في سبيل عقيدتهم مال ولا منصب ولا جاه .

إن كان لم يبلغك فسائل : كم من مرة طرقت مسامعنا — نحن الشاميين أيام المحن — كلمة واحدة يرسلها صعلوك مع آخر رمق من حياته مصاباً برصاصة أو شظية قنبلة قائلاً : « ربي بلادي » فتهز كلمته الموجزة نفوسنا هزاً ونرتعش لها ارتعاشة المقرور أرعده البرد ، وما هذا العهد ببعيد فينسى . فبالله والصدق ، أتعرف خطبة لزعيم أو قصيدة وطني — على كثرة ما تسمع من ذلك — فعلت فيك بعض ما تفعل هذه الكلمات يبعثها السذج مع أرواحهم ؟ أوحين كانوا بين أظهرنا يقول أحدهم : « يجب أن أخرج » وقد لمعت عيناه ورجفت أجفانه واضطربت

شفتاه على وجوه أطفاله يودعهم وقد باع نفسه في سبيل الله ؛ إن نظرة واحدة إلى هذا العامي الصادق تعدل ملء الأرض خطباً وقصائد . وليت لنا دائماً من هؤلاء بجميع ما في البلاد من زعماء أثرين ووطنيين مخاتلين .

هذه الوطنية ؛ وأما الشاعر شاعر الأمة بالطبع فهو من عاش في صميم الشعب : من الشعب وحيه ، وفي سبيله شعره ، وبه وجده وكلفه ، ومن أجل الشعب كدُّ ذهنه وتعب خاطره ، ولسعادة الشعب غناؤه ومناجاته وألمه . ولا أطيل هنا ، فإذا كان ذلك العامي الذي قدمت عنه مثل الوطنية المخلصة ، فالشاعر عندي من كان لسان هذا العامي في الشدائد والزعازع يفعل في نفوسنا من الأثر العميق ما فعل الأول وكفى .

ودعك بعدُ ، من قولٍ رصين وأسلوبٍ رشيق وكلامٍ جزل ولغةٍ بليغة وتشبيهٍ رائع ، فما نريد ألهيةً ، وإنما نريد شعراً مجدياً يبعث من في القبور .

* * *

الأمة العربية اليوم ، في العراق والشام ومصر ، في آسيا وإفريقيا ؛ هي في دور التكوين تؤسس بنيانها ، فلا نتطلب في هذه الظروف شاعراً غزلاً منمقاً ، ولا وصافاً للطبيعة ، ولا متزجماً ولا خنثاً ، ولا شيئاً من هذا ، بل نريد رجلاً معجزاً له في أمته مثل أثر الأنبياء في أممهم : همة قعساء لا تني في الاستخلاص والإنقاذ ؛ نريده اليوم حاذًّا محمساً ، منيراً الطريق موقداً بإخلاصه حمية العرب ، لسانهم في السراء والضراء ، يثني على

محسنهم ويبكت مسيئهم ، إذا ألمت نازلة صمد لها من دونهم ، وإن أصابهم عدو بمكروه سعى فألب عليه وقاد البلاء إليه من كل جانب . ثم بكى مصائب قومه واضطلع بأكبر نصيب من حسن العزاء وصادق العطف . ليس يجدي أدبنا اليوم ولا شعرنا أن نضطرب بين القصة والغزل والوصف والمدح والأدب المدرسي والأدب الإبداعي ، ولا بين اللاتينية والسكسونية ... ليس لدينا الآن متسع أن نختار ، أدب واحد علينا أن نبدأ به هو أدب القوة . حتمٌ علينا إذا شئنا السؤدد أن نغذيه ونحدب عليه ، فهو المدرسة الأولى لكل شعب يريد كياناً وقوة وحياة .

هذا رأيي موجزاً في الوطنية وشاعر الأمة تاركاً التفصيل والتحليل لمن سيتفرغون لبحث وطنية أحد الشاعرين . ولم يكن لي مندوحة عن هذا البيان قبل الكلام في المقارنة إذ عليه ستدور .

— ١ —

كابدت مصر في عهد اللورد كرومر ألواناً من البلاء ، وعانت مشقات ومصائبَ في كثير من مناحي حياتها . فقد أصاب هذا الرجل مقاتلها : فصل عنها السودان ، وعبث في معاهد العلم ، وكاد يقضي على اللغة العربية فيها ، وجعلها في حبائلَ محكمةٍ من الشركات الأجنبية التي هبطت في كنفه تستغلّ موارد الثروة المصرية ، وأرهق الناس والصحف ، ثم كانت حادثة دنشواي فكانت المجزرة المخجلة وكانت العار المميت للإنسانية الأوربية ، هذا إلى أن اللورد جعل من النُّظُم

الشبيهة بالدستورية ألاعيبَ ومهازل ؛ وكان الناس منه في جهدٍ جهيد، ثم كلل أعماله بتقرير أسود نال فيه من كرامة مصر بالجملة ، ثم رحل عن مصر فجرى فيها النفس وأحست برعشة الحياة وقالت — على حد تعبير شوقي — : أشهد أن لا إله إلاّ الله !

فكيف ودعت مصر فرعونها في عصر النور ؟ لقد ودعته مرتين : مرة على لسان حافظ، ومرةً على لسان شوقي ، وليس أحق منهما إفصاحاً عن كلة مصر .

سأبدأ بما اشترك فيه الشاعران، ثم أعقب بما انفرد به كلٌ عن رفيقه ، ثم أرسل الحكم بينهما :

لقد عرضا معاً لما يمنُّ به كرومر على مصر ، من أن الناس أصبحوا على عهده في رخاء ويسر، وأنه كان هو العامل في جلب الغنى . فابتدراه يردان عليه منته ، ردًّا ليِّناً في رفق ومواربة عند حافظ حين يسرد حسناته فيقول:

تشعبت الآراء فيك فقائل   أفاد الغنى أهلَ البلاد وأسعدا
رأى العز كل العز في بسطة الغنى   فحارب جيش الفقر حتى تبددا

وشديداً في غير محاباة ولا رفق عند شوقي حين يستغرب دعوى كرومر أشد الاستغراب : من أين أتانا بالغنى ؟ أمن بيت أبيه أم من خزانة قومه ؟ هي خيرات مصر تمتع بها أبناء مصر ، فما فضل هذا الدعيّ في ذلك ؟ وقد ساءه أن ينال كرومر من إسماعيل ولي نعمته فرد على كرومر دعواه وانتصر لإسماعيل قائلاً :

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى جحدوا الإله وصنعه والنيلا
وحياةُ مصر على زمان محمدٍ ونهوضها من عهد إسماعيلا
قد مدّ إسماعيل قبلك في الورى ظلّ الحضارة في البلاد ظليلا
إن قيس في جود وفي سرف إلى ما تنفقون اليوم عُدّ بخيلا

إلى آخر ما قال ، وحافظ قد أجمل ذلك كله ببيت واحد :

فما عهد إسماعيل والعيش ضيقٌ بأجدب من عهدٍ لكم سال عسجدا

وأشارا إلى تقرير كرومر وما فيه من الغمز واتهام المصريين بالكفران والتعصب والجهل وما أنذرهم به من احتلال دائم وذلة مستمرة إشارةً تكاد تكون واحدة عند الاثنين فليرجع إليها في القصيدتين .

وذكرا « دنشواي » ، ذكرها شوقي في معرض الدفاع عن إسماعيل فقال بيتاً واحداً :

أو كان قد صرع المفتش مرةً فلكم صرعت بدنشواي قتيلا

ثم مرّ مرّ الكرام على هذه الحادثة . أما حافظ فقد وطد لها في أول قصيدته ومكن فعدد حسنات اللورد التي يجمل بالمصريين أن يحتفوا بوداعه من أجلها لولا دنشواي : المانع القومي الأول دون الاحتفاء . ولحافظ في قصيدته الثانية في وداع اللورد أبيات هن غاية الغايات فيما قيل عن دنشواي وهن مشهورات سائرات أولهن :

قتيل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجع القوم الرقود .. الخ

يقرر حافظ في هذه الأبيات أن دنشواي على فظاعتها وشرها

المستطير كانت مبعث حياة لقوم أغرقوا في النوم، فإن ذمها من كل ناحية فقد أحمد أثرها في هذه فقط .

هذا أكثر ما يجتمع به الشاعران . وقد يلاحظ بينهما فرق كبير لعل للنشأة أبلغ الأثر فيه ؛ فشوقي لولا معرض مراماته دون حياض إسماعيل ، ولولا أن اللورد كرومر نعت عهد إسماعيل بعهد (الكرباج) ما كان لدنشواي — وهي ما هي ألماً بليغاً وفظاعة شنيعة — ذكرٌ في قصيدة شوقي . ولنذكر هنا أن شوقي ليس في ديوانه غير أربعة عشر بيتاً في دنشواي يسترحم فيهن العفو عن المسجونين في هذا الحادث ، بينا حافظ قد أرسلها مدوّية في الفضاء كالعواصف ، فخلد أثر هذه المأساة في قصيدتين كبيرتين تستحقان أن يعنى بهما المؤرخون والأدباء ، إذ أنه أقامها مناراً في معالم القضية المصرية . كما أنه كان يذكرها في كل مقام يبكي فيه مصر ، وأين لم يبكها ؟ ! وهنا في وداع اللورد كرومر لم يقف مسائلاً رسوم دار ولا كلفاً بالغواني ولا طالباً هبة ولا مستنجزاً وعداً :

ولكن وقفت أنوح نوحاً على قومي وأهتف بالنشيد

وأدفع عنهم بشبا يراعٍ يصول بكل قافية شَرود

وأرى أن هذه الناحية من الشاعرين تتطلب درساً خاصاً ، فقد كان شوقي لذاك العهد شاعر أمير وإن توسعنا في التعبير فشاعر طبقة عظامية قلما يتعرض لآلام الشعب يفصلها ويتوجع لها . وكان حافظ شاعر الألم القومي في

مصر أولاً : يعنيه البؤس والفقر وأمر البائسين والفقراء وعامة الناس أكثر من كل هذه العظاميات التي أخذ شوقي نفسه بها في ذلك العهد. وأنا لا ينقضي عجبي ولا استغرابي من خلوّ ديوان شوقي من مأساة دنشواي إلا في طلب العفو عن السجناء. وليس يقوم له عذراً في ذلك أنه شاعر أمير.

— ٣ —

في قصيدة حافظ محاولة المؤرخ المنصف، فقد آلى على نفسه التقيد بالصدق، فهو اذاً سيكظم من غيظه المتأجج في صدره من اللورد، وسيذكر كرومر بما ينسب إليه من حسنات ثم لا يأبى أن يمد إليه يده مودعاً لأنه يراه حقيقاً بتشييع المحبين والعدى. ولا بأس أيضاً أن يزوده بالكرامة وأن يطلب إلى الأهرام أن تخف وتتحرك لوداعه. لكن الأهرام لم تتحرك ولا قلوب جيرة الأهرام — على ما يظهر — وليس ذلك من جمود دمعة ولا من قسوة قلب ولكن من أن المرتحل هو (فرعون)، الشامخ المزبد. ولقد كان الشاعر فطناً لبِقاً في ذكر السبب:

فودع لنا الطود الذي كان شامخاً ... وشيع لنا البحر الذي كان مزبدا
وزوده عنا بالكرامة كلها ... وإن لم يكن بالباقيات مزوّدا
فلِمْ لا نرى الأهرام يا نيل مُيَّداً ... وفرعونُ عن واديك مرتحلٌ غدا
كأنك لم تجزع عليه ولم تكن ... ترى في حمى فرعون أمناً ولا جدا

يستقصي الشاعر أعمال اللورد فيجد فيها مناقب لا يجمل نكرانها،

وإذا كان من شرع مؤرخي الفرنجة أن يصموا آذانهم عن كل خير لغيرهم فليس من أخلاق العرب كفران الصنيع مهما حقر ، ولو كان من عدو . فاللورد أشاع الأمن في مصر وقضى على الفوضى والاضطراب وما هذا بالأمر الضئيل . واستتباب الأمن قبل كل سعي صالح لابد منه ولا تقدم إلا به ، واللورد تظاهر بنصرة الضعيف فاكتسب محبة في قلوب كسيرة . واللورد بعث النشاط الاقتصادي وعلى عهده تعززت موارد الثروة في البلد ونظم الري على ما يقول الناس ، وأطلق من عنان الألسنة الحبيسة ، وعرب مصر أوفياء شكورون ، يغفرون الهفوات إلى جانب الحسنات ، فما لهم جمدت عيونهم عند رحيل هذا الرجل ؟ وما لهم لم يستل سخائم صدورهم موقف الوداع ؟ كان يمكن ذلك لو لا أن اللورد ضرب العزة المصرية في صميمها . فبم يودعونه؟ أبالعيون التي أعشاها وزعزع أعصابها منظر الدماء الفائرة من صدور إخوانهم في دنشواي ومرأى السياط الصاعدة الهابطة على أجسامهم ومشهد المشانق المنصوبة علق عليها الأبرياء من الضعفاء المساكين ، أم بما وقر في أسماعهم من غمز اللورد من كرامتهم ودينهم ؟

الحق أن دنشواي وحدها حقيقة بتسويد صحف أمة بأسرها وجيل بأسره ، فضلاً عن اللورد العميد . فليس مستغرباً إحجام البلاد عن الوداع ، ولكن المستغرب سكون النفس المصرية حينئذ، وحصرها جيشانها في صدرها ، والمستغرب أكثر من ذلك أن يحشد

لوداع اللورد حفل من الموظفين والمماثلين يودعونه على عين من الشعب الكليم . ومستغرب أيضاً أشد من هذا وذاك ألا يستطيع حافظ المرور على ذكر حسنات للورد قلائل :

ولو لا أسى في دنشواي ولوعة وفاجعة أدمت قلوباً وأكبدا
ورميك شعباً بالتعصب غافلاً وتصويرك الشرقي غرًّا مجردا
لذبنا أسى يوم الوَداع لأننا نرى فيك ذاك المصلح المتوددا

في القصيدة بعد هذا سلسلة من البلايا التي صبها اللورد على مصر فليرجع إليها . ولكن ثلاثاً منهن قاصمات أهلكت الحرث والنسل وهددت كيان الأمم العربية في كل قطر محتل وكادت تدكه من أساسه وهن : إفساد التعليم ، وتجزئة البلاد ، والامتيازات الأجنبية .

فأما الأولى فهي شرهن وأخفاهن ضرراً : إذ قليلاً ما يحاول الأجنبي إلغاء مدارسَ جهاراً . لكنه يعمد إلى برامج التعليم فيرفع منها كل ما هو مُجْدٍ في نهضة البلاد ويحشوها بالقشور والسفاسف التي تصدع رأس الطالب فيخرج منها وليس فيه أدنى نفع لأمته . جهل تاريخ قومه ، وجُنِّبَ العلوم العملية التي هي دعامة النهضات ، وملئ دماغه بنظريات فارغة ومعلومات من هنا وهناك لا تفيد معرفتها ولا يضر جهلها . وهكذا تفقد الأمة الأمل في نشئها الذي عليه أن يحمل الأعباء ؛ ثم حربٌ دائمة ضروس للغة العربية ، ما تستريح ولا تني : غضٌ من شأنها في التدريس وفي الامتحان ، وغضٌ من شأن

معلميها ، يقابل ذلك رفعٌ من خطر اللغة الأجنبية فهي مدار النجاح في المدارس وخارج المدارس . وهي كل ما يؤهل عندهم من الثقافة، يميزون معلميها ومتعلميها على الأكفآء في كل شيءٍ : في المعاملة والوظيفة والراحة والمنزلة . وهم بعدُ لم يعلنوا على العربية حرباً قط ، ولكنهم يعضدون من ورآء حجاب كل فارغ وكل أبله ليتولى شؤونها . وأنت فطن تعرف ما ورآء ذلك ، تعرف كيف تتقدم لغة يؤخِّر عنها الأجنبي كلَّ ضليع بها غيور عليها ، ويقحم في إدارتها وتعليمها الشعوبيين والمغفلين الجاهلين . هذه رأس الأمر وملاكه في تخدير الحركة القومية . فاسمع حافظاً وقد نأى بجانبه عن الغنى الذي يلوح به اللورد للمصريين ليصرفهم عن لغتهم وعقولهم قال مخاطباً اللورد :

يناديك قد أزريت بالعلم والحجى ولم تبقِ للتعليم يا لورد معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعمداً وأجدبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أُم اللغات وإنه قضآء علينا أو سبيل إلى الردى

ولست أشرح شيئاً من الأمر الثاني أمر تجزئة البلاد وتفريق الكلمة . فهي سنة المحتلين في كل قطر ومصر . يهبطون بلاداً موحدة الكلمة مجموعة الشمل ، فيخلقون الفساد ويخلقون فروقاً بين طائفــة وطائفة وبلدة وبلدة ولا يزالون كذلك حتى يصير القطر أقطاراً والأُمة الواحدة شعوباً وأُمماً . هذا ما فعله الإنكليز لما فصلوا السودان عن مصر ، وهذا ما يفعله غيرهم في غير السودان ومصر :

ووافيت والقطران في ظل راية　　فما زلت بالسودان حتى تمرّدا
وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى　　فطاح كما طاحت (مصوع) بعده

وكذلك الأمر الثالث أمر الشركات والامتيازات الأجنبية فما به من حاجة إلى بسط فكلنا يعاني من أمره الإدّ في كل بلد، فهن المعاول دائبة في هدم ثروتنا وعزتنا، وهن كفيلات ألاّ تمضي أزمان حتى يعز الدينار في أيدينا و يعز وجود الغني منا فنصبح وأرضنا ومسا كننا نهباً بين الشركات نأ كل مما يمنون:

ألم يكفنا أنا سُلبنا ضياعنا　　على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا في العيش كل ممارسٍ　　خبيرٍ وكنا جاهلين ورُقّدا
وما الشركات السود في كل بلدة　　سوى شرك يلقي به من تصيدا

هذا ما يجيش من الألم في نفس حافظ على مصر من أعمال اللورد. فرحم الله حافظاً فوالله لكأنه حين يصف آلام مصر — في كل قطر من هذا الشرق العربي يرى ما يجري فيه، ولكأنه بدمعته هذه يمسح قلوب إخوانه العرب. وكأن هذا البيان يغرف من كل نفس عربية و ينبض بنبض كل قلب عربي. كل هذا بلهجة لينة مؤلمة، خفيفة الوقع — دون ريب — على الإنكليز بل على اللورد نفسه، الذي أطرى الشاعر حسناته قبل كل شيء، ثم توارى حياءً في ذكر سيئاته فجعلها على لسان غيره ثم تقدم من اللورد ونسي كل سيئة فقال:

سلام ولو أنا نسيُ إلى الألى　　أساءوا إلينا ما مددنا لهم يدا

— ٣ —

أما قصيدة شوقي فآية وُفق فيها صاحبها إلى ما أراد من جودة اللفظ الرصين أولاً ، وإلى ما أراد من تعنيف اللورد الراحل ثانياً . لكنه لم يبنِ تعنيفه على مثل ما بنى عليه حافظ حين عاتب اللورد متأثراً بالهزاهز الكبرى التي ألمت بمصر . ومع هذا ففي أوائل القصيدة بيت أجاده شوقي أبلغ الإجادة ، وأدقّ وصفه غاية التدقيق وكان جدّ موفق في تمثيله عهد اللورد وما عانت مصر من فظائعــه ، وفي حسن تعبيره عن عاطفة البلاد حين الوداع وعن أي شر تخلصت منه وتنفست ، كل ذلك ببيت واحد وأكاد أقول بكلمة واحدة نزلت في البيت أحسن تنزيل وذلك قوله :

لما رحلتَ عن البلاد تشهدت ... فكأنك الداءُ العياءُ رحيلا

إن كلمة (تشهدت) هنا من جوامع الكلم . فلنشرع فيما نحن فيه فليس هذا الإطراء منا بسبيل ولكني لم أطب نفساً بإغفال هذا الإحسان .

خلاصة ما في القصيدة أن شوقي أشار إلى أن اللورد أساء الأدب مع المحتفلين بوداعه ، حين جبههم بشتمهم فلم يجامل ، وقد رد عليــه الشاعر قوله في عهد إسماعيل وذهب إلى أن عهد هذا خيرٌ من عهد اللورد الذي يمنُّ على المصريين أن رفّه عيشهم . وإذا كان في البلاد مدارس وجمعيات خيرية ومعاقل ومدائن مخططة وطرق معبّدة وقطن مزروع محلوج فالفضل فيه لمحمد علي ولإسماعيل من بعده وليس منه شيء إلى اللورد .

ثم أشار كلمح الطرف إلى صرعى (دنشواي) في صدد الدفاع عن إسماعيل كما مر ، ثم وقف شوقي من اللورد موقف اللورد من المصر يين فصار يمن عليه أن إسماعيل بنى المعاقل والحصون التي لولاها لكان مفزع الجيش الإنكليزي إلى الخيام والمضارب ؛ فليشكروا إذن عهد إسماعيل الذي بنى لهم هذه القصور !! ولا أدري أي معنى هذا ؟ وحين يريد الكلام عن المعارف — وقد أسهبنا عما فعل حافظ وأنه جعل لها الشأن الأول — لا يخطر بباله إلا أمر واحد قليل الخطر في نظرنا ونظر الناس فيما أظن قال :

هل من نداك على المدارس أنها   تدع العلوم وتأخذ (الفوتبولا) ؟!

قبل الفوتبول يا شوقي آلاف من الأهوال لا تقتحم ، فإن كان منها الفوتبول فهو آخرها دون ريب .

ينفرد شوقي عن حافظ بذكر أمر نسيه الثاني وله خطره ، وهو إيصاد الإنكليز باب الترفيع إلى حد محدود في وجه الضباط المصريين وحصرهم بالرتب الصغرى ، مع أنهم ضمنوا النصر للإنكليز ووطدوا أقدامهم بالسودان وهذا كما لا يخفى مضعف من همم الجيش المصري :

أم هل يعدّ لك الإضاعة منةً   جيشٌ كجيش الهند بات ذليلا

حرمتهم أن يبلغوا رتب العلا   ورفعت قومك فوقهم تفضيلا

إلى هنا بيان شوقي مطرد الروعة والرصانة على كثرة ما أهمل ، لكنه بعد هذا يطلع علينا في أبيات أول كل منها لو كنت لو كنت ، وهو

يريد أن يقول : « إن اللورد قد وطد الأمر للأجانب وشركاتهم ومبشريهم والماليين منهم ، وللنزلاء وللسمعة الإنكليزية ؛ فلو كان شوقي واحداً من هؤلاء لمدحه . » وقد استغرق هذا المعنى عشرة أبيات . وهو معنى كما ترى غير طائل بَلْهَ ما فيه من حشر أسماء أعجمية ثقيلة عنها كل المندوحة .

شوقي إذن لا تزخر قصيدته بالمعاني الغنية المجدية التي تعبّ وتموج بها قصيدة حافظ .

— ٤ —

قد أجملت ما عرض له الشاعران . ولست أراني منصفاً إن لم أنبه إلى أن ما قدمت ليس كل شيء ، فهناك سبب يبدو لي قوياً في هذا الفارق بين نفسيهما : فشوقي أهمه أن يشتم اللورد الخديوي أمام ابنه الأمير حسين وأمام رئيس الحكومة حينئذ ويبهته هذا البهتان ، فأرغى وأزبد وعنف اللورد والرئيسين معاً ، كذلك أسخطه نيله من إسماعيل وعهده ، وكلا الأمرين لم يلتفت إليهما حافظ كبير التفات .

كاد يقف حافظ كل قصيدته على الأدواء الكبرى التي تعاني آلامها البلاد ، وشوقي شغل عنها بما هو أضأل وأحقر .

حافظ كان ينفس عن قلب الأمة المضطرم ، بيراكين من الكلام تخفف الألم وتعزي بعض العزاء طول عهد اللورد ، فلما ودعه أرقّ معه الكلام وكان نبيلاً غاية النبل — من غير تقصير — في خطابه وعتابه ،

وشوقي سكت طول عهد اللورد كأنه لم يحس بفاجعة أليمة قط إلا لما كانت حفلة وداعه وكان التقرير ، فانطلق شوقي مندفعاً أشد اندفاع شاتماً صاخباً في وجه اللورد منكراً كل حسنة له ، داعياً ربه عليه ولم يبق في القصيدة كلمة جميلة نحو اللورد . فإن تقل إنه لا يستحقها فقل ما الذي أسكت شوقي هذا العهد الطويل الذي أنطلق حجارة مصر بمر الألم والشكوى؟ السبب الوحيد حينئذ فيما أرى هو ما أسلفت من أن شوقي كانت نفسه عظامية وشاعريته وقفاً على الأمير ومن علا علوه من الكبراء . وهؤلاء في الغالب أبعد من أن يشعروا بآلام الشعب وحاجاته . حافظ بدأ قصيدته مخاطباً فتى الشعر : هذا موطن الصدق، فودع العميد بالكرامة، وشوقي يصرخ في وجهه مستهل الخطاب :

أيامكم أم عهد إسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم في أرض مصر بأمره ... لا سائلاً أبداً ولا مسئولا

شوقي أتبع مطلعه هذا شماتة جلية فقد تشهدت مصر لذهاب الداء العياء: اللورد كرومر، وحافظ كذلك علل إحجام الأهرام عن الوداع بقوله:

كأنك لم تجزع عليه ولم تكن ... ترى في حمى فرعون أمناً ولا جدا

ولفظة « كأنك » هنا لها ما لكلمة « تشهدت » في بيت شوقي من بلاغة ساحرة . وتزيد في الدلالة على لطف حافظ ونبله الزائد .

شوقي لا يعترف للورد بإحسان مطلقاً، وحافظ أقر له بأياد فأطراها لأن مصر أمة لا تجحد اليد .

حافظ أشار إلى تعرض اللورد للدين الإسلامي فلطف من التعبير وشرح عاطفة الناس يومئذ :

غمزتَ بها دين النبيّ وإننا لنغضب أن أغضبت في القبر أحمدا

وشوقي لم يصنع شيئاً حين قال :

من سبّ دين محمدٍ فمحمدٌ متمكنٌ عند الإله رسولا

وتباين الشاعران في ختام القصيدتين تباينهما في المطلعين فقد أنهى حافظ كلامه بقول معروف :

فيا أيها الشيخ الجليل تحيةً ويا أيها القصر المنيف تجلدا

لئن غاب هذا الليث عنك لعلةٍ لقد لبثت آثاره فيك شُهَّدا

وشوقي ما استطاع كتمان اضطغانه وشماتته فقال مبيناً أن رحيل اللورد باستجابة من الله لدعائه:

فارحل بحفظ الله جلّ صنيعه مستعفياً إن شئت أو معزولا

إنا تمنينا على الله المنى والله كان بنيلهن كفيلا

وفي الجملة فإنا نجد في قصيدة حافظ صورة واضحة للورد كرومر وأعماله وسياسة حكومته ، فيها ما ظهر وما بطن ، وليس من ذلك كثير عند شوقي .

ولا يفوتنك أن حافظاً على لين ملامس خطابه وعلى حسن وداعه كرّه الناس بالإنكليز وباللورد ، بل قد نفاه من الإنسانية بسياسة خفية حين عرض لأعماله، يظهر ذلك حتى في بشاشته في وجه اللورد ، فكلمة

(لقد لبثت آثاره فيك شهداً) جمعت كل المغامز . وشوقي على خشونة خطابه ما بلغ مبلغ حافظ . فإن لم يكن بدٌّ من التلخيص ، فحافظ ودع كرومر بلسان مصر المتألمة اليقظة الفطنة ، وشوقي شيعه بلسان الرؤساء . هذا في الموضوع ، وأما المبنى والرونق اللفظي فنصيب شوقي فيهما كبير غزير ، وإحسانه على قلة معانيه عظيم أيضاً ، فقد وفق في مواضع كثيرة كما وفق صاحبه . وقد تفرد كل منهما بميزات . وكان من الواجب بيان ذلك كله لو لا أن الكلام قد طال ، فلتبقَ المقارنة الفنية إلى فرصة أخرى غير هذه ، ولنا على القارئ المعذرة .

***

تغير الرجلان بعد أن شاخا ، وهذا الفصل مقصور حكمه عليهما حين نظما قصيدتيهما هاتين ، وما من هذا التنبه هنا بدٌّ كما لم يكن بدٌّ من بيان رأيي في الوطنية والشعر أول هذا الفصل ، إذ كثير من الناس من يكتفي من الوطنية بذم العميد ، ومن الشعر بصدوره عن شاعر كبير .

دمشق : محمد سعيد الأفغاني

شوقي وحافظ

٢

قصيدتي فيهما



أحمد عبيد

افول القمرين

مرثيتان في قصيدة

— ١ —

أهكذا الموت أنفاسٌ نؤدّيها إلى الحياة فلا يُرجى تقاضيها
أهكذا الموت صحوٌ لا سُبات به أو غفوةٌ لا يذوق الصحوَ غافيها

* * *

قد أدرك الناس سر الكون وانفتحت لهم مغالقُ قد تخفى مغازيها
خاضوا البحار وغاصوا في زواخرها فلم يَفتْهم ثمينٌ من لآليها
واستنطقوا عافيَ الآثار فانطلقت بألسنِ الدهر تبدي سرَّ بانيها
وسخروا الريح في الأجواء فانكشفت لهم عجائبُ كانت في مطاويها
عادوا ومن كل أمر العيش عندهم أنباء صدقٍ مدى الأيام نحكيها
لكنهم خشعوا للموت وانعقدت عنه مَقاولُ كم جالت مَذاكيها
الموت حقٌّ ولكن ليس نفهمه ولا نُجيد له وصفاً وتشبيها
لا يعرف الموتَ أبناء الحياة ومن يُطيق بالموت إن وافاه تنويها
أولى الحياة وأخراها تشاكلتا بأن كلتيهما سرٌّ مَراميها
ففي الطفولة أسرارٌ محجبّةٌ عنا وفي الموت أسرارٌ سنطويها

* * *

مَن للقوافي وقد أودى مُفوّفها والبلاغة إذ ولّى مُوشيها
ياحافظ الشعر والآداب قد نظمت بك المنونُ قصيد الموت ترويها
قد كنت تنشدنا شعر الحياة على نُعمى تُحاول أو بؤسى نُعانيها
وما الحياة سوى همٍّ نعالجه ومُنيةٍ نتغنّى في ترجيها
لولا المنى وعوادي الهم ما صلحت لنا الحياة ولا طابت مغانيها
وكيف نعجب ذا النعماء سيرتُه شبيهةً بتواليها أواليها
أم كيف نقوى على بأساء دائبةٍ ما إن نُغبُّ أخا البأساء تمويها
إذا تشابه عمر المرء باكره في مَيعة العمر للضرّاء داعيها

***

ما كان شعرك إلا وحيَ مُلهمةٍ يُهيب بالقوم غافيها وساهيها
ملكتَ ناصيةَ الفصحى فما شردت عنك الأوابدُ قاصيها ودانيها
فكان قولك منثوراً ومنتظماً مثلَ اللآلئ في شتّى مجاليها
وسار ذكرك في الأقطار منبسطاً مسيرَ شعرك في أقصى نواحيها

***

الشام ليس بناسٍ ما خلعت على بَنيه من خِلَع الإطراء تُسديها
ألبستهم من بُرود الفخر سابغةً بسائراتٍ من الأشعار تُمليها
نبهت من عزمهم يوم استقمت بهم (1) فكان شعرُك تنويهاً وتنبيها

***

---

(١) استقام به : مدحه وأثنى عليه .

قد كانَ منكَ ظلامُ السجنِ في كثبٍ　　لكنَّ نفسكَ لم تهدأْ نوازيها (١)

صرختَ في أوجُهِ الظلاّمِ محتملاً　　عِبءَ النضالِ ولم تَحفل بعاديها

***

حننتَ للموتِ في رَوْقِ الحياةِ ولم　　تزل تحنُّ إليه في تناهيها

حتى شربتَ بكأسِ الموتِ مُترَعةً　　على نِزاعٍ إلى الأُخرى وما فيها

ونالَ جنباكَ من بَردِ الثرى سكناً　　حنّا إليه زمانَ العيشِ توفيها (٢)

إن غابَ شخصُكَ عن مصرٍ وشاهدها　　فشمسُ فضلِكَ في الآفاقِ زاهيها

— ٢ —

للهِ كم تفجعُ الدنيا بأهليها　　وكم يلاقي من الأيامِ عانيها

في كلِّ يومٍ أحابيلُ منشَّرَةٌ　　للموتِ يعلقُ فيها من يوافيها

منازلُ الحيِّ ما تنفكُّ آهلةً　　بسامرٍ من بني الأحزانِ يأويها

ما يُرقئُ الدهرُ من عينٍ مدامعها　　إلاّ تفيضُ من الأُخرى مآقيها

ما انفضَّ عن حافظٍ في العربِ مأتمه　　لما أَصمَّ بشوقي صوتُ ناعيها

لم يُنسنا خطبُ شوقي لوعةً سلفت　　بحافظٍ بل تمادت في تلظيها

ركنانِ للضادِ كم شدّا أواسيَها　　والموهنونَ كثيرٌ في حواشيها

---

(١) إشارة إلى قوله :

إذا نطقت فقاعُ السجنِ متكأي　　وإن سكتُّ فإن النفسَ لم تطبِ

(٢) إشارة إلى قوله :

حنَّ جنبايَ إلى بردِ الثرى　　حيثُ أنسى من عدوٍّ وحبيب

على قلوبهما وحيُ البيان جرى ومنهما حكمة الأشعار نجنيها

***

يا نبأةً قد سرت في الشرق صادعةً قلبَ العروبة إذ نادى مناديها
هيجت من لاعجات الشجو ذاكيةً موصولةً بأدانيها أقاصيها
فجيعةُ الشعر والآداب موجعةٌ بمن أقام على الآداب يحميها
قدمات شوقي وما شوقي سوى قمرٍ في الداجيات يجلّي من غواشيها
في كل بيت له نورٌ يضيءُ لنا مناهجَ الرُّشد في أجلى مناحيها
إن شئته كان للإسلام داعيةً يعلي محاسنه فينا ويغليها
أو شئته كان فياضاً بحكمته على البرية يحييها ويهديها
أو شئته كان مثلَ الروض صبّحه سحائبُ المزن قد جادت غواديها
ففيه من نُزَهِ الأبصار محسبةٌ وفيه من مُتع الألباب كافيها

***

لم أنسَهُ واقفاً في الشام يدفعها إلى المعالي ويجلو من مواضيها
أوفى يذكِّر بالآثار ناسيَها (وقد يُذكَّر بالآثار ناسيها)
بالأمس قام على الفيحآء يندبها من بعد ما قام في الزهرآء يبكيها
أعاد ذكرى بني مروان لامعةً وقد خلا من بني مروان ناديها

***

من كان يجهل فعلَ الشعر في أممٍ أخنى الزمان عليها في معاليها

فلينظر الشامُ إذ سالت أباطحه بكل أغلبَ سامي النفس عاليها
ما زال يغمز شوقي من إبائهمُ ويستثير نفوساً جلّ ماضيها
حتى تلفّت أنوف الأُسد واضطرم الـ ـمدقّ وابتدر الغايات راجيها[1]
هبّوا إلى السيف يبنون الحياة به وليس يُبنى بغير السيف عاليها
مضوا إلى المجد يستغشون عزّته وما ارتضى بثياب الذل كاسيها
هذا هو الشعر فلتختمْ بشاعره قصيدةُ الخلد في أسمى معانيها

دمشق أحمد عبيد

تم القسم الثالث في المقارنات بين الشاعرين
وبه تمّ الكتاب

وقع في البيت السادس وهامشه من الصفحة ٦٦٤ كلمة الحلفاء ، وصوابها الفلحاء .

---

(١) إشارة إلى قوله :
غمزت إباءهم حتى تلفتت أنوف الأسد واضطرم المدقّ

تنبيهات

١ — أوردنا مقالات القسم الأول من غير ترتيب ثم رأينا أن نرتب الكتاب على ترتيب حروف المعجم في أسماء القائلين فجرينا على ذلك من الصفحة ١٧١ إلى آخر الكتاب .

٢ — ذكرنا المقالات والقصائد كاملة ولم نختصر إلا قليلاً من مقالة صاحبنا السيد عز الدين التنوخي وكلمات معدودة من مقالة الأستاذ التوني (بؤس حافظ) .

٣ — قصيدة الأستاذ النشاشيبي في شوقي استخلصناها من المقطع الأول من مقاله الطريف التالد في الشاعر الخالد .

٤ — كنا على أن نعزو كل قول إلى الصحيفة التي نقلناه عنها وبدأنا بذلك في أوائل الكتاب ثم رأينا أن نكتفي بنسبة القول إلى قائله مع الإشارة هنا إلى أن معظم ما في الكتاب منقول عن أمهات المجلات والجرائد في مصر وسورية . أما مقالتا السيد محمد سعيد الأفغاني ومقالة السيد محمد جميل سلطان فإنهما مما تفضل هذان الصديقان بكتابته لهذا الكتاب خاصة .

٥ — صور هذا الكتاب بعضها أهدي إلينا، وبعضها استعرناه من المجمع العلمي العربي في دمشق ، وسائرها نقلناه من الكتب والمجلات المصورة .

٦ — ليس في كتابنا هذا من غلط الطبع إلا ما يدركه الأديب باديَ النظر . لهذا لم نتكلف تصحيح ما فيه من ذلك .

فهرس
ذكرى الشاعرين

الصفحة

(*) هذه العلامة تدل على وجود صورة وتكرارها يدل على وجود صورتين ·

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مطبوعات

المكتبة العربية لأصحابها عبيد إخوان بدمشق — صندوق البريد ١٩

قرش مصري	
١٤٠	تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ أجزاء للشيخ عبد القادر بدران
٢٠	〃 〃 〃 〃 الجزء الثامن (تحت الطبع)
٦٠	النشر في القراآت العشر لابن الجزري جزآن
٢٥	مشاهير شعراء العصر (الأول في شعراء مصر) جمعه وشرحه أحمد عبيد
٣٠	روضة المحبين لابن قيم الجوزية صححها وعلق عليها 〃 〃
٣	أحكام النظر (مجردة من روضة المحبين) 〃 〃 〃 〃 〃
٣٠	طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى اختصار النابلسي 〃 〃 〃 〃 〃
٧	سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم 〃 〃 〃 〃 〃
٢٨	المراح في المزاح لبدر الدين الغزي 〃 〃 〃 〃 〃
٥	طرائف الحكمة جزآن جمعها ورتبها 〃 〃
٧٠	في سبيل الأخلاق (قصيدة) نظمها 〃 〃
٢٠	ديوان البحتري جزآن بالشكل الكامل مع فهرس القوافي
٥	〃 أبي فراس الحمداني
١٠	معاني الشعر للأشنانداني رواية ابن دريد
١٨	نظم اللآل في الحكم والأمثال لعبد الله باشا فكري
٤	الخيال في الشعر العربي للسيد محمد الخضر حسين
٤٠	موجز فن الجراثيم (بألواح ملونة) للطبيب الجراثيمي أحمد حمدي الخياط
٢٠	〃 〃 〃 (من غير ألواح) 〃 〃 〃 〃 〃
٣٠	صحة الأسرة ٣ أجزاء 〃 〃 〃 〃 〃
٧٠	ماجدولين والشاعر (خلاصة ماجدولين شعراً) للسيد خير الدين الزركلي
٥	المعيد في أدب المفيد والمستفيد للبدر الغزي اختصار العلموي
٦	نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر للحافظ السيوطي
١٠	الأرج في الفرج
٣	[illegible]
١٠	سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي



